الدعوة

قواعد وأصول

كافة حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الرابعة

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع ٨٨ / ٢٦٤٢

الترقيم الدولى X - 53 - 1395 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

المركز الرئيسى : ٢ ش منشا ـ محرم بك ـ الاسكندرية

☎ ٤٩٠١٩١٤ ـ ٤٩٠٧٩٩٨ ـ فاكس ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة : ١٧ ش توفيق الهلالى ـ فيصل ـ التعاون

☎ ٣٨٣٢٧٤٧

الدعوة

قواعد وأصول

تأليف

جمعة أمين عبد العزيز

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

من آيات الدعوة :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾

[النحل : ١٢٥]

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[فصلت : ٣٣]

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم
تقديم للأستاذ / مصطفى مشهور

الدعوة إلى الله شرف وعبادة ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾ والدعوة إلى الله مصدر عظيم لأجر الله وثوابه « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » ولكل عبادة فقه وأحكام يجب الالتزام بها لتكون عبادة صحيحة مقبولة . كذلك الدعوة إلى الله لابد لها من قواعد وأصول يلزم اتباعها من قبل الداعين إلى الله لتحقق الثمرة المرجوة منها من توحيد الله وعبادته واتباع الصراط المستقيم . إنها دعوة إلى التعرف على القضية المصيرية لكل إنسان وإلى الرسالة المهمة التى خلق من أجلها .

والدعوة إلى الله هى الوسيلة التى تفتح بها القلوب الغلف والأعين العمى والآذان الصم ، وما أصعبها من مهمة تحتاج إلى كثير من الحكمة والدقة والصبر والخبرة ، والداعى الذى لا يتحلى بهذه الصفات ربما تسبب أسلوبه فى نفور المدعوين وزيادة انغلاقهم ، لذلك وجه الله نبيه ﷺ إلى هذا المعنى فقال: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ .

والأخ الكريم جمعة أمين ـ أعزه الله وبارك فيه ـ وقد عاش معظم حياته فى أحضان دعوة الإخوان ورضع من لبانها وتغذى من زادها وتقلب مع إخوانه بين العافية والمحن والابتلاءات وأكرمه الله وثبته واكتسب تجربة وخبرة طيبة فى مجال الدعوة والتربية ، وله جولاته الكثيرة داخل مصر وخارجها فى مجال الدعوة إلى الله ، عرف أهمية الدعوة وأثرها فى كسب القلوب وفى إحداث التغيير فى النفوس وفى المفاهيم والعادات والتصورات والاهتمامات لذلك كان موفقا فى اختيار موضوع الكتاب .

ولما كان إمامنا الشهيد حسن البنا ذكر أن العمل فى حقل الدعوة يمر بمراحل ثلاث هى التعريف والتكوين والتنفيذ ، فعرف الأخ جمعة أن الوسيلة الأساسية فى مرحلة التعريف هى نشر الدعوة بكل الوسائل المتاحة المشروعة ، والتعريف هو الباب والمدخل لباقى مراحل الطريق لتحقيق الهدف العام الذى يفرضه الإسلام على المسلمين جميعا وهو إقامة الدولة والخلافة . وكلما أتقن الداعون إلى الله مهمتهم وأدوها على أحسن وجه كلما انعكس ذلك على باقى المراحل بالخير والتوفيق . ومن هذا المنطلق كان الأخ جمعة أمين

موفقا فى اختيار موضوع هذا الكتاب . ثم كان موفقا فى تغطية الموضوع والإحاطة بجوانبه من حيث الداعى والمواصفات اللازم توفرها فيه ثم إلى أى شىء ندعو الناس ثم كيف ندعوهم والمحاذير أو الأخطاء الواجب التحرز منها .

والحقيقة أننا إذا نظرنا إلى الواقع فى حقل الدعوة لوجدنا مجتمعاتنا وقد سادها جهل بحقيقة الإسلام وغفلة عن رسالتهم وسرّ وجودهم فى هذه الحياة الدنيا ، ولوجدنا بدع وخرافات وأخطاء وانحرافات ، وتطرف وخلافات إلى غير ذلك من آفات ترتب أهمية الدعوة إلى الله وإلى الطريق الصحيح والتخلى عن كل ذلك والتحلى بكل جميل يدعو إليه ديننا الحنيف . والمهمة غير يسيرة ولكنها بتوفيق الله وعونه وبالالتزام بأصول الدعوة وقواعدها وبالضمانات اللازمة لنجاحها وحسن أدائها تصبح يسيرة وتحقق النتائج والثمار المرجوة منها .

وقد لمست باطلاعى على الكتاب أن الأخ جمعة أمين قد حالفه التوفيق فى عرض موضوع الدعوة والإحاطة من جوانب متعددة بقدر ليس بالبسيط من التفصيل المفيد النابع من الخبرة والتجربة ، فقد جمع جمعه فأوعى وكان أمينا ودقيقا فيما قدم من علم ونصائح وأعجبنى ما ختم به مؤلفه من حصر لكثير من الأخطاء التى يقع فيها البعض فى مجال الدعوة للتحرز منها .

وإنى أوصى شبابنا المسلم عامة والداعين منهم خاصة إلى الاستفادة من تجارب من سبقوهم على طريق الدعوة أمثال الأخ الكريم جمعة أمين جزاه الله خيرا عن الإسلام والمسلمين .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله حمداً يوافى نعمه ، ويدفع نقمه ، ويكافئ مزيده ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وأرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، فتح الله به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأحل الطيبات وحرم الخبائث ووضع عنا إصرنا والأغلال التى كانت علينا فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون .

أما بعد

فما كان يجول بخاطرى أن الطبعة الأولى ستنفد بهذه السرعة ، وما كنت أظن أن يكون بين الطبعة الأولى والثانية هذه الفترة الوجيزة والمدة القصيرة وكنت آمل أن تطول الفترة بين الطبعتين عن ذلك لتتاح الفرصة للأساتذة الأفاضل ، والعلماء الأجلاء ، والإخوة الكرام الذين تفضلوا بقراءة هذا الكتاب أن يرسلوا إلى ملاحظاتهم القيمة ، وتعليقاتهم المفيدة ، وتوجيهاتهم المثمرة لتتضمنها هذه الطبعة الجديدة ، ولكن قدر الله وما شاء فعل .

والحمد لله على نعمائه فما أكثر ما سمعت من إخوانى وأحبائى تقريظاً وثناءً على الموضوع الذى تناولته فى هذا الكتاب وأسأل الله ألا يؤاخذنى بما يقولون ، وأن يجعلنى فوق ما يظنون ، وأن يغفر لى ما لا يعلمون فما لهذا كتبت « فاللهم إنى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئًا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه » ولقد رجوت كل من يهمه هذا الموضوع أن يكتب لى بما يراه نافعًا ومفيدا للشباب المسلم كى نؤصل له منهاجًا واضحًا فى الدعوة التى توصله إلى بناء الدولة بتوفيق الله وحده بخطواته المرسومة تعريفا وتكوينا وتنفيذا .

وكم ألححت على أساتذتى الأفاضل وإخوانى الكرام أن يستكملوا ما فاتنى ويستدركوا ما نقص من سطورى وأن يسددوا ثغراتى لينـ تدد الفهم الذى نريد أن يصل إلى الدعاة بل إلى الناس جميعًا حتى إذا رجمنا بحجر ألقينا الثمر وقلنا للناس حسنا فيقبل الناس علينا برغبة صادقة لا إكراه فيها ولا عنف معها بل بالحجة والإقناع ، ولكن يبدو أن مشاغل الإخوة كثيرة وواجباتهم أكثر من أوقاتهم ، فلم يجدوا من الوقت الكفاية ليحققوا أملا

رجوته وما زلت آمل أن يأتينى منهم ما يعود على الدعوة بالخير ليكون سطورا مضيئة بالطبعة الثالثة بمشيئة الله تعالى إن كان فى العمر بقية .

ولقد طلب بعض الإخوة الأحباب تفصيلا أكثر لبعض الأبواب ولكننا راعينا ألا يزيد حجم الكتاب عن ذلك لظروف كثيرة لا تخفى على القارئ الفطن وإن كنا نسأل الله أن يهيئ لمن هو خير منى أن يحقق هذه الرغبة النبيلة فيتناول هذا الموضوع بشىء من التفصيل والتأصيل المفيد إن شاء الله .

ولقد تفضل أستاذنا الجليل والمربى الكريم ـ الأستاذ مصطفى مشهور ـ بالرغم من مشاغله العديدة ومسئولياته الجسيمة التى نسأل الله أن يعينه وإخوانه على أدائها كما يحب ربنا ويرضى ـ أقول ـ تفضل وكتب مقدمة للطبعة الثانية وهذا شرف كبير لى أحسست بعده بقيمة هذا الكتاب وما حوى من موضوعات وكنت أود أن تكون المقدمة أطول من ذلك تمحص ما جاء فى الكتاب أو تضيف إليه ما انتقص منه أو تصحح ما زل به القلم أو توضح ما أشكل فيه من معان ومع ذلك فإنى أعتز بهذه السطور التى أعطت لكتابى قيمة ورفعت من قدره فكم من كتب دبجها أستاذنا الفاضل فى هذا الموضوع أصبحت مرشدا للحيارى ، ومنهجا للعاملين ، ونبراسًا للدعاة، وحجة على الحاقدين والمفترين والموتورين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ولتستبين سبيل المؤمنين لكل ذى عينين فيعرف ما ندعو إليه بحكمة وموعظة حسنة ومجادلة بالتى هى أحسن فجزاه الله عنا خير الجزاء وأطال فى عمره وأحسن عمله ونفع به الإسلام والمسلمين .

وأخيرا فإنى أشكر كل من خط سطرا وتناول موضوع هذا الكتاب فى الصحف اليومية بالتعليق المفيد والبناء الجميل وأخص بالذكر الأستاذ شعبان (الوفد) . . . . أبو ذر والأستاذ محمد الحيوان .

فجزاهما الله خير الجزاء على هذه المشاعر الطيبة إنه نعم المولى ونعم النصير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفقير إلى الله

جمعة أمين عبد العزيز

١٤ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ

٢٥ أكتوبر ١٩٨٨ م

إهـــداء

إلى الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، إخوة الطريق ، ورفقاء المحن ، وبلسم الشدائد . وإلى الباحثين عن حقيقة الدعوة إلى الله عقيدة وفكرا ، فهما وحركة ، تصورا ومنهجا ، دعوة وداعية .

وإلى الدعاة إلى الله فى مشارق الأرض ومغاربها ليزدادوا إيمانا بطريقهم وطريقتهم .

وإلى المحبين والمتعاطفين ليكونوا على بينة من وسائلنا وأهدافنا ، ومن طريقتنا ومنهاجنا .

وإلى ابنى قرة عينى ، وفلذة كبدى ليفقه الطريق من بعدى ؛ ليكون امتدادا لرسالتى مواصلا مسيرتى ومبلغا لدعوتى .

وإلـــى

من قال لنا : كونوا كالشجر يُرمى بالحجر فيلقى بالثمر .

ومن علمنا : اعرف ربك ، وأصلح نفسك ، وادع غيرك ، وأقم دولة الإسلام فى قلبك تقم على أرضك .

ومن نصحنا بقوله : نحن للدعوة عمالها ولسنا علماءها ، ودعاتها ولسنا قضاتها .

وإلـــى

ناطح الصخرة ليوهنها . . . ونافخ الشمس ليطفئها

ومسوّد الصفحات ليشوهها . . . ، ومنفق المال ليصدها .

والذين يتهمون دعاة الإسلام بالعنف تارة ، وبالإكراه تارة ، والعمالة تارة ؛ ليفكروا متجردين فى أسلوب دعوتنا ، وعرضنا لفكرتنا ، وإيماننا بعقيدتنا ، عسى الله أن يشرح صدورهم ، وينير بصيرتهم ، ويهديهم للحق كما هدانا ، فيفتح الله بنا قلوبا غلفا ، وأعينا عميا وآذانا صما ، فيصبحوا أحب إلينا من أنفسنا .

إلى هؤلاء جميعا

أهدى أصول دعوتنا وقواعدها لتكون حجة على الناس وإعذارًا إلى الله ، وليعلم الجميع أنى ما أتيت بجديد فى هذا الكتاب ولكنى جددت قديما كاد الناس أن ينسوه أو لا يصدقوه من كثرة التشويه والتضليل والتجهيل والتدجيل . . . فاللهم بلغت اللهم فاشهد .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وللخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ، وسار خطاه ، واهتدى بهداه إلى يوم الدين. . . أما بعد .

فمما لاشك فيه أن من حق الناس جميعا ـ قاصيهم ودانيهم ، أبيضهم وأسودهم، عربيهم وعجميهم ـ على الدعاة والعاملين فى حقل الدعوة الإسلامية أن يطالبوهم بتوضيح غايتهم وتحديد أهدافهم ووسائل تحقيقها تحديدا واضحا يفهمه الخاصة والعامة ، والمتعلم والجاهل ، وساكن القصور والكفور ، والحضر والمدر على حد سواء.

ذلك لأنه بقدر وضوح الغاية والوسيلة ، والأهداف ووسائل تحقيقها لدى المدعوين، بقدر سهولة اقتناعهم بالفكرة بله المشاركة فى تنفيذها والدعوة إليها والتبشير بها .

ومن هنا كان لابد للعاملين فى الحركة الإسلامية أن ينطلقوا بها من الفهم الشامل للإسلام وهم مؤمنون بقدرة هذه الدعوة على حل مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية ، والحركة الإسلامية إن كانت تسعى للتغيير نحو صالح الأمة وسلامة المجتمع ، ورقى البلاد، فإنها تعلم من قرآن ربها أن دعوة الناس لهذا الدين لا إكراه فيه ولا إجبار ولا قسر ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾ فلابد من سعة الصدر ، والاستماع إلى ما يوجهه المدعو من تساؤلات واستفسارات ولا يضيق الداعى صدرا بما يوجه إليه من هذه التساؤلات ، وها هو القرآن يجيب على تساؤلات الناس ، وما يعتمل فى نفوسهم ، وتقرأ فيه تساؤلاتهم المتعددة لرسول الله ﷺ ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر. . .** ﴾ ﴿**يسألونك عن اليتامى ؟ . .**﴾ ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون ؟ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟** ﴾ ﴿ **يسألونك عن الأهلة ؟ . .** ﴾ ﴿ **يسألونك عن الكلالة ؟ . .**﴾ فلا غضاضة فى سؤالهم ولا حرج طالما أنهم يريدون البحث عن الحقيقة والوصول إليها ، فقديما سألت الملائكة ربها عن آدم عليه السلام ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟**﴾ وسأله إبراهيم عليه السلام ﴿ **كيف تحيى الموتى ؟**﴾ كما سأله موسى ﴿ **رب أرنى أنظر إليك ؟** ﴾ كل ذلك لتجلو الحقيقة ويتضح الحق ويزهق الباطل فيجتث من القلوب فلا يصير له قرار فى أرض الواقع الذى يعيشه الناس . ولذا كانت من

مهام الرسول تبيان الذكر للناس والإجابة على أسئلتهم ﴿ ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ .

والتبيان يحتاج إلى حكمة وبصيرة فلا يفيد إجبار الناس وقسرهم أو إكراههم إلى ما تدعو إليه ، ومن هنا فإننا نرفض رفضا قطعيا مسلك العنف والإكراه كطريقة لفرض الآراء على الناس وإكراههم على تطبيقها بل نعمل على استئصال جذور هذا العنف من الفكر والواقع انطلاقا من فهمنا للإسلام وتعاملنا مع نصوصه ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن . . ﴾ فنحن نعتمد الحوار والإقناع ، ومقارعة الحجة بالحجة ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ؟ ﴾ ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه . . ﴾ ذلك هو السبيل الأقوم والطريق الأصوب لسيادة المبدأ وانتشار الفكرة بل هو المنهاج الذى لا نحيد عنه طالما أن فينا عرق ينبض .

وأنت إذا تدبرت القرآن تجد المولى سبحانه وتعالى حين أمر الرسول ﷺ بالبلاغ والإنذار لم يتركه يختار أسلوب الدعوة فى التبليغ والنذارة وهو ﷺ مَنْ هو صاحب الخلق العظيم، والسلوك الحميد ، والعقل الراجح والحكمة البالغة ومع كمال الصفات الإنسانية فيه نجد المولى يحدد له منهج الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ليكون منهاجا ربانيا ما كان للدعاة الخيرة فيه . يقول ابن القيم : جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمستجيب القابل الذكر الذى لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بالحكمة، والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاند الجاحد يجادل بالتى هى أحسن وبذلك يكون المنهج كما احتوى على تبيان الفكرة والهدف حوى أيضا وسيلة تحقيقه وأسلوب الدعوة إليه .

وهذا المنهج فى الدعوة إلى الله خطواته مرسومة ، وقواعده محددة وأصوله معلومة مَنْ طبقه بفقه وبصيرة فتح الله له القلوب الغلف والأعين العمى والآذان الصم ، فتهفو نفس المدعو لهذا الخير فيحبب الله له الإيمان ويزينه فى قلبه ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ويجعله من الراشدين فضلا من الله ونعمة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا أراد لعبد أن يوجهه لدعوة الخير والإصلاح ألقى فى قلبه كره ما عليه مجتمعه من ضلال وفساد. كل ذلك بفضل الله أولا ثم بفضل أسلوب الداعى البصير الذى يجرى الله على يديه الخير .

فإذا بنفس المدعو راضية ، وفؤاده مطمئن يستعذب العذاب فى سبيل الله فيتبدل ضيقه

فرجا وعسره يسرا وأمله حقيقة، فلا يستطيل طريقا ، ولا يتعجل نتيجة، ويوقن أن الله أعلم حيث يجعل رسالته وأن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا .

والداعى تلميذٌ إمامه الرسول ودستوره القرآن يتعلم منه دقته فى اختيار اللفظ ، وحكمته فى اختيار القول ، فهو يقول للمخالفين: ﴿ **تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** ﴾ وللمجادلين: ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ وللمعاندين: ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾ لأن شعاره ﴿ **وقولوا للناس حسنا** ﴾ فيتأدب بأدب القرآن تواضعا، ويدفع بالتى هى أحسن منهجا فإذا بسنة الله تتحقق ﴿ **فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ .

ولابد أن يعى الداعى أن أى تقصير فى تبيان إلى أى شيء ندعو الناس ؟ وكيف ندعوهم ؟ يمثل عقبة كؤودا فى طريق الدعوة لابد من إزالتها ليمهد الطريق لمن أراد السير فيه حتى لا تتعثر خطاه أو تزل قدم بعد ثبوتها .

ومن هنا كان لابد من فقه للداعى لأنه إذا كان كل زمان يحتاج إلى علم يفصل تفصيلا إذا غُمّ على الناس فإن علم الدعوة وفقهها هو الذى نحن فى حاجة إليه اليوم. إن العرب ما كانوا فى حاجة إلى علم النحو والصرف والمحسنات البديعية حتى يفهموا لغة القرآن، والقرآن نزل بلسان عربى مبين ، ولكن جاء زمان احتاج الناس لهذه القواعد بعد أن أصبح لسانهم أعجميا حتى يضبطوا الألفاظ ويحددوا المعانى فاحتاجوا لهذا العلم .

ونحن اليوم ما أحوجنا إلى ضبط المفاهيم والحركة بعد ما رأينا من إفراط فى الدعوة حتى كفَّر بعض الناس مجتمعهم الذى يعيشون فيه أو تفريط منه حتى أصبح هذا القرآن مهجورا ، وحدث ما حدث من انحطاط المسلمين ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ [مريم : ٥٩] .

لهذا كله فإنى استخرت الله تعالى وتوكلت عليه وسألته التوفيق فى توضيح ما أردت فكانت هذه الصفحات التى أردت أن أبين بها للداعى أن (الدعوة قواعد وأصول) وقسمتها إلى فصول أربعة بينت فى الفصل الأول أصول الدعوة وما يتعلق بها من حيث معنى الدعوة وتعريفها ووجوبها وإلى أى شيء ندعو الناس وخصائص هذه الدعوة وفهمنا لها وعوامل نجاحها ووسائل تحقيق أهدافها ، أما الفصل الثانى فتناولت فيه ما يتصل بالداعى وبينت بتوفيق الله أن الإسلام دعوة وداعية له صفات أخلاقية يتحلى بها من صدق وإخلاص ورحمة وحلم وصبر وحرص وأمل وثقة فى نصر الله كما يتحلى أيضا بالفقه والوعى محددا بذلك الشخصية المسلمة التى نسعى لاستعادتها بعد أن فقدناها فى زماننا هذا وحتى لا يكون هناك انفصام بين الداعى والدعوة ، ثم تحدثت فى الفصل الثالث عن

نماذج من منهج الرسل فى الدعوة إلى الله وبينت أنه منهج تطابق فى دعوتهم جميعا صلوات الله وسلامه عليهم ثم بينت موقف الداعى من المجتمع ومقاصد الشريعة الغراء وقواعد الدعوة وتقعيد العلماء لهذه القواعد والأصول الفقهية التى تحكم الداعى إلى الله وهو يدعو الناس لدينه لتكون ضوءا ينير الطريق ويعينه على التعامل مع المدعوين علّ الله يجرى الخير على يديه ، ثم كان الفصل الرابع الذى أشرت فيه إلى القواعد المستنبطة من القواعد والأصول الفقهية ليسترشد بها الداعى حين يخالط الناس ويعايشهم وفى نفس الوقت يدعو إلى الله على بصيرة ، وختمت بأمور لابد للداعى من التحرز منها ومراعاتها كل ذلك حتى يتيقن الداعى أن الدعوة قواعد وأصول وليست لونا آخر غير ذلك من الوسائل التى لا يضبطها ضابط ولا يحكمها فقه وأسأل الله أن أكون قد وفقت فيما كتبت وفيما سطرت حتى لا ينقطع عملى بعد موتى ولا أدعى أنى قد وفيت الموضوع حقه ولكنها سطور هى خلاصة تجربة وحصيلة تعلم من أساتذة كرام أسأل الله أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتهم ورضوان الله على إمامنا الشهيد حسن البنا الذى أثمر غرسه وطاب ثمره وهذه محاولة إحدى ثماره فإن أصبنا فبتوفيق الله لنا وإن كانت الأخرى فكلنا آذان مصغية لأساتذتنا الكرام يصححون لنا ما أخطأنا فى تبيانه ويصوبون مازل به القلم ولهم منا الدعاء والتقدير والاحترام ، والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل .

وسلام عليكم منا ورحمة الله وبركاته

الفقير إلى الله

جمعه أمين عبد العزيز

الفصـــل الأول

أصول الدعوة وما يتعلق بها :

- ـ معنى الدعوة .
- ـ تعريفها لغة واصطلاحا .
- ـ الواجب الثقيل .
- ـ الدعوة التى نعنيها .
- ـ فريضة شرعية .
- ـ ضرورة اجتماعية .
- ـ فضل الدعوة إلى الله .
- ـ خصائص دعوتنا .
- ـ إلى أى شىء ندعو الناس .
- ـ اتباع لا ابتداع .
- ـ فهمنا لدعوتنا .
- ـ عوامل نجاح دعوتنا .
- ـ الأصول العشرون .
- ـ الوسائل وتحقيق الأهداف .

★ ★ ★

معنى الدعوة

حين نقول الدعوة الإسلامية فإننا نقصد بها الرسالة الخاتمة التى نزلت على النبى محمد ﷺ وحيا من عند الله فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بكلامه المعجز ،المكتوب فى المصاحف المنقول عن النبى ﷺ بالتواتر ، والمتعبد بتلاوته.

ولقد تكفل الله بحفظه فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فأكمل به الملة ،وأتم به النعمة ، ورضيه لنا دينا ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ فهى رسالة الله فى الأرض ، ودينه للخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

● **تعريفها لغة واصطلاحا :** (١)

● **من معانى الدعوة لغة :**

١ ــ النداء يقال: دعا فلان فلانا ، إذا ناداه،ودعوت الرجل إذا صحت به واستدعيته .

٢ ــ الدعاء إلى الشىء بمعنى الحث على قصده .

٣ ــ الدعوة إلى قضية يراد إثباتها أو الدفاع عنها سواء كان حقا أو باطلا ، فمن الباطل حكاية القرآن عن يوسف عليه السلام فى قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣] .

أى من طاعة النسوة والوقوع فى الإثم ، وكما ورد فى قول الرسول ﷺ للأوس والخزرج حين اصطفوا للقتال : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم »

ومن الحق قوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥] وفى كتابه ﷺ إلى هرقل « أدعوك بدعاية الإسلام » أى بدعوته،وهى كلمة الشهادة واتباع منهج الله، ولذلك قال مؤمن فرعون : ﴿ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ﴾ فاستبان لنا أن هناك دعوة إلى الجنة وأخرى للنار .

٤ ــ المحاولة القولية أو الفعلية لإمالة الناس إلى مذهب أو ملة (٢).

٥ ــ الابتهال والسؤال ، جاء فى المصباح المنير ، دعوت الله أدعوه ، وأدعوه دعاء أى أبتهل إليه بالسؤال ، وأرغب فيما عنده من الخير .

---

(١) من كتاب الدعوة إلى الله للدكتور توفيق الواعى ١٥ ــ ١٦ .

(٢) المصباح المنير فى مادة ــ دعا .

يقول ربنا عز وجل: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام . . ﴾ قال فى اللسان: « ودعاء الله خلقه إليها كما يدعو الرجل الناس إلى مَدْعاة أى إلى مأدُبة يتخذها أو طعام يدعو الناس إليه » (١).

والمراد بدعوته سبحانه إلى دار السلام ـ وهى الجنة ـ دعوته عباده إلى ما يكون سببا فى دخولهم الجنة ، وهو الالتزام بدينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه والذين يستجيبون لهذه الدعوة هم حزب الله ، وحزب الله هم المفلحون ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ لأنهم أجابوا داعى الله وآمنوا به . والشيطان أيضا له حزب : وهو يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ وحزب الشيطان هم الخاسرون لأنهم استجابوا لندائه وعصوا رسل الله الكرام .

ولذلك فإنهم سيأتون يوم القيامة نادمين لعدم إجابتهم لداعى الله يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ . . ﴾ [إبراهيم: ٤٤] .

فهناك إذن مَنْ يدعو إلى الطاعة والمعروف ومَنْ يدعو إلى المعصية والمنكر ولهذا سمى الرسول داعيا إلى الله ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٦] وقالت الجن لما سمعت الذكر: ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ . . ﴾ [الأحقاف: ٣١] قال فى اللسان ، والدعاة يدعون الناس إلى بيعة هدى أو ضلالة وأحدهم داع ورجل داعية : إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين . أُدْخلت الهاء فيه للمبالغة ، والنبى ﷺ داعى الله تعالى «وكذلك المؤذن » وفى التهذيب : المؤذن داعى الله ، والنبى ﷺ داعى الأمة « إلى توحيد الله وطاعته . . » (٢).

وعلى ذلك فإن إطلاق لفظ الداعية يشمل من يدعو إلى هُدى أو ضلالة ويؤكد ذلك قول رسول الله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » (٣).

فكل داع يتميز بإضافته إلى ما يدعو إليه ، يقول الإمام ابن القيم: (الدعاة جمع داع ، كقاض وقضاة ورام ورماة ، وإضافتهم إلى الله للاختصاص ، أى الدعاة المخصوصون به ، الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته ، وهؤلاء هم خواص خلق الله ، وأفضلهم عند الله منزلة ، وأعلاهم قدرا (٤) فالداعى إلى الله يحاول دعوة الناس بالقول والعمل إلى

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٤ ـ ٢٦٠ . (٢) لسان العرب ١٤ ـ ٢٥٩ .

(٣) رواه مسلم كتاب العلم ٤ ـ ٢٠٦٠ وأبو داود وكتاب السنة ٤ ـ ٢٠١ عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٤) مفتاح دار السعادة ابن القيم ١ ـ ١٩٢ .

الإسلام وإلى تطبيق منهجه واعتناق عقيدته وتنفيذ شريعته. والدعوة إلى الله عز وجل التى أهملها المسلمون فى زماننا هذا فريضة حملها رسل الله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، كما حملها أتباعهم الصادقون الذين اقتفوا أثرهم من بعدهم واقتدوا بهم فى منهجهم وسلكوا سبيلهم . ولم يتقاعسوا عن السير بها فى طريقها الذى حدده المولى بالرغم من المخاطر والمكاره التى تحيط بها لأنه الواجب الذى لا خيار فيه ، وحبهم لهذا الطريق وصدق الإيمان به يهون كل بلاء ويسهل كل صعب ويؤكد الوصول للغاية المنشودة .

● الواجب الثقيل :

والدعاة إلى الله يعلمون أن مصائر البشرية كلها فى الدنيا والآخرة منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم ، وعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر تقوم سعادتهم أو شقوتهم ، ويترتب عليه ثوابهم أو عقابهم فى الدنيا والآخرة ، ومن ثمَّ كان الرسل عليهم الصلاة والسلام يحسّون بجسامة ما يكلفون به ، وكان الله عز وجل يبصرهم بحقيقة العبء الذى ينوطه بهم ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل : ٥] .

وهذا القول الثقيل يحتاج إلى تهيئة واستعداد وزاد للطريق يتزود به الداعى ليواصل المسير فى معية الله سبحانه وتعالى ولذلك قال المولى لرسوله ﷺ : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل ٢ ــ ٤] .

« إنه الأمر الهائل العظيم أمر رقاب الناس ، أمر حياتهم ومماتهم ، أمر سعادتهم وشقائهم ، أمر ثوابهم وعقابهم ، أمر هذه البشرية التى إما أن تُبلَّغ إليها الرسالة فتقبلها وتتبعها فتسعد فى الدنيا والآخرة ، وإما أن لا تبلغ إليها فتكون لها حجة إلى ربها ، وتكون تبعة شقائها فى الدنيا وضلالها معلقة بعنق مَنْ كُلف التبليغ فلم يبلغ . فأما رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل ، وهم لم يبلغوها باللسان فحسب ، بل بلغوها أيضا قدوة ممثلة فى العمل وجهادا مضنيا بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك أو ضلالات تزين ، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة ، وتفتنهم فى الدين كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، بما أنه المبلغ الأخير ، وبما أن رسالته خاتمة الرسالات ، فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان ، إنما أزالها بالسنان (١) ﴿حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

وبقى الواجب الثقيل على من بعده ، على المؤمنين برسالته ، فهناك أجيال وراء أجيال

---

(١) ظلال القرآن ٦ ــ ٣٠ سيد قطب .

جاءت وتجيء بعده ﷺ وتبليغ هذه الأجيال منوط بعده بأتباعه ، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة . تبعة إقامة حجة الله على الناس وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة ، وشقوة الدنيا إلا بالتبليغ والأداء على ذات المنهج الذى بلغ به رسول الله ﷺ وأدى .

فالرسالة هى الرسالة ، والناس هم الناس ،وهناك ضلالات وأهواء وشبهات وشهوات وهناك قوى عاتية طاغية ، تقوم دون الناس ودون الدعوة ، وتفتنهم كذلك عن دينهم بالتضليل وبالقوة ، ولابد من بلاغ بالبيان وبالعمل . حتى يكون المبلغون ترجمة حية لما يبلغون . . . إلخ ، وبلاغا بإزالة العقبات التى تعترض طريق الدعوة ، وتفتن الناس بالباطل وبالقوة ، ذلك كله يحتاج إلى تعريف وتوضيح وإقناع وبيان بحكمة الداعى وموعظته الحسنة ومجادلته بالتى هى أحسن . « فمن ذا الذى يستهين بهذه التبعة ؛ وهى تبعة تقصم الظهر ، وترعد الفرائص،وتهز المفاصل ، فلا استمرار فيها إلا بعون من الله ، ولا تحمل لها إلا بمدد منه سبحانه ولا ثبات عليها إلا بإخلاص الوجه له فصاحب هذا الطريق نهاره صيام وليله قيام وكلامه أذكار وحياته ومماته لله رب العالمين لا شريك له » (١).

● الدعوة التى نعنيها :

« والدعوة إلى الله التى نعنيها ، والتى يجب على المسلمين القيام بها هى التى تهدف إلى :

١ ــ تأسيس مجتمع إسلامى : كدعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، التى كانت تبدأ فى المجتمع الجاهلى من دعوة الناس إلى دين الله سبحانه ، وتبليغهم وحيه ، وتحذيرهم من الإشراك به .

٢ ــ دعوة الإصلاح فى المجتمعات المسلمة : التى أصيبت بشىء من الانحراف ، وظهر فيها بعض المنكرات وضيّع فيها بعض الواجبات .

٣ ــ استمرار الدعوة فى المجتمعات القائمة بالحق : للحفاظ على سلامتها ، بالموعظة الدائمة والتذكير والتزكية ، والتعليم .

والهدف الأول يحتاج إلى جماعة تقيم الإسلام أولا فى واقع حياتهم حتى يرى الناس فيهم القدوة الصالحة ، ويروا محاسن دين الله تعالى ماثلة فى مجتمعات المسلمين ويدركوا أثر هذا الدين فيمن آمن به وبذلك يدركوا عظمة هذا الدين ، فيسارعوا إلى الدخول فيه ، ورضوان الله على مَنْ قال : أقيموا دولة الإسلام فى قلوبكم تقم على أرضكم .

---

(١) فى ظلال القرآن ٦ ــ ٣١ بتصرف .

والمتأمل لحال المسلمين اليوم يجدهم قد فقدوا الشخصية الإسلامية التى تجذب الناس لدين الله وفقدوا القدوة الصالحة لغيرهم . فلم يعد الإسلام يتمثل واقعا فى حياتهم ، بحيث تبرز بالعمل والتطبيق جوانب الإسلام المشرقة ، وما فيه من سمو ورفعة فى التشريع والأخلاق والسلوك وحسن التعامل إلى غير ذلك مما تفقده البشرية اليوم ، وتحتاج إليه حاجة الظمآن إلى الماء البارد . ولن يكون رد غير المسلمين حين ندعوهم إلى الإسلام — ونحن لم نطبقه فى حياتنا — إلا أن يقولوا : لو كنتم صادقين فى أن ما تدعوننا إليه حق لسبقتمونا إلى الاستمساك به وتطبيقه فى جوانب حياتكم كلها ولكنكم غير صادقين لأننا لا نرى أثرا لما تقولون فى حياتكم والله عز وجل يقول عن عباد الرحمن: ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما** ﴾ .

قال ابن عباس والحسن والسدى وغيرهم : « أئمة يُقتدى بنا فى الخير » وهذا لا يعنى الإمساك عن دعوة غير المسلمين كلما سنحت الفرصة لذلك ، كأن يوجد من يرغب التعرف على أصول الإسلام أو الدخول فيه ، فذلك من الأهداف التى يسعى لها الدعاة إلى الله . وهذا الهدف سنذكره بشىء من التفصيل حين نعرض للأهداف التى ذكرها الإمام الشهيد حسن البنا لاستعادة مجدنا التليد .

أما الهدف الثانى فهو أظهر من أن نتحدث فيه . إذ معظم الدعاة إلى الله فى زماننا هذا فى مجتمعاتنا الإسلامية يعملون على تحقيقه بشتى وسائل الدعوة المتاحة لهم وأصولها التى سنذكرها .

أما الهدف الثالث فلا يتحقق إلا عند وجود المجتمع الذى لا توجد فيه ظواهر الفساد والانحراف وأين هو اليوم ؟ .

فلم يبق معنا سوى التوجه بالدعوة إلى إصلاح ما فسد من أخلاق الناس وسلوكهم ، وردهم عن الانحراف الذى وقعوا فيه ، وتبليغ دين الله سبحانه الذى أصبحت الغالبية العظمى من الناس تجهل أكثره ، وحماية المسلمين من مكائد الأعداء التى تصل المسلمين عبر كثير من الوسائل المستحدثة ، ومحاربة المنكرات الظاهرة (١) وذلك لتكوين لبنات صالحة لبناء المجتمع الصالح الذى تنشده وغاية المسلم فى جميع خطواته رضوان الله سبحانه وتعالى ليحظى بالنظر إلى وجهه الكريم وجنة عرضها السموات والأرض كلنا ندندن حولها (فالله هو الغاية) . أما الأهداف التى يسعى لتحقيقها فلا عليه إلا أن يأخذ بالأسباب لتحقيقها فإن تحققت فى عمره المحدوذ فبها ونعمت وإن لم تتحقق فحسبه الأجر والثواب

---

(١) معالم الدعوة ج١ ص٣٦ عبد الوهاب بن لطفى الديلمى رسالة دكتوراه .

من الله ورضاه عليه فى حياته الدنيا ليسعد فيها والنعيم الدائم فى الحياة الآخرة ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

● فريضة شرعية : والدعوة إلى الله فريضة شرعية والأدلة على وجوبها كثيرة نذكر منها :

أولا : قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . والآية واضحة فى الدلالة على الوجوب ، لمجىء لام الأمر فى قوله : « ولتكن » إلا أن قوله : « منكم » دل على أن الوجوب على الكفاية فالأمة كلها مأمورة بأن توجد منها من يقوم بهذه الفريضة وعند وجود من يقوم بها يصبح فى حق من تعينت عليهم فرض عين ، باعتبار الشروط فيهم ، كما يسقط بذلك الوجوب عن الباقين ، وإلا أثمت الأمة كلها ، وهذا من حيث إحياء هذه الفريضة واستمرار القيام بها . أما عندما يرى المسلم منكرا ، يجاهر به أصحابه ، فإن رسول الله ﷺ ، قد بين الواجب على المسلم فى هذه الحال فقال : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » (١) وتبيان تطبيق ذلك بقواعده وشروطه كما بين العلماء .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٥٩ ، ١٦٠] قال ابن كثير : « هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بين الله تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله » (٢) .

ثالثا : وقوله تعالى : ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة :٦٣] روى ابن جرير الطبرى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « ما فى القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية » وعن الضحاك أنه قال: « ما فى القرآن آية أخوف عندى منها إنّا لا ننتهى » (٣) .

وروى ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب على بن أبى طالب رضي الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إنما أهلك مَنْ قبلكم بركوبهم المعاصى ، ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادوا فى المعاصى أخذتهم العقوبات فمروا بالمعروف ، وانهوا عن

---

(١) رواه مسلم عن ابن سعيد الخدرى كتاب الإيمان ١ ــ ٦٩ .

(٢) ابن كثير ١ ــ ٢٠٠ .

(٣) تفسير ابن جرير .

المنكر ، قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم » . واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقا ، ولا يقرب أجلا (١) .

رابعا : قوله : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] .

عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قال فى تفسيرها : يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . ﴾ الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقابه » (٢) .

خامسا : قول الله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فقد أقسم الله عز وجل على خسران الإنسان من حيث هو ، ثم استثنى من توفرت فيهم هذه الصفات الأربع : الإيمان ــ العمل الصالح ــ التواصى بالحق (وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) والتواصى بالصبر سواء كان على الأقدار أو على الطاعات أو عن المعاصى أو على ما يصيبهم من أذى بسبب القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومرد الحكم على أى شأن من الشئون بكونه معروفا أو منكرا إلى الشرع « فالأمر الذى بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف والنهى الذى بعثه به هو النهى عن المنكر » (٣) .

ومعرفة ما هو معروف ومنكر فى الشرع يحتاج إلى علم وفقه ، ولذلك لابد لكل من يقوم بهذا الواجب من العلم والفقه ، أما الإقدام عليه مع الجهل ، فإنه يؤدى إلى الإفساد واتباع الهوى (٤) ، ولذلك فسّر العلماء البصيرة فى قوله تعالى : **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [يوسف: ١٠٨] بالبرهان العقلى والشرعى (٥) ، وبالمعرفة والتحقق (٦) .

زيادة بيان فى وجوب الدعوة

إن كل مسلم يحمل هذا الإسلام عقيدة وشريعة يعلم أنه مأمور بتبليغه إلى الناس جميعا لأنه من واجبه أن ينشره فى دنيا الناس حتى يستظلوا بظلاله الوارفة ، وينعموا بأمنه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ ــ ٧٤ .
(٢) مسند الإمام أحمد ١ ــ ٥ .
(٣) الفتاوى لابن تيمية ٢٨ ــ ٦٥
(٤) معالم الدعوة فى قصص القرآن الكريم ــ عبد الوهاب بن لطفى الديلمى رسالة الدكتوراه ج١ ص ٥٢ .
(٥) ابن كثير ٢ ــ ٤٩٦ .
(٦) مفردات الراغب الأصفهانى ص٤٩ .

وأمانه ، ولن يتحقق هذا الأمن والأمان إلا إذا شعر كل مسلم بأن فى عنقه أمانة ثقيلة بالنسبة لعالمية الدعوة التى لا تقتصر على زمان أو مكان ولا على دولة أو هيئة أو جماعة ، بل إن هذه مسئولية كل مسلم بقدر مشترك بين الجميع فلكل مسلم فى هذا القدر دور ونصيب « بلغوا عنى ولو آية » .

ولهذا كان لابد لهذه الدعوة العظيمة الشاملة من دعاة أقوياء ، وهداة أشداء ومبلغين صابرين يتناسبون مع عظمتها وشمولها ، قادرين على أن يمدوا أشعة ضيائها فى أنفس الناس وعقولهم وضمائرهم ، بعد أن تشرق بها جوانحهم وتستضىء بها حياتهم .

ولقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الدعوة إلى الله عز وجل وأنها من الفرائض ولقد ذكرنا بعضا منها كقوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ وقوله: ﴿ادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين﴾ وقوله: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ..﴾ .

فبين سبحانه أن أتباع الرسول ﷺ هم الدعاة إلى الله وهم أهل البصائر ، والواجب كما هو معلوم هو اتباعه والسير على منهاجه عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ .

ولقد صرح العلماء أن الدعوة إلى الله عز وجل فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التى يقوم فيها الدعاة بالدعوة لأن كل قطر وكل إقليم يحتاج إلى استمرارية الدعوة وفى هذه الحالة تكون فرض كفاية إذا قام بها من يكفى سقط عن الباقين ذلك الواجب وصارت الدعوة فى حق الباقين سنة مؤكدة وعملا صالحا وإذا لم يقم أهل الإقليم أو أهل القطر المعين بالدعوة على التمام صار الإثم عاما وصار الواجب على الجميع وعلى كل إنسان أن يقوم بالدعوة حسب طاقته وإمكانه ، أما بالنظر إلى عموم البلاد فالواجب أن يوجه طائفة منتصبة تقوم بالدعوة إلى الله عز وجل فى أرجاء المعمورة تبلغ رسالات الله وتبين أمر الله عز وجل بالطرق الممكنة فإن رسول الله ﷺ قد بعث الدعاة وأرسل الكتب إلى الناس وإلى الملوك والرؤساء ودعاهم إلى الله عز وجل »(١) .

فالواجب على أهل العلم والإيمان وعلى خلفاء الرسول ﷺ أن يقوموا بهذا الواجب وأن يتكاتفوا فيه وأن يبلغوا رسالات الله إلى عباد الله لا يخشون فى الله لومة لائم ولا يحابون فى ذلك كبيرا أو صغيرا ولا غنيا ولا فقيرا .

---

(١) من أبحاث الدعوة الإسلامية للندوة العالمية للشباب لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ص٣٧ (مقالة بعنوان فضل الدعوة إلى الله) .

وقد تكون الدعوة فرض عين إذا كنت فى مكان ليس فيه من يؤدى ذلك سواك كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنه يكون فرض عين ويكون فرض كفاية .

وعند قلة الدعاة ، وكثرة المنكرات وغلبة الجهل كحالنا اليوم تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته ، فقد تكون فرض عين بالنسبة إلى أقوام وإلى أشخاص وسنّة بالنسبة لأشخاص وأقوام لأنه وجد فى محلهم وفى مكانهم من قام بذلك وكفى عنهم»(١).

هى إذن فى زماننا هذا فريضة شرعية على كل مسلم ومسلمة ، رجلا كان أم امرأة شابا كان أم كهلا كل يبلغ ما علمه ولو آية ، يقول ربنا : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٧١].

﴿ والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ يقول الإمام القرطبى فى تفسيره : « فجعل الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ورأسها الدعاة إلى الإسلام » .

ولذلك يبين المولى هذه المهمة العظيمة فى قوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] . فوصف الأمة المسلمة بما وصف به رسوله ﷺ . النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

يقول ابن كثير فى تفسيره : « والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كل بحسبه »كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» وفى رواية « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

ولقد أقسم المولى سبحانه وتعالى بالعصر فقال : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا

---

(١) المرجع السابق مقال الشيخ عبد العزيز بن باز .

الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فدل ذلك أيضا على أن الإنسان فى خسران مبين إلا إذا تحلى بالإيمان والعمل والصالح وتواصى بالتمسك بالحق والجهر به صابرا على ما يصيبه من بلاء من جراء هذا الطريق الذى سلكه لأن الإسلام لا يظهر ولا يسود إلا بدعوة وتبليغ ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وخلاصة القول: إن فى زماننا هذا ـ كل مخاطب (مسلم ومسلمة بالغ عاقل) فهو مكلف بهذا الواجب وليس هذا التبليغ مقصورا على العلماء ـ كما يفهم العامة من المسلمين ـ فإن كل مسلم مطالب أن يبلغ ما فهمه وعلمه ، أما العلماء فهم يختصون بجانب التبليغ التفصيلى والأحكام الشرعية والمعانى التى يحتاج إليها عامة المسلمين نظرا لسعة علمهم بذلك ومعرفتهم للجزئيات ، ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ فالدعوة كما رأينا فريضة شرعية لا يمارى فى ذلك مسلم .

● ضرورة اجتماعية :

وكما أن الدعوة إلى الله فريضة شرعية فإنها أيضا ضرورة اجتماعية وذلك للأسباب الآتية :

أولا : الناس فى حاجة إلى مَنْ يبين لهم ما أمر الله به ليقيم الحجة عليهم ، وهذه من مهمات رسل الله عليهم الصلاة وأزكى التسليم. إذ لا عقوبة دون نذارة وصدق الله إذ يقول: ﴿لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾ ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥]. فكان لابد من دعوة الناس ليحيى من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

ثانيا : دنيانا التى نعيش فيها فيها من نوازع الشر والمطامع والأهواء الكثير وأصحاب هذه النوازع يودون أن يشيع كل ذلك فى المجتمع ليكون الجميع سواء ، فهم يدعون إلى فسادهم ويحبون أن تشيع الفاحشة فى مجتمعاتهم من باب ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً ﴾ ، ولذلك فإنك ترى هؤلاء يتعاونون مع بعضهم البعض ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧] فكان لابد من أن يتعاون أهل الإيمان على الخير لينتشر وعلى الفضيلة لتسود حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١] .

إذ لابد من مواجهة المفسدين فى الأرض حتى يخر عليهم سقفهم من فوقهم

ويصبحون كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وهذا لا يتم إلا بوجود القائمين بالدعوة إلى الله عز وجل ، وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإلا فسوف يخرق السفهاء السفينة التى نركبها جميعا إشباعا لشهواتهم ورغباتهم ، وحينئذ لا ينجو أحد ممن على ظهرها كما جاء ذلك فى الحديث النبوى الشريف : فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ ما فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »(١) ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

قال ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب » .

ثالثا : لاشك أن نهاية الأمة وهلاكها بفسوق مترفيها وكثرة الخبث بين أرجائها ، فلا تجد من يأمرها بمعروف ولا ينهاها عن منكر فلا يسمع الظالم كلمة حق تقال فيسود الظلم وتشيع الفاحشة ،ويعلو المنكر علو الزبد على الماء إذ أن قوة الأمة فى تمسكها بالحق وإقامتها للعدل ، وصدق رسول الله إذ يقول: « إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أن تقول له : أنت ظالم فقد تُودِّع منهم »(٢) .

رابعا : الخوف من لعنة الله أن تحل بالمجتمع الذى لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر كما حلت ببنى إسرائيل من قبل فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك . ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » . ثم قال: « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، وإلى قوله : فاسقون »(٣) ثم قال: « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطُرنّه على الحق أطرا ولتقصُرنه على الحق قصراً »(٤) . وفى رواية « أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » .

---

(١) البخارى كتاب الشركة ٣ ــ ١٨٢ والترمذى كتاب الفتن ٤٧٠ وأحمد ٤ ــ ٢٦٨ .

(٢،٣) مسند الإمام أحمد ٢ ــ ١٦٣ . (٤) رياض الصالحين للنووى ص ١٠٦ .

فضل الدعوة إلى الله

بفضل الدعوة إلى الله من العلماء والعاملين لنصرة هذا الدين تصل الأمة بإذن ربها إلى المجد والعظمة والسيادة ؛ لأنه بإخلاص هذه الفئة وثباتها وعزتها وبصيرتها يرفع الله بها راية الحق ، ونحقق على أيديهم الخير لتصبح الأمة خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

يقول ربنا عز وجل : ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾ . فى هذه الآية التنويه بالدعاة والثناء عليهم وأنه لا أحد أحسن قولا منهم وعلى رأسهم الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ، ثم أتباعهم على حسب مراتبهم فى الدعوة والعلم والفضل .

ألا يكفيك شرفا أن تكون ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ، أى سعادة تغمرك وأنت تقولها ؛ وأى شرف تشعر به لأنك تدعو إلى سبيل ربك ؛ وكيف لا ، وما دعى إلا بإذن ربه وحده . ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ .

فلم لا يفرح الداعى ويشعر بفضل الله عليه . ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ .

ألا يكفيك بشرى رسول الله ﷺ لك فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم «من دل على خير فله مثل أجر فاعله » وكما روى رضوان الله عليه أيضا قوله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » . وقد صح عنه ﷺ أنه قال لعلى رضي الله عنه وأرضاه : « فو الله لئن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » (١) . فيالها من نعمة عظيمة ، ومنزلة جليلة ، وخير عميم إن أنت خلقت للخير وخلق الخير لك وأجرى الله الخير على يديك ، وهنيئا لك وأنت تسمع رسول الله ﷺ يقول لك فى الحديث الذى رواه الإمام الترمذى عن أبى أمامة مرفوعا قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر يصلّون على معلم الناس الخير » .

---

(١) متفق عليه

● شعور بالأسف :

وللأسف الشديد فإن المسلمين اليوم لا يزالون يدعون بعضهم إلى الإسلام نعم نحن مازلنا ندعو المسلمين للإسلام بينما أصل الدعوة لغير المسلمين لإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .

أقول ـ مازلنا نحاول إقناع المسلمين بشمول الإسلام وعمومه بشريعته وشعيرته . بنظامه وأخلاقه ، ومازلنا نوضح ونبين ونبرهن ونقنع المسلمين بالإسلام أليس هذا من البلاء الشديد .

إن النصح للمسلمين واجب لاشك فى ذلك ، فنذكرهم إذا نسوا ونعظهم إذا غفلوا ونعينهم إذا وهنوا ، أما أن تدعوهم إلى الإسلام فهذه هى الغربة التى أشار إليها رسولنا ﷺ حين قال : سيعود الإسلام غريبا كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء .

إن مهام المسلمين دعوة غيرهم لدين الله يقولون لهم : إن الله ابتعثنا لإنقاذ البشرية من وهدتها وشقائها بحضارتها المادية وتصوراتها الجاهلية فى الاعتقاد والتشريع والنظام ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

وكم نود أن تتسع الدعوة الإسلامية فى الأصقاع والبقاع التى لا تعرف عن الإسلام إلا طقوسا وشكليات فنرشدهم إلى الجوهر والأصل ، بل نريد أن تتسع هذه الدعوة لتصل عبر القارات ﴿ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

من أجل ذلك كان لابد من أن يكون للمسلمين مخطط شامل منظم ، ومنهج مدروس نواجه به التحديات وندعو به أهل هذا العصر بالأسلوب الذى يقنعه ونقيم الحجة عليه ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة . هذا هو واجب المسلمين ، ولكن ما يجب أن يكون شىء وما هو كائن شىء آخر ، والواقع الملموس يقول: إننا نشرح للمسلمين ـ نعم فهم مسلمون ما نطقوا بالشهادتين وعملوا بحقها ـ أقول ندعو المسلمين ونبين لهم دعوتنا لأنهم فى حاجة إلى عرض الإسلام كله مع شرح كتاب جعله الله تبيانا لكل شىء، وتقريب نبوة جعلها الله ريادة إلى ميادين الكمال الإنسانى كله وإحاطة بقواعد الدعوة وخصائصها ومعرفة دقيقة بما افتقده المسلمون فى زمانهم هذا ، كل ذلك يقدمه الداعى إلى الله وقد تأسى بأخلاق الداعى الأول رسولنا ﷺ حتى تنجذب إليه القلوب وتهوى إليه الأفئدة ، وتخضع لخالقها النواصى ولا تبتغى غير الإسلام دينا ولا يتم ذلك الفهم الشامل إلا إذا تعرف المسلم على خصائص دعوته فما هى خصائص دعوتنا ؟

● خصائص دعوتنا :

للدعوة الإسلامية خصائص تنفرد بها عن غيرها من الدعوات نشير إليها بإيجاز شديد وهى :

١ ـ ربانية فى مصدرها فهى وحى من عند الله .

٢ ـ وسطية فى اختيار الله لها .

٣ ـ إيجابية فى نظرتها للكون والإنسان والحياة .

٤ ـ واقعية حين تتعامل مع الفرد والمجتمع .

٥ ـ أخلاقية فى وسيلتها وغايتها .

٦ ـ شمولية فى منهاجها .

٧ ـ عالمية فى الدعوة إليها .

٨ ـ شورية فى الحكم بها .

٩ ـ جهادية لمن يصد طريقها ويمنع انتشارها .

١٠ ـ سلفية الفكر والتصور والاعتقاد .

هذه هى دعوتنا بخصائصها التى تميزت بها ، إنها دعوة الله سبحانه وتعالى فإذا كانت هذه الدعوة هى الدين الذى ارتضاه الله للعالمين وأنزل تعاليمه وحيا على رسوله الأمين ﷺ وحفظها قرآنا وبينها سنة وأمر رسوله ﷺ بتبليغها للناس جميعا ، فإن الداعى إلى الله يدعو أيضا الناس جميعا مسلمين وغير مسلمين إلى تنفيذ الإسلام والعمل به وإقامة شرعه على الأرض ليسعدوا فى دنياهم وينعموا فى أخراهم وهذا كله يتطلب من الداعى تبيانا وتوضيحا وشرحا وتفصيلا أسوة برسول الله ﷺ الذى قال له ربه : ﴿ ونزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ وهذا التبيان يلتزم بمنهج القرآن نفسه الذى حدده لرسولنا ﷺ ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ .

فأصبح على الداعى مهمة جليلة هى معرفة أساليب الإقناع وطرقه ومناهجه المختلفة مثل :

١ ـ حسن العرض .

٢ ـ جمال الأسلوب .

٣ ـ الترغيب فى الحق .

٤ ـ استعمال الحكمة والموعظة الحسنة .

٥ ـ المجادلة بالتى هى أحسن .

٦ ـ مراعاة مقتضى الحال .

٧ ـ استخدام أفضل وسائل الإعلام ومنجزات العصر .

ومن هنا كان لابد للداعى أن يكون عليما بما يقول ، حكيما فيما يدعو .

يقول الإمام العينى : « الحكمة تدل على علم دقيق محكم وتعليمها كمال علمى ، والقضاء بها كمال عملى » (١) ، كما يقول : الحكمة تحتاج إلى علم دقيق بأسرار الحياة وطبائع النفوس وأوضاع المجتمع وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بتعلم الحكمة وكيف لا؟ وقد أرسل الله رسوله ﷺ بها ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة : ٢] .

بل إن كل رسول ونبى ما أرسله الله إلى قومه إلا وآتاه الحكمة : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٥٤] .

ويقول لعيسى عليه السلام : ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [المائدة : ١١٠] .

ويقول عن داود : ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

ويقول عن لقمان : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان : ١٢] وقال لرسولنا ﷺ : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾ . فما أحوج الدعاة إلى الله إلى معرفة سيرة الأنبياء عامة وسيرة رسول الله ﷺ خاصة وسيرة السلف الصالح يستمدون من ذلك كله علما بالمنهج وحكمة فى التطبيق . ولذلك كان لابد للداعى أن يسأل نفسه أولا وقبل كل شىء إلى أى شىء ندعو الناس ؟ ثم يردف ذلك بسؤال آخر وكيف ندعوهم ؟ليحقق بذلك الدعوة علما بها وحكمة فى تبليغها .

● فإلى أى شىء ندعو الناس ؟

سؤال يخيل للمسلم أنه لا يحتاج إلى إجابة لبداهته ،فهو أوضح من الشمس فى رابعة النهار،وأوضح من أن يجاب عليه ، وهل هناك مسلم لا يعرف إلى أى شىء يدعو الناس؟

فلأول وهلة تبدو الإجابة سهلة واضحة وهى كذلك لو تحددت المصطلحات ووضحت

---

(١) عمدة القارئ ج٢ ص ٢٤٩ .

الغايات واستبانت الوسائل ، بينما الحقيقة غير ذلك إذ بتعدد التصورات للإسلام لبعد الناس عن التصور الإسلامى الصحيح تعددت الإجابة ، واختلفت اختلافا بينا . صحيح قد تتحد الإجابة إجمالا لأننا جميعا ندعو إلى الإسلام الحنيف . ولكن البون سيكون شاسعا ، والاختلاف كبيرا كاختلاف الليل والنهار إذا كان فى الأمر تفصيل وتوضيح وتحديد ومن هنا كان توجيه المسلم هذا السؤال لنفسه أولا وقبل أن يخطو على الطريق خطوة من الأهمية بمكان ليحدد تصوره ويعرف غايته ، ويحدد معالم طريقه ، ويعد الوسائل اللازمة للوصول إلى ما ينبغى بخطى ثابتة ومعالم واضحة ، وتصور محدد سليم ، ففاقد الشىء لا يعطيه.

ونحن ابتداءً ندعو الناس إلى دين الله ، ودين الله هو الإسلام ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ الإسلام بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى إسلام الوجه لله فى صغير الأمر وكبيره ، الإسلام بشموله ، وعمومه ، بدينه ودولته بعقيدته وشريعته ، بنظامه وأخلاقه بقيادته وريادته ، بجهاده وعبادته ، بدنياه وآخرته بكل ما أنزل على سيدنا محمد ﷺ من فعل المأمور ،وترك المحظور ، والصبر على المقدور ، مقتفين أثره ، متبعين خطاه ، سائرين على نهجه متبعين لا مبتدعين ، مخبتين لله، متميزين برسالته ، محققين لقوله : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ .

● اتباع لا ابتداع :

ونحن فى هذا كله نتأسى بالرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه ، فنأخذ بحُجُز الناس حين نراهم يلقون بأنفسهم فى النار لنخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلال إلى الهدى . ومن الباطل المظلم إلى الحق المبين ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن السبل المتفرقة إلى صراط الله المستقيم مرددين ما قاله ربعى بن عامر لرستم قائد الفرس : « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ».

ولاشك وديننا دين التوحيد الخالص فإننا ندعو الناس لكلمته « لا إله إلا الله محمد رسول الله » التى تحمل كل هذه المعانى القيمة ، والتى قدمها الصحابة رضوان الله عليهم للناس على أنها فكاك أعناقهم من ضروب الوثنيات الدينية والاجتماعية فلا مكان فى ظل الإسلام لفرعونية حاكمة ، ولا قارونية كانزة ، ولا كهنوتية موجهة ولا جماهيرية ذلول الظهر لكل راكب أو مستغل ، ومن خلال تعاليم الكتاب والسنة يدرك الناس دون تكلف ولا تقعر أن الحريات موطدة وأن الحقوق مصونة ، وأن العقل الإنسانى ينبغى أن يفكر دون

قيد وأن أشواق الفطرة تلبى دون حرج وأن الصيحة الوحيدة التى يصحو عليها النائم ليصلى، ويصغى إليها المرهق قبل أن يدلف إلى فراشه ليرقد هى الله أكبر فجرا وعشاء»(١).

نقول هذا لنبين للناس ما ندعو إليه ؛ لأن من الناس من لا يرى الإسلام شيئا غير حدود العبادة الظاهرة فإن أداها أو رأى من يؤديها اطمأن إلى ذلك ورضى به وحسب أنه قد وصل إلى لب الإسلام ، وذلك هو المعنى الشائع عند عامة المسلمين ، ومن الناس من لا يرى الإسلام ، إلا بالخلق الفاضل والروحانية الفياضة ، والغذاء الفلسفى الشهى للعقل والروح ، والبعد بها عن أدران المادة الطاغية الظالمة ؛ ومنهم من يقف بإسلامه عند حد الإعجاب بهذه المعانى الحيوية العلمية فى الإسلام فلا يتطلب النظر إلى غيرها ولا يعجبه التفكير فى سواها ، ومنهم من يرى الإسلام نوعا من العقائد الموروثة والأعمال التقليدية التى لاغناء فيها ولا تقدم معها ، فهو متبرم بالإسلام وبكل ما يتصل بالإسلام ، وتجد هذا المعنى واضحا فى نفوس كثير من الذين ثقفوا ثقافة أجنبية ولم تتح لهم فرص حسن الاتصال بالحقائق الإسلامية فهم لم يعرفوا عن الإسلام شيئا أصلا أو عرفوه صورة مشوهة بمخالطة من لم يحسنوا تمثيله من المسلمين .

● فهمنا لدعوتنا :

أما فهمنا نحن لدعوتنا التى ندعو الناس إليها ، فهى أن الإسلام ينتظم الحياة جميعا ، ويفتى فى كل شأن من شئوننا ، ويضع لها نظاما محكما دقيقا ، ولا يقف مكتوف الأيدى، أمام المشكلات الحيوية والنظم التى لابد منها لإصلاح الناس ، فهو ليس مقصورا على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانيات كما فهمه بعض الناس لكننا نفهمه على أنه ينتظم شئون الدنيا والآخرة ، فمهمتنا إذن سيادة الدنيا وإرشاد الإنسانية كلها إلى نظم الإسلام الصالحة وتعاليمه التى لا يمكن بغيرها أن يسعد الناس .

وإن أردت زيادة بيان عن أى شىء ندعو الناس ؟ فما عليك إلا أن تنظر إلى حالة العرب قبل الإسلام وبعده لترى كيف كانوا قبائل مبعثرة لكل قبيلة ولاء قبلى فأصبحوا بنعمة الإسلام إخوانا ، وكيف كانوا فقراء إلا فى رحلة الشتاء والصيف فأصبح إمامهم يخاطب السحابة ويقول لها : «أمطرى أنى شئت فسوف يأتينى خراجك » ، وكيف كانوا يتقاتلون من أجل ناقة وقسمتهم الحروب ألف حزب كل حزب بما لديهم فرحون ، فصنع منهم الإسلام خير أمة أخرجت للناس دولتها مترامية الأطراف تمتد من أواسط آسيا شرقا إلى شاطئ المحيط الأطلسى غربا تجمعهم عقيدة واحدة ويحكمهم كتاب واحد ، فوطدوا

---

(١) مشكلات فى طريق الدعوة ــ الشيخ محمد الغزالى .

بذلك أركان دعوتهم وأسسوا بنيان دولتهم ، وانظر كيف كانوا عالة على الفرس والروم فى حضارتهم لا يعرفون لهم تاريخا فأصبحوا أساتذة البشرية ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ... ﴾ .

وكيف كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة فأصبحوا أصحاب علوم ومعارف ويعلمون البشرية ويوجهون العالم ، كل ذلك بعد أن جاءهم الخبر اليقين ، إن الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون فسادوا بالحق وبادت أمم بالباطل فجحدوا وكذبوا وعصوا ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ﴾ ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ .

● عوامل نجاح دعوتنا :

هذه دعوتنا بمعانيها السامية ، ومفاهيمها الأصلية ، وبرسالتها الخالدة وهى تحتاج من الداعية الذى حملها بأمانة أمورا لابد أن يعمل على تحقيقها لتنجح دعوته ويقبل الناس عليها ويصل إلى غايته السامية هذه الأمور هى :

١ ـ الفهم الدقيق .

٢ ـ الإيمان العميق .

٣ ـ الحب الوثيق .

٤ ـ الوعى الكامل .

٥ ـ العمل المتواصل .

وفى سبيل الوصول إلى هذه الغاية الكريمة يبيع المسلم لله نفسه وماله فليس له فيها شىء فهو يجعل الدنيا وقفا على دعوته ليكسب آخرته جزاء تضحيته ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ .

وهكذا فإن الداعى يؤمن إيمانا لاخفاء فيه ولاشك معه ، ويعتقد عقيدة أثبت من الرواسى وأعمق من خفايا الضمائر بأنه ليس هناك إلا فكرة واحدة هى التى تنقذ الدنيا المعذبة وترشد الإنسانية الحائرة ، وتهدى الناس سواء السبيل وهى لذلك تستحق أن يضحى من أجلها فى سبيل إعلانها والتبشير بها وحمل الناس عليها بالأرواح والأموال وكل رخيص وغال ، هذه الفكرة هى الإسلام الحنيف الذى لا عوج فيه ولا شر معه ولا ضلال لمن اتبعه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران : ١٨ ، ١٩] .

وعلى هذا نستطيع أن نوجز فهمنا لدعوتنا فى أمور ثلاثة :

أولا : إن تعاليم الإسلام تنظم شئون الناس فى الدنيا والآخرة فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة ، وروحانية وعمل ،ومصحف وسيف والقرآن ينطق بذلك كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه ، ويوصى بالإحسان فيه جميعه ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧] .

ثانيا : إن هذه التعاليم معينها هو كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ ، اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبدا ، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا الله به .

ثالثا : إن الإسلام كدين عام انتظم شئون الحياة فى كل الشعوب والأمم لكل الأعصار والأزمان ، جاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة ، وخصوصا فى الأمور الدنيوية البحتة ، فهو إنما يضع القواعد الكلية فى كل شأن من هذه الشئون ويرشد الناس إلى الطريقة العملية للتطبيق عليها والسير فى حدودها .

والحقيقة التى لا مراء فيها ولا جدال أن الشهيد حسن البنا قد وضع عشرين أصلا موجزة أشد الإيجاز للفهم لا أجد أشمل منها تصورا ولا أعمق منها فهما للإسلام وذلك لإرشادنا إلى التصور السليم والفهم الصحيح للإسلام ، وسميت بالأصول العشرين ، رأيت أن أعرضها هنا كأساس للتصور الكامل ، والفهم الشامل للإسلام .

● الأصول العشرون :

(١) الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة فهو دولة ووطن وحكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ورحمة وعدالة،وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ،كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء .

(٢) والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع لكل مسلم فى تعريف أحكام الإسلام ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ، ويرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقاة .

(٣) وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام

الشرعية ، ولا تعتبر بشرط عند اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

(٤) والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته« إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

(٥) ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه ، وفيما يحتمل وجوها عدة وفى المصالح المرسلة معمول به مالم يصطدم بقاعدة شرعية ، وقد يتغير بحسب الظرف والعرف والعادات والأصل فى العبادات التعبد دون التفات إلى المعانى وفى العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد .

(٦) وكل أحد يؤخذمن كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ما جاء من السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ، ولكنا لا نتعرض للأشخاص ــ فيما اختلف فيه ــ بطعن أو تجريح ،ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدموا .

(٧) ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلته ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته ، وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

(٨) والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سببا للتفرقة فى الدين ، ولا يؤدى إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره ،ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب .

(٩) وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا ، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التى تقع والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفى التأول مندوحه .

(١٠) معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام ، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من المتشابه ، ونؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ .

(١١) وكل بدعة فى دين الله لا أصل لها ــ استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة

فيه أو بالنقص منه ـ ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها .

(١٢) والبدعة الإضافية والالتزام فى العبادات المطلقة خلاف فقهى ، لكل فيه رأيه ، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان .

(١٣) ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى ، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان لله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم .

(١٤) وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم، وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة .

(١٥) والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه ، خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة .

(١٦) والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية ، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها ، والوقوف عندها ، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين ، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء .

(١٧) والعقيدة أساس العمل ، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة ، وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعا ، وإن اختلفت مرتبتا الطلب .

(١٨) والإسلام يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ويرحب بالصالح النافع فى كل شىء . والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها .

(١٩) وقد يتناول كل من النظر الشرعى ، والنظر العقلى ، مالا يدخل فى دائرة الآخرة ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار .

(٢٠) لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ـ برأى أو معصية ـ إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال أو عملا لا يحتمل تأويلا

غير الكفر .

ونحن بهذا الفهم السليم لدعوتنا نحاول أن نضع هذه المفاهيم موضع التنفيذ لتكون حياة مشاهدة ومبادئ مطبقة يشاهدها الناس ويلمسون أثرها ، وذلك بمحاولة تحقيق الأهداف الآتية :

(١) إصلاح النفس حتى يكون المسلم قوى الجسم ، متين الخلق ، مثقف الفكر ، قادرا على الكسب ، سليم العقيدة ، صحيح العبادة ، مجاهدا لنفسه ، حريصا على وقته ، منظما فى شئونه ، نافعا لغيره ، وبذلك يصاغ أفراد المجتمع صياغة ترتكز على الصلة بالله ، والتعرف عليه ، فتتحقق معنى العبودية لله ، ويربى التربية الإسلامية الصحيحة ليسمو ببدنه وعقله ووجدانه وتبرز خصائص الإنسان العليا ليكون فى أحسن تقويم .

(٢) تكوين بيت مسلم بأن يحمل أهله على احترام فكرته ، والمحافظة على آداب الإسلام فى كل مظاهر الحياة المنزلية ، وحسن اختيار الزوجة وتوقيفها على حقها وواجبها ، وحسن تربية الأولاد والخدم وتنشئتهم على مبادئ الإسلام لتصبح الأسرة نموذجا صغيرا للمجتمع الذى ننشده .

(٣) إرشاد المجتمع ، بنشر دعوة الخير فيه ، ومحاربة الرذائل والمنكرات ، وتشجيع الفضائل والأمر بالمعروف والمبادرة إلى فعل الخير ، وكسب الرأى العام إلى جانب الفكرة الإسلامية وصبغ الحياة العامة بها دائما ؛ ليكون هناك رأى عام يدعو إلى الفكرة ويعمل على تحقيقها .

(٤) دعوة الحكومة لتطبيق شرع الله بكل الوسائل الحكيمة ، وآداب الإسلام السامية بعد أن صار مطلبا جماهيريا تطالب به جميع الفئات والأحزاب ـ حتى تكون حكومة تعمل بالإسلام بحق ، وبذلك تؤدى مهمتها كخادم للأمة ، وأجير عندها وعامل على مصلحتها ، مؤدية لفرائض الإسلام غير مجاهرة بعصيان ، منفذة لتعاليم الإسلام وأحكامه ؛ لتتحقق الدولة الإسلامية المنشودة التى يرى الناس فى مشارق الأرض ومغاربها القرآن فيها حياة مطبقة .

(٥) الدعوة إلى الوحدة الإسلامية مبتدئين بالتعاون مع البلاد الإسلامية الراشدة والتنسيق معها لدعوة شعوبها وحكومتها لوضع الإسلام موضع التطبيق والنظر إلى الإسلام باعتباره دعوة عالمية وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ـ حتى يتحقق لنا إعادة الخلافة المفقودة ، والوحدة المنشودة وتتحقق أستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام فى ربوعه ﴿حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ . وبذلك تصاغ المجتمعات البشرية صياغة أساسها تقوى الله ؛ ليتحقق التعاون والترابط الإنسانى القائم على الدعائم الثابتة المتماسكة من اللبنات

الصالحة من أفراد المجتمع مبتدئين بالفرد ثم الأسرة فالحكومة المسلمة فالأمة الوسط التى تنتشر دعوتها وتعم حتى تشمل العالم كله فيتحقق قوله تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ ولتقوم مرة أخرى على الأرض ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

● **وسبيلنا لتحقيق هذه الأهداف السامية هى :**

أ ــ دعوة تضبطها الحكمة، وتزينها الموعظة الحسنة،وتقنع بالمجادلة بالتى هى أحسن لا إكراه فيها ولا عنف وترتكز على مبادئ الإسلام السامية المستمدة من كتاب الله المبين وحياة رسوله الأمين ﷺ ، وسنته الشريفة وأخلاقه الكريمة شعارها « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

ب ــ تربية إسلامية أساسها منهاج القرآن الكريم وأسلوب الرسول الحكيم ﷺ غرس للأخلاق الفاضلة،والقيم الثابتة ، والمفاهيم الإسلامية السامية لتكون اللبنات المسلمة، شعارها : اعرف ربك وأصلح نفسك ، وادع غيرك ،وأقيموا دولة الإسلام فى قلوبكم تقم على أرضكم .

ج ــ من هذه اللبنات الصالحة التى تربت على الإسلام تنشأ الأسرة العالمة به والعاملة له وتكون رافدا ومحضنا ومصدرا ومدعمة للجماعة الراشدة الرائدة ، التى تحلت بأخلاق الإسلام وأقامت دعوتها على القرآن الكريم وسنة رسوله الكريم ﷺ وأخذت تدعو الناس بلسان الحال قبل الدعوة بلسان المقال ، للعمل على إقامة دولة الإسلام التى شعارها ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

● **وهكذا نقدم للناس دعوتنا ، هادئة متواضعة كما يقول الإمام حسن البنا :**

هادئة ولكنها أقوى من الزوابع العاصفة ،متواضعة ولكنها أعز من الشم الرواسى ، محدودة ولكنها أوسع من حدود هذه الأقطار الأرضية جميعا . . خالية من المظاهر الزائفة، والبهرج الكاذب ، ولكنها محفوفة بجلال الحق وروعة الوحى ، ورعاية الله ،مجردة من المطامع والأهواء والغايات الشخصية والمنافع الفردية ، ولكنها تورث المؤمنين بها والصادقين فى العمل لها السيادة فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

ثم يضع رضوان الله عليه أيدى المدعوين على حقائق واضحة كالشمس ليوقظ النائم وينبه الغافل فيقول :

« إن الله بعث لكم إماما ،ووضع لكم نظاما ،وفصل أحكاما، وأنزل كتابا وأحل حلالا، وحرم حراما، وأرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم ، وهداكم سواء السبيل فهل اتبعتم إمامه ، واحترمتم نظامه ، وأنفذتم أحكامه ، وقدستم كتابه ، وأحللتم حلاله

وحرمتم حرامه ؟ كونوا صرحاء فى الجواب، وسترون الحقيقة واضحة أمامكم ، كل النظم التى تسيرون عليها فى شئونكم الحيوية نظم تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام ، ولا تستمد منه ، ولا تعتمد عليه نظام الحكم الداخلى ، نظام العلاقات الدولية ، نظام القضاء ، نظام الدفاع والجندية ، ونظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد ، الثقافة والتعليم ، نظام الأسرة والبيت ، بل نظام الفرد فى سلوكه الخاص ، والروح العام الذى يهيمن على الحاكمين والمحكومين ، ويشكل مظاهر الحياة على اختلافها ، كل ذلك بعيد عن الإسلام وتعاليم الإسلام ، إننا نناديكم والقرآن فى يميننا والسنة فى شمالنا ، وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا ، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام ،وأحكام الإسلام ، وهدى الإسلام ، فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا ، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم فلن تصرفنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات .

وهكذا نحب أن نصارح الناس بغايتنا ، وأن نجلى أمامهم منهاجنا ، وأن نوجه إليهم دعوتنا فى غير لبس ولا غموض ، أضوأ من الشمس ، وأوضح من فلق الصبح ، وأبين من غرة النهار .

هذه دعوتنا بدينها ودنياها بمشاعرها وشعائرها وشرائعها بنظامها وأخلاقها نحملها بيقين صادق ، وإيمان عميق ، وحب وثيق لا لبس فيها ولا غموض أوضح ما تكون ليراها الناس على حقيقتها فالله هو الغاية ، والرسول هو القدوة والقرآن هو الدستور ، والجهاد هو السبيل والموت فى سبيل الله هو أسمى الأمانى .

بهذا الوضوح نبين لكم وبهذه البينات نعرض عليكم وبهذا الحرص ندعوكم ، وبهذا الحب الذى يجمعنا تتآلف القلوب وتتوحد الصفوف ويومها ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

★ ★ ★

الفصل الثانى

ما يتعلق بالداعى :

- ـ دعوة وداعية.
- ـ صفات الداعى.
- ـ الصدق.
- ـ الإخلاص.
- ـ الرحمة .
- ـ الحلم.
- ـ الصبر.
- ـ الحرص.
- ـ الأمل والثقة فى نصر الله.
- ـ الفقه والوعى.

★ ★ ★

دعوة وداعية

الإسلام كما أوضحنا ـ دين ودولة لا يشك فى ذلك مسلم ،وهو إن كان كذلك فهو أيضا دعوة وداعية ،دعوة هى الإسلام الحنيف بشموله وعمومه،بشعائره وشرائعه ، بعقيدته وعلاقاته الكريمة ، وأسلوب دعوته الحكيمة ،ووسائل إقناعه الفريدة وطريقة تبليغه القويمة. لذلك فإننا نرى قرآن ربى كما قدم الدعوة للناس ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ قدم كذلك الداعية الأول الذى حمل هذه الرسالة للعالمين . ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ .

إذ إننا لا نستطيع أن نفصل بين الدعوة والداعية لأن المسلم الذى يفهم دعوته فهما سليما لكنه يسىء تقديمها للناس لا يقل خطرا عن المسلم الذى لا يفهم إسلامه الفهم الصحيح ولكنه ألحن بالحجة يجيد الحوار ويحسن العرض فالأول يسىء التقديم مع الفهم، والآخر يسىء العرض مع الجهل ومن هنا كان الإسلام دعوة صحيحة مع داع واع خلوق فالدعوة والداعية كوجهى العملة لا غنى عن أحدهما ولا يمكن الفصل بينهما ، ويقول الدكتور السباعى رحمة الله عليه: «مصيبة هذا الدين فى جميع عصوره بفئتين : فئة أساءت فهمه، وفئة أتقنت استغلاله، تلك ضللت المؤمنين به،وهذه أعطت الجاحدين حجة عليه»

لذلك فالداعى إلى الله يعلم أن الدعوة إلى الله عز وجل هى مهمة رسل الله الكرام، فهم سفراؤه إلى خلقه يبلغونهم أمر ربهم على بصيرة ، يرثهم فى هذه المهمة الجليلة العلماء العاملون والدعاة المخلصون ؛ ليحظوا بالدرجات العلى والثواب العظيم والأجر الجزيل، كما بشرهم بذلك رسولهم الكريم صلوات الله وسلامه عليه حين قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئا » (١)

فهل هناك أفضل من هذا العمل ؟ وأجل من هذه الوظيفة ؟ فأى شرف يحظى به الدعاة إلى الله وهم يجنون ثمرة جهودهم ألا وهى « هداية الخلق إلى الحق » ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ [فصلت: ٣٣] .

ذلك لأن الدعوة إلى الله هى الدعوة لدينه ،واتباع هداه ،وتحكيم منهجه فى الأرض،

---

(١) أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذى .

وإفراده تعالى بالوحدانية والعبادة ، والاستعانة به والطاعة له، والبراء من كل الطواغيت التى تطاع من دون الله وإحقاق ما أحق الله وإبطال ما أبطل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيله سبحانه .

فهى إذا ـ كما ترى ـ ليست بالأمر الهين، إنها أمانة عظيمة عرضها ربنا على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا .

فهى تحتاج إلى دعاة مخلصين ورجال عاملين لأن الداعى يقيم أمة ويربى أجيالا وينشئ رجالا لهم صفات أخلاقية حددها القرآن وحققها الرسول فى صحابته رضوان الله عليهم فحق لنا أن نتعرف على ما افتقدناه وأن نحدد ما نبحث عنه فالذى ينقصنا ليست المناهج ولا الوسائل إنما الذى افتقدناه هو شخصيتنا الأخلاقية وهويتنا الإسلامية .

● الشخصية الإسلامية التى افتقدناها :

لابد أن يسأل الداعى نفسه سؤالا . ما الذى افتقده المسلمون فى زماننا هذا حتى نبحث عنه ؟ ونحاول الوصول إليه ، ما الذى ضاع من المسلمين فضيع شخصيتهم وأذاب هويتهم؟

لاشك أن الذى ضاع من المسلمين هو شخصيتهم المسلمة الأخلاقية ، الشخصية التى رباها رسول الله ، وحدد معالمها القرآن الكريم ودعت إليها آياته وحثت للوصول إليها سنته ﷺ إنها شخصية رجل العقيدة التى تسعى للتعرف ـ من القرآن ـ على :

خالقها لتعبده

وعلى الكون فتسخره وتعمره

وعلى حقيقة وجودها لتؤدى رسالتها

وعلى المصير الذى ينتظرها فتعمل له

ولقد استطاع رسول الله ﷺ أن يكوّن بهذه الشخصية أمة تحمل رسالة وتقيم دولة وتنشئ حضارة ، وتصنع تاريخا عظيما ، جعل من ضعفها قوة ، ومن أميتها علما ، ومن فرقتها وحدة ، ومن بداوتها مدنية ومن الحفاة العراة خير أمة أخرجت للناس .

ذلك لأن الإسلام رسالة تربية قبل أن يكون رسالة تشريع ، ورسالة خُلق قبل أن يكون رسالة جهاد ، ورسالة سمو وقيم قبل أن يكون كثرة واتساع ، فجوهر رسالته خلق وإحسان ووسيلتها قدوة وتربية وأول ميادينها النفس والقلب (١) .

إن الدعاة الصادقين الواعين يرفعون شعارا واضحا وضوح الشمس فى رابعة النهار

---

(١) منهج القرآن فى التربية الأستاذ شديد ص ٢٥ بتصرف .

ليس فيه لبس ولا إبهام يتحدد به هدفهم وتتضح به وسائلهم ـ ذلك الشعار هو « دعوة وتربية » يربون أنفسهم ويدعون غيرهم ، وبذلك تتحدد رسالتهم فهم دعوة وليسوا دولة وهذا طريقهم حتى لا يتركون لمتربص منفذا ولا لحاقد وسيلة للنيل منهم أو تشويه مقصدهم. إن ما يصبو إليه كل داعية إلى الله أن يستعيد المسلمون شخصيتهم التى افتقدوها هذه حقيقة ومع بساطتها فإنها تغيب عن كثير من المسلمين ، ولكى تتضح لك فإننا نسأل أنفسنا ، كم عدد المسلمين الذين يتجمعون الآن فى بيوت الله فى كل صلاة ؟ بل كم عددهم فى الجمع والأعياد ؟ وكم عددهم يوم الحج الأكبر ؟ فإذا سألت عن عدد من يتلفظ بلا إله إلا الله محمد رسول الله لبلغ العدد الملايين .

● غثاء اليوم رجال الأمس :

ومع هذه الملايين التى تصلى وتزكى وتصوم وتحج ثم تنفض ، يلح علينا سؤال . هل حدث تغيير وتحول حقيقى فى حياة المسلمين ؟ بل هل أصبح لهم كيان يخشى بأسه ويعمل له حساب ؟ كأنى برسول الله ﷺ يعنينا حين قال ما معناه ـ توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قلنا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ، قال لا ولكنكم كثير ، ولكنكم كغثاء السيل وليتزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قلنا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت .

لقد حدد رسول الله ﷺ معالم الشخصية الغثائية التى تنتمى إلى الإسلام فى هذا الزمان الذى أشار إليه صلوات الله وسلامه عليه إنها شخصية أحبت الدنيا وكرهت الموت ، نعم أحبت الدنيا وتعلقت بها وخدعتها وغرتها وزُين لها ﴿ حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ فكرهت الموت لأنها عمرت دنياها وخربت آخرتها فكرهت أن تنتقل من العمار إلى الخراب الذى ينتظرها ﴿ فلأنفسهم يمهدون ﴾ .

ثم تسأل نفسك سؤالا ليكتمل الأمر وضوحا لديك . كم كان عدد المسلمين فى دار الأرقم بن الأرقم؟وكم كان عددهم يوم أن قال رسول الله ﷺ:والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه؟بل كم عددهم يوم بدر؟ويوم الفتح؟ويوم أن دانت لهم بلاد الأكاسر والقياصر؟

ثم تسأل لِمَ عزّ هؤلاء مع قلتهم ؟ وذل هؤلاء مع كثرتهم ؟ إن السر فى ذلك هو فى هذه الشخصية القرآنية الربانية التى حققها فيهم رسولنا ﷺ ، والتى صنع بها جيلا فريدا ، عاش فى جاهلية ظالمة مظلمة ، تشرب الخمر ، وتلعب الميسر ، وتأكل الربا ، وتئد

البنات، وتعبد الصنم ، وتظلم وتزنى ، إذا سرق الغنى فيهم تركوه ، وإذا سرق الفقير قطعوه ، يسجدون لقيصر وكسرى . فإذا بهم بالإسلام أعزة يقومون الليل إلا قليلا، نصفه أو ينقصون منه قليلا ، أو يزيدون عليه ، ينفقون بأيمانهم مالا تعلمه شمالهم ، فهم فى صلاتهم خاشعون وعن اللغو معرضون ، وللزكاة فاعلون ، ولفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، وهم لأماناتهم وعهدهم راعون ، يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، تائبون ، عابدون ، حامدون ، سائحون ، راكعون ، ساجدون ، آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر حافظون لحدود الله .

إذا قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم زادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ،وإذا رأوا الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ، فهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

هذه هى الشخصية التى افتقدناها والتى عرفت ربها وتحلت بأخلاق نبيها وتربت على قيام الليل فى مكة ، وصقلتها الشدائد والمحن فكان إذا حزبهم أمر فزعوا إلى الصلاة وكانوا يقولون: أرحنا بها يا بلال ، فكفوا أيديهم وأقاموا الصلاة فاستمدوا قوتهم من الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وعوا قول ربهم لنبيهم ﷺ : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ، وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا ، سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾

وكأنى برسول الله ﷺ يقول : فماذا أصنع يا رب مع هذا البلاء الشديد وهذا الكرب العظيم ، ماذا أصنع يا رب إذا أظلمت الليالى واشتد الإيذاء وأنا الضعيف إليك ، أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ؟ ماذا أصنع ؟ فكانت الإجابة من الذى خلق فسوى وقدر فهدى ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾

نعم إنها حسن الصلة بالله أولا وقبل كل شىء ، فكانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ، وتحققت فيهم الشخصية الأخلاقية الربانية ، وبهذه التربية وهذه الوسائل الربانية والتى اتسع نطاقها فكان المسجد فى المدينة المنورة يخرّج رجالا ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة

يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ففى بيوت الله ـ مصنع الرجال ـ يتعلمون السياسة وشئون الحكم والجهاد والبيع والشراء والزواج والطلاق وكل مناحى الحياة لذلك لم يحدث هذا الانفصام النكد بين الدين والدولة ولا بين السياسة والعبادة ولا بين المسجد وشئون الحكم ولا بين السلوك والأخلاق ولا بين الغاية والوسيلة ، فكانوا رجالا أسوياء فتح الله لهم قلوب العباد قبل البلاد ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل سكينته عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ .

● مقومات دولتنا :

لقد ضحك علينا الغرب العلمانى حين عدد لنا مقومات الدولة وحصرها فى : ـ الأرض المشتركة، والجنس الواحد، واللغة الواحدة ، والمصالح المشتركة هكذا قال لنا وصدقناه وبنينا تصوراتنا ونظمنا على ذلك وتحددت العلاقات والمصالح على هذا التصور الخاطئ .

والحقيقة أن الإسلام أخبرنا بغير ذلك، فلقد أخبرنا ربنا بقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ فأصبح هناك مقوم آخر يضاف إلى هذه المقومات هو الأساس بل بدونه لا قيمة لأى مقومات أخرى غيره ألا وهو .

١ ـ الإيمان بالله .

٢ ـ والأمر بالمعروف .

٣ ـ والنهى عن المنكر .

واسأل نفسك هل وحدت الأرض والجنس وحتى اللغة والمصالح وهذه المقومات كانت موجودة قبل الإسلام فهل وحدت العرب وصنعت منهم أمة ؟ أم أن التناحر والتفاخر والتكاثر والقبلية والعصبية فرقتهم ومزقتهم حتى ذكرهم خالقهم بذلك ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾

نعم إنه الإيمان أولا الذى صنع شخصية صاحب العقيدة الحقة التى تغير المجتمع ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... ﴾ هى العقيدة التى تجمع وليست الأرض ولا الجنس ولا اللغة ولا المصالح المشتركة.

وها نحن نرى أمما ودولا تجمعها هذه المقومات التى ادعوها ومع هذا تفرقت شيعا وأحزابا لاختلاف العقائد، وسل التاريخ الحديث ما الذى فرق ألمانيا إلى شرقية وغربية وفيتنام إلى شمالية وجنوبية وقبرص إلى تركية ويونانية بل واليمن إلى شمالية مسلمة وجنوبية ملحدة .

لا شك أنها اختلاف العقيدة التى فرقتهم بصرف النظر عن فسادها أو صحتها وسل مكاريوس لم كانت حربه فى قبرص التركية المسلمة أليس لكى يوحدها مع قبرص اليونانية المسيحية وسل بيجن الذى جمع الإسرائيلى الروسى مع الأمريكى الصهيونى ، والإنجليزى السامى ، والمغربى اليهودى فى بلد واحد هى إسرائيل الغاصبة والتى تنادى من النيل إلى الفرات حسب اعتقادهم المزعوم ، سلهم علام تجتمعون ؟

فَلِم يتعجب القوم من تجمع المسلمين على عقيدتهم بصرف النظر عن اختلاف أجناسهم وألوانهم وأوطانهم كما اجتمع أبو بكر القرشى مع سلمان الفارسى مع بلال الحبشى مع صهيب الرومى .

لقد جاء زمان على المسلم كان ينتقل فيه من الأندلس إلى الشمال الأفريقى إلى مصر والشام والعراق بل إلى أقصى مكان فى الصين والهند لا يشعر بغربة ولا وحشة فأينما توجه ثم اسم الله ووجد أخوة الإسلام وسمع النداء المحبب إلى قلبه لا إله إلا الله يرهف الآذان وأن محمدا رسول الله تطرب القلوب والأسماع فيعيش آمنا فى سربه معافى فى بدنه يناديه ربه ﴿ وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾

● وكان سبيلهم إلى تحقيق ذلك أمرين :

١ ــ اتباع الرسول فى صغير الأمر وكبيره والتحلى بأخلاقه ﷺ

٢ ــ النصرة ــ نصرة الله ونصرة رسوله ﷺ ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾

﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾

وهكذا لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى وقد أرسى قواعد الدولة والدعوة ، فمن أراد أن يعيد للأمة الإسلامية مجدها وللدولة المسلمة عزها فعليه أن يأخذ بما أخذ به الرسول القدوة صلوات الله وسلامه عليه دعوة وداعية .

● أخلاق الداعى أولا :

ولا يمكن للداعى أن يحقق ما يصبو إليه إلا إذا تحلى بأخلاق الداعى الأول رسول الله ﷺ واتبع المنهج النبوى ولذلك فهو فى حاجة إلى :

١ ــ صفات أخلاقية وسلوكية يتحلى بها

٢ ــ وسائل وقواعد يتبعها ويطبقها .

● أولا : الصفات التى يجب أن يتحلى بها الداعى :

إن الداعى إلى الله يضع نصب عينه حياة رسول الله ﷺ ، وسيرته العطرة ، وأخلاقه

الكريمة لتكون نبراسا يضىء له الطريق ، ومقياسا يقيس به السلوك فيتعرف على معالم طريقه ، ويتغلب على صعابه ، ويحدد الغاية من السير فيه ، ويبحث عن الوسائل السليمة للوصول إليها ، وهو بهذا يعلن رضاءه بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، فيذوق بذلك للإيمان طعما ويجد فى الطريق حلاوة ، وللسير فيه عذوبة فيفعل المأمور ويترك المحظور ، ويصبر على المقدور ، ويدعو عشيرته الأقربين ، وينصح من يعرف من المسلمين ورسوله فى ذلك الأسوة ، ومنهاجه القدوة ، حكيما فى دعوته ، محسنا فى موعظته ، مجادلا بالتى هى أحسن ويقول للجميع خلوا بينى وبين الناس ، سلاحه اللسان العف ، والكلمة الطيبة والخلق الحسن . ولابد له أن يتحلى أول ما يتحلى بصفتين أساسيتين هما عماد دعوته وأساس منهجه ، يراهما المدعو حياة يحياها الداعى ، ويرددهما القاصى والدانى فلا يعرف إلا بهما ولا ينادى إلا بكلتيهما ، فقبل أن يدعوهم إلى ما هو عليه ، ويبين لهم ما يحمله بين جنبيه ويحاول إقناعهم بفكرته ، وإيمانهم برسالته لابد أن ينشئ بهاتين الصفتين قنطرة من خلالها يوصل ما يريد وبدونهما فهو كالمنادى فى واد سحيق فلا صوته يسمع ، ولا نداؤه يعرف . هاتان الصفتان هما :

١ ــ الصدق .

٢ ــ الأمانة .

صفتان تحققتا فى رسول الله ﷺ قبل أن يبعث إلى قومه أو يرسل إلى أمته، وشاء الله أن يمكث فيهم أربعين عاما يخالطهم ويجالسهم ويتعامل معهم يتاجر فيهم ويشترى منهم، ويتزوج وينجب ، ويلجأون إليه فى أعوص المسائل وأشدها تعقيدا، ويلوذون به ويستريحون لرأيه ويثقون فى أمانته حتى أنهم ما وجدوا مكانا يحفظون فيه ودائعهم وأماناتهم إلا بيته ولقد ذكرهم بذلك بعد أن جحدوه فقال لهم بلسان القرآن : ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ فهما صفتان اعترف بهما ألد الأعداء ، وعرفها فيه أشد الخصوم .

« أليس هو الصادق الأمين » كما عرفوه ؟ وكما سموه ؟

وليت الشباب المسلم خاصة الذين يتصدون للدعوة إلى الله يتنبهون لذلك ويحققاهما فى دنيا الواقع قبل أن يدعوا الناس لدين الله ــ فالدعوة بالحال أشد أثرا من الدعوة بالمقال ــ حتى إذا ما دعى الداعى إلى دين الله أو نادى «وا صباحاه» وجد الجميع آذانا مصغية، وقلوبا واعية، وأفئدة محبة. يهرعون إليه لبيك لبيك، فإذا قال لهم: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تغير عليكم خلف هذا الوادى أكنتم مصدقى قالوا: ما عهدنا عليك كذبا قط .

ذلك لأن الداعى إلى الله توفيقه مرتبط ارتباطا وثيقا ، باقتدائه برسول الله ﷺ ، فهو لن يصل إلى قلوب العباد إلا بهذه القدوة الحسنة صادقا فى قوله أمينا فى فعله .

● الأمانة :

إذ أن صفة الأمانة صفة أساسية من صفات الداعى إلى الله ، وأنت إذا تأملتها وجدتها صفة يشترك فيها جميع الأنبياء والرسل ؛ لأنها لازمة للصدق فلا يتصور إنسان صادق غير أمين أو أمين غير صادق والصدق حلية الأنبياء وحلية الصالحين حتى أنك ترى فى القرآن على لسان أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام يسأل ربه الصدق فى الدنيا والآخرة، وبعد أن سأله أن يلحقه بالصالحين قال : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ أما الأمانة فأنت تراها صفة كل نبى ورسول يؤكدها الأنبياء جميعا فى سورة الشعراء .

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين﴾

﴿كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إنى لكم رسول أمين ﴾

﴿كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين﴾

﴿كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين﴾

﴿كذبت أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين﴾

ونطق بها عفريت من جن سليمان ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليهم لقوى أمين ﴾

وقالها يوسف ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ والحفيظ هو الأمين. وها هى ذا بنت شعيب حين تمنت أن يكون موسى عليه السلام زوجا لها قالت : ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ .

● الصدق :

أما الصدق فهو من الصفات الأساسية التى تبين معدن الرجال لذلك رأينا فرعون نفسه حين يريد من موسى الدليل على وحدانية الله يقول له موسى : ﴿ أو لو جئتك بشىء مبين﴾ فيقول فرعون : ﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ وإن كان صدق موسى لا ينفع الجاحدين فالصدق من الدرجات العلى .

قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] وقال النبى ﷺ : « إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (١) .

---

(١) أخرجه الشيخان والترمذى وأبو داود فى الأدب وأحمد من حديث عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربة وروى أحمد نحوه من حديث أبى بكر الصديق .

● والصدق درجات :

أ ــ صدق اللسان: فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق ، وكمال صدق القول الاحتراز عن المعاريض فقد قيل : « فى المعاريض مندوحة عن الكذب» وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة فى بعض الأحيان كالحذر من الظلمة أو فى قتال الأعداء « كما قال رسول الله للرجل الذى سأله من أين أنتم ؟ قال : من ماء ! وكما عرّض يوسف لأخوته . . . » .

وهكذا يستشعر الداعى بينه وبين نفسه وهو يناجى ربه كى يكون الصدق رائده فى كل شىء فهو يستحى من الله أن يقول بلسانه: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام: ٧٩] ولبه منصرف عن الله تعالى مشغول بأمانى الدنيا وشهواتها فهو فى مقولته هذه يعتبر كاذبا، ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهو فى الحقيقة عبد لدرهمه وعبد لدينارة ورسول الله ﷺ يقول: «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم وعبد الخميصة»(١) .

ويقول : ﴿ إياك نعبد ﴾ وهو يستعين بغيره من البشر فكما يكون حاله مع الله فسيكون حاله مع الناس كذلك .

ب ــ صدق النية والإرادة : ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازحه شوب من حظوظ النفس بطل بصدق النية .

جـ ــ صدق العزم : وهو الحزم بقوة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد وصفه قوله تعالى : ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١] .

د ــ صدق الوفاء بالعهد: ولذلك قال ربنا : ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ فقد روى عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله ﷺ « ليرين الله ما أصنع » قال : فشهد أحدا فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال : إلى أين ؟ فقال : « واها لريح الجنة إنى أجد ريحها دون أحد » فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة فقالت أخته : « ما عرفت أخى إلا ببنانه فنزلت هذه الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (٢) .

هـ ــ الصدق فى الأعمال: وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى

---

(١) أخرجها ابن ماجة .

(٢) رُويت هذه القصة عن طريق سعد بن معاذ ورواه البخارى من طريق ثمامه عن أنس أيضا وأخرجه ابن منده من طريق حماد عن ثابت عن أنس .

باطنه لا يتصف هو به ، فمن نصح الناس بلسانه بكلام جميل ولكنه فى الباطن يريد أن يقال له عالم فهو كاذب بلسان الحال فى عمله غير صادق فيه ، فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره .

إذا السر والإعلان فى المؤمن استوى فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا
فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكدّ والعنا

ودرجات الصدق لا نهاية لها ، وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا (١) .

ولذلك فإن الصدق والأمانة متلازمان ومرتبطان بالإخلاص ارتباطا وثيقا .

● الإخلاص :

قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥] وقال تعالى : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر : ٣] وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء : ١٤٦] وقال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

ويقول تعالى : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام : ٥٢] والمراد بتلك الإرادة النية ولذلك قال ربنا عن الشاهدين يريدان الإصلاح : ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء : ٣٥] ولذا فإن كل داعية إلى الله يجب أن يقول بنية خالصة صادقة : ﴿ إن أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله ﴾ .

والداعى كما يخلص لله عمله فإنه لا يظن السوء بالمسلمين وبكل أعمالهم لله سبحانه وتعالى ففى حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك قال : « إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال : « حبسهم العذر » (٢) فشركوا بحسن النية .

واسمع إلى هذا الحديث الكريم لأبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان ومن ادّان دينا وهو لا ينوى قضاءه فهو

---

(١) من كتاب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ٤٤٦ بتصرف .

(٢) رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم. حبسهم المرض » ورواه ابن ماجة بنحوه .

سارق» (١) .

ولهذا قال بعض السلف : إنى لأستحب أن يكون لى فى كل شىء نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى الخلاء .

ولكى يعتصم الداعى من لوثات الرياء ويبرأ إلى الله من عقباها أرشده النبى ﷺ أن يتوجه إلى الله بهذا الدعاء : « اللهم إنى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه » .

● واسمع إلى هذه القصة :

حاصر « مسلمة » حصنا فندب الناس إلى نقب منه فما دخله أحد . فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه الله عليهم فنادى « مسلمة » أين صاحب النقب ؟ فما جاء أحد. فنادى : إنى قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتى ، فعزمت عليه إلا جاء .

فجاء رجل فقال: استأذن لى على الأمير فقال له: أنت صاحب النقب؟قال: أنا أخبركم عنه ،فأتى « مسلمة » فأخبره عنه ، فأذن له فقال : إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثا :

ـ ألا تسودوا اسمه فى صحيفة الخليفة .

ـ ولا تأمروا له بشىء .

ـ ولا تسألوه ممن هو .

ـ قال : فذاك له .

ـ قال : أنا هو .

فكان (مسلمة) لا يصلى بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب .

فإياك إياك أن تستحقر شيئا من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله مطلع عليك وشهيد على قولك وعملك ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ يقول الحسن البصرى : إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمتى ما أردت بأكلتى ،ما أردت بحديثى ، وإن الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه.

ويقول لقمان لابنه : يا بنى إن الإيمان قائد ، والعمل سائق ، والنفس حرون ، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق ، وإن فتر قائدها حرنت ، فإذا اجتمعا استقامت . وكم كان السلف الصالح يقفون بينهم وبين أنفسهم محاسبين على كل حركة من الحركات وكل سكنة

---

(١) رواه الإمام أحمد .

من السكنات حتى يكون العمل خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى ، فعن ميمون بن مهران قال : لا يكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه .

إنها الرقابة التى تبصرنا بأن الإنسان مكشوف أمام الله لا يتملص ولا يتلفت واسمع إلى المولى جل وعلا وهو ينادينا : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ قال ابن عباس: وتخونوا أماناتكم الأمانة الأعمال التى ائتمن الله عليها العباد يعنى الفريضة يقول : لا تخونوها لا تنقضوها ، وقال فى رواية : لا تخونوا الله والرسول يقول : بترك سنته وارتكاب معصيته ، قال السدى : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم ، ولاشك أن تبليغ الدعوة أمانة فوجب على الداعى أن يبلغها كما علمه القرآن حكمة فى الأسلوب وموعظة فى القول ومجادلة بالتى هى أحسن . وهو إن أخلص فى دعوته فقد تخلص من السمعة والرياء وحب الظهور قال على كرم الله وجهه: للمرائى أربع علامات يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان فى الناس ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه ،وينقص منه إذا لم يثن عليه .

واسمع إلى قوله أيضا كرم الله وجهه وهو يقول : لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فإن النبى ﷺ قال لمعاذ بن جبل: أخلص العمل يجزِك ــ أى يكفى ــ منه القليل[1].

وأزيدك هذه القصة : عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم قال رجل منهم: اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق [2] قبلهما أهلا ولا مالا فنأى [3] الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق [4] الفجر والصبية يتضاغون [5] عند قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه . قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىّ وفى رواية كنت أحبها كأشد ما

---

(١) قال الحافظ الواقى : حديث معاذ أخلص ... أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع . من كتاب موعظة المؤمنين من كتاب علوم الدين ص ٤٤٣ .

(٢) لا أقدم عليه أحد فى شرب اللبن بالعش .

(٣) ذهب بعيدا فى طلب الحطب .

(٤) برق الفجر أى ظهر ضوؤه وانتشر .

(٥) يتضاغون أى يصرخون من شدة الجوع .

يحب الرجل النساء فراودتها عن نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها [1] سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها وفى رواية ـ فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه[2] فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءنى بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلى أجرى فقلت: كل ما تراه من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بى فقلت: لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون [3] .

ولذلك كان علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص . وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها ، فليكن الداعى إلى الله شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق حتى تكون دعوته خالصة لله رب العالمين ويقول لنفسه دائما : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ .

● **الرحمة والرفق والحلم :**

على الداعى أن يعرف بوضوح أن رسالته للناس جميعا هى رسالة رحمة كما أخبرنا القرآن وهو يخاطب الرسول ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ رحمة فى العقيدة ورحمة فى التشريع ورحمة فى الأخلاق ، وأنت ترى هذه الرحمة فى كل منحى من مناحى الحياة الإسلامية حتى أن الرحمة أصبحت صيغة المجتمع المسلم مع الإنسان والحيوان والنبات بل والجماد أيضا . ألم تدخل امرأة النار فى هرة عذبتها ودخلت بغى الجنة فى كلب رحمته كما أخبرنا بذلك المصطفى ﷺ .

لقد أراد المولى سبحانه وتعالى أن يذكرنا بهذه الرحمة فى اليوم سبع عشرة مرة إن نحن أدينا فرائض الصلاة نقرأ فاتحة الكتاب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فإذا بك وأنت تقرأ هذه الآيات أمام معان جليلة وفوائد عظيمة منها :

---

(١) ألمت بها سنة أى أصيبت فى أموالها واحتاجت .

(٢) لا يفض الخاتم إلا بحقه أى لا يزيل بكارتها إلا بطريق مشروع .

(٣) متفق عليه رياض الصالحين باب الإخلاص ص ١٤ .

أولا : أن من يسير فى طريق الله ويبدأه باسم الله لابد أن يتخلق بخلق الرحمن الرحيم؛ لأن رسالة الإسلام رحمة للعالمين ،رحمة فى مبناها ومعناها رفعت الأصر والأغلال بعقيدتها ، ونشرت العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى بشريعتها ، وأتمت مكارم الأخلاق بفضائلها ، فإن كان رسول الإسلام رحمة مهداة فإن أصحابه كذلك ، ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ فمن أراد أن يدعو الناس لهذا الطريق ، طريق الرحمة فليكن رحيما بالمدعوين ، فالرحماء يرحمهم الرحمن ، ومن يرحم من فى الأرض يرحمه من فى السماء ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ... ﴾ « ومن لا يرحم لا يرحم » .

ثانيا : والرحمة لا تتحقق إلا بالحرص على من تدعو فلا تكن مبغضا لهم بل مشفقا عليهم ترى ما لا يرون فتأخذ بنواصيهم إلى الخير « أنتم تلقون بأنفسكم فى النار وأنا آخذ بحُجَزِكم » ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ .

ثالثا : أن يشعر الداعى بأن تحقيقه هذه الرحمة التى يبغيها متوقف على أمرين:

أ ــ عبادة خالصة لله .

ب ــ واستعانة به .

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وكلما اقترب الداعى من ربه غمرته رحمات الرحمن .

رابعا : أن يعلم أنه إن فعل ذلك فإنه يكون قد اقتفى أثر الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولذلك فهو دائم السؤال لله أن ينعم عليه بهذه النعمة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ من القاسية قلوبهم المبعدين عن رحمة الله وصدق الله إذ يقول : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ﴾ .

وهكذا فى كل ركعة يتذكر الداعى الصفات التى يجب أن يتحلى بها والتى تخلّق بها الرسول الكريم القدوة الحسنة . صلوات الله وسلامه عليه .

● يريد الله بكم اليسر :

والداعى حين تغشاه الرحمة ويتحلى بهذا الخلق يعمق فى نفسه الإحساس بالتيسير على الناس والرفق بهم ، فربه الكريم لا يريد من الخَلْق إلا اليسر من الأمر ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ فإذا بك فى جو كله ود ، ورأفة ، ورحمة ،وحلم « ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد » (١) .

(١) متفق عليه .

فالمولى سبحانه وتعالى رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف، ومالا يعطى على سواه ، يقول رسولنا ﷺ لعائشة رضوان الله عليها: « عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش ، إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه » (١).

وشعار الإسلام الذى عليه رسول الإسلام ﷺ « بشروا ، ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » (٢) هذا ما قاله رسولنا ﷺ لأبى موسى ومعاذ حين بعثهما إلى اليمن فقال : «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ، وتطاوعا ولا تختلفا» (٣) وليس معنى أن تيسر وتبشر أن تبدل وتغيرمن حقائق الإسلام لتريح مستمعك ، ولكن أن تعلم أن هذا الدين متين فتوغل فيه برفق فتراعى حسن المدخل للمدعو وروح الإسلام عند التطبيق .

ومن الرحمة أن تختار أيسر الأمرين ولا تشدد على الناس، فلقد كان عليه الصلاة والسلام لا يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الخلق عنه مصداقا لما جاء فى الصحيح . أما الذين يطلبون المشقة والتشدد ــ وليس التشدد دليل على التدين ــ فإن هذا خروج على السنة. فقد نهى ﷺ عن صوم الوصال وقيام الليل كله والرهبنة وقال: «أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى» قال أيضا: «إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»، ولأن المشقة إذا خرجت عن مألوف الناس ولم يحتملوها إن هم داوموا عليها أدى ذلك إلى الانقطاع عن العمل كان هذا تكليفا بما ليس فى الوسع الشرعى لأن المقصود رفع الضرر والحرج وقد قال تعالى: ﴿ يريد الله بكم اليسر﴾ وقال: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ وقال: ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم﴾ وقال: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾

والعسر الذى يرغبه بل وينشده بعض الداعين إنما يرجع إلى عوامل نفسية ، فما أحوج الداعى إلى نفس نقية راضية مرضية تفيض برحماتها على خلق الله ، فإن رأيت بذور العسر فى طريقك تتصاعد من أعماقك ، عالقة بأفكارك ، محيطة بعقلك فأسرع إلى ربك وجدد إيمانك ، وطهر هذا القلب من أضغانه ، وهذه النفس من أمراضها فإن ذلك من تلبيس إبليس ، واعلم أنك فى حاجة إلى روح وثابة تستقى من الرحيق السماوى فإذا بك تتحرى المسلك الأيسر ولن يتحقق ذلك إلا إذا رفقت بنفسك التى بين جنبيك فلا تكلفها شططا ولاتحملها مالا تطيق ، ولا تزج بها فى دياجير العسر ، حينئذ ترفق بغيرك فتجبر كسره ، وتراعى جوانب ضعفه فى كل المواقف ، فمن الرفق بالغير أن تهديه إذا التبست عليه السبل، وأن تغضى عن هفواته وتصفح عن صغائره وتأخذ بيده وتنير له الطريق وألا تتبع عوراته وأن تهتم به فيستشعر رحمتك به فيستجيب لك .

---

(١) رواه مسلم . (٢) متفق عليه . (٣) متفق عليه .

والذى لا يستشعر رحمة الرحمن وهو يدعو لدين الله فهو كهذا الأعرابى الذى دعاه الرسول ﷺ فى مرضه فوجده يتلوى من شدة الحمى فقال له مواسيا مشجعا ومذكرا برحمة الله : « طهورا » فقال الأعرابى : بل هى حمى تفور على شيخ كبير لتورده القبور فقال له ﷺ : « فهى إذن » ـ أى هى إذن كما أحسست فأنت ومشاعرك .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال للأشجع رضي الله عنه رئيس قبيلة عبد قيس : « إن فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم ، والأناة » فحلم الحليم حصانة له ضد الافتتان يعصمه من الغضب والانتصار للنفس [1] . وحلم الحليم لون من ألوان الرحمة بالناس ؛ ذلك لأن الشر لا يداوى بالشر ، ومع ذلك فكم نحاول فى حياتنا الدنيا أن نداوى الشر بمثله ، فنقابل الغاضب بمزيد من الغضب ، والمبغض بمزيد من البغض فكأنما نحن نلقى على النار مزيدا من النار مع أن النار لا تطفأ بالنار وإنما بالماء . كذلك الشر لا يعالج إلا بالحكمة ، بالحب والخير ، إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ إن هذا الأسلوب القرآنى والقانون الربانى ، ليس ظاهريا ولكنه يجتثُ العداوات من الأصل ، ذلك أن العداوة القليلة تزيد مع العداوة القليلة حتى تشغل أوقاتنا ، وتسمم حياتنا ، وتصرف طاقاتنا عما يجب من عبادة خالصة صافية ، وعمل منتج وتنزع من رؤوسنا وقلوبنا راحة البال ، أما مقابلة العداوة بالمودة والحكمة فإنه ينهيها تماما كما تطفئ النار بالماء [2] .

هذا قانون الله فهل يمارى فيه مؤمن ؟ إن نظريات الفلاسفة وعلماء الاجتماع تدرس وتخدم وتصير أشبه بالحقائق خاصة فى الدراسات التى سموها إنسانية من علم النفس إلى علم الاجتماع وحتى أصبح عندنا معاهد للخدمة الاجتماعية يدرس فيها كل غث وسمين [3] إلا آداب الإسلام وقواعده وأصوله فى العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، فليت الدعاة إلى الله يرجعون ويثوبون إلى قوانين الله التى لا تحتمل الشك بل تحتمل فى طياتها اليقين لأن منزل القرآن هو خالق الإنسان ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ .

● ومن الرحمة القول الحسن :

الله الله على القرآن حين يقول لنا : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ نعم للناس كل الناس أبيضهم وأسودهم ، غنيهم وفقيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، بدويهم ومدنيهم ، مسلمهم وكافرهم ، كل الناس والقول الحسن من قواعد الإسلام وتكاليفه بعد قاعدة التوحيد

---

(١) العوائق محمد أحمد الراشد ص ٢٣ .

(٢) من مجلة الدعوة السعودية العدد ٩٦٠ عام ١٤٠٥ هـ .

(٣) الغث اللحم المهزول والسمين ضد المهزول . راجع مختار الصحاح .

والإحسان إلى الوالدين [1].

قال حماد بن مسلمة : إن صلة بن أشيم مر عليه رجل قد أسبل إزاره [إشارة إلى التكبر] فهمَّ أصحابه أن يأخذوه بشدة ، فقال : دعونى أنا أكفيكم ، فقال أشيم للرجل : يابن أخى إن لى إليك حاجة. قال: وما حاجتك يا عم ؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك. فقال: نعم وكرامة ، فرفع إزاره . فقال لأصحابه : لو قرعتموه لقال : « لا ولا كرامة وشتمكم » [2] وأزيدك ثانية لتزداد إيمانا مع إيمانك بأثر الرفق والرحمة فى النفوس ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، فلا بد للداعى أن يدخل للناس من باب الحسن لا من باب البغض . قال محمد بن زكريا الغلابى : شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله ، وإذا فى طريقه غلام من قريش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت ، فاجتمع الناس يضربونه، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه ، فقال للناس : تنحوا عن ابن أخى ، ثم قال: إلىَّ ابن أخى ، فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إليه ثم قال له : امض معى ، فمضى معه حتى صار إلى منزله ، فأدخله الدار ، فقال لبعض غلمانه : قد أمر أن تأتيه فأدخله عليه فقال له ابن عائشة : أما استحيت لنفسك ؟ أما استحيت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فاتق الله وانزع عما أنت فيه ، فبكى الغلام منكسًا رأسه ثم رفع رأسه وقال : عاهدت الله عهدًا يسألنى عنه يوم القيامة أنى لا أعود للشرب ولا لشىء مما كنت فيه وأنا تائب. فقال ابن عائشة : ادن منى ، فقبل رأسه وقال: أحسنت يا بنى ، فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث وكان ذلك ببركة الرفق [3].

وانظر إلى هذا الذى أراد أن يغيظ أبا ذر حين جاءه غلام رقيق له وقد كسر رجل شاة لأبى ذر فقال له : من كسر رجل هذه ؟ قال الغلام : أنا فعلته عمدًا لأغيظك فتضربنى فتأثم، فقال أبو ذر : لأغيظن من حرضك على غيظى فأعتقه فى سبيل الله [4].

● **رفقا بالناس يا دعاة !!!**

إن الداعى يسىء إلى نفسه إذا شق على الناس ، فإنه كأنه ينظر إليهم النظرة الدونية أو نظرة المستعلى المترفع كأنه يقول لهم: أنا العالم وأنتم الجهلة، وأنا التقى الورع وأنتم الفسقة ، وأنا الهادى من الضلالة، ألا فليتذكر قول الله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ . فيتذكر كيف كان حاله قبل هدايته فلا يرمى أهل المعاصى بالحجارة « من كان منكم بلا

---

(١) انظر الظلال فى معنى الآية ٨٣ سورة البقرة.

(٢ ، ٣) من كتاب السلوك الاجتماعى للشيخ حسن أيوب ص ٤٧٨ .

(٤) من كتاب منهاج القاصدين للقدس ص ١٩٠ .

خطيئة فليرمها بحجر » ؛ لأنك إن رميتهم بما يكرهون فكأنك تقول لهم : أنتم الفسقة فى أعمالكم ، الكفرة فى اعتقادكم ، أهل البدع فى عاداتكم وتقاليدكم وشتى سلوككم فإذا فعل الداعى ذلك فإنه يفرق ولا يجمع ، ينفر ولا يبش ، يعسر ولا ييسر ، يبغض ولا يحبب ، يطرد ولا يجذب ، يعين الشيطان على المدعو ولا يعين المدعو على الشيطان .

واسمع إلى هذا الموقف الواعى من سيدنا عمر بن الخطاب رضوان الله عنه فقد دخل عليه وال من ولاة المسلمين فوجده يلعب مع أطفاله فاستنكر الوالى على عمر رضي الله عنه ذلك ، فقال له أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : وماذا تفعل أنت مع أهلك ؟ فقال : إذا دخلت سكت الناطق، فقال له عمر رضي الله عنه : اعتزل عملنا فإنك إن لا ترفق بأهلك وولدك فسوف لا ترفق بأمة محمد ﷺ (١) .

● يسبق حلمه جهله :

إن صفة الحلم هذه كانت علامة من علامات نبوة المصطفى ﷺ كما يحكى لنا عبد الله بن سلام قصة زيد بن سعنة فيقول : إن الله عز وجل لما أراد هَدْىَ زيد بن سعنة قال زيد : ما من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفتها فى وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلما ــ فكنت أنطلق إليه لأخالطه فأعرف حلمه من جهله ، فخرج يوما من الحجرات ــ يريد النبى ﷺ ومعه على بن أبى طالب رضي الله عنه . . . فجاء رجل يسير على راحلته كالبدوى فقال: يا رسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا ودخلوا فى الإسلام ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رَغَدا ، وقد أصابتهم سَنَة وشدة وقحط من العيش . . . وإنى مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعا كما دخلوا فيه طمعا . . . فإن رأيت أن ترسل إليهم بشىء تعينهم به فعلت . . . فقال زيد بن سعنة فقلت : أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا فباعنى ، وأطلقت همياني وأعطيته ثمانين دينارا فدفعها إلى الرجل وقال : أعجل عليهم وأغثهم ، فلما كان قبل المحل بيوم أو يومين أو ثلاثة فخرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالبقيع ومعه أبو بكر وعمر فى نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار جبذت برديه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه ، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ فقلت: ألا تقضينى يا محمد؟ . . . فوالله ما علمتكم يا بنى عبد المطلب إلا مُطْل ، وقد كان لى بمخالطتكم علم. قال زيد : فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب رضي الله عنه كالفلك المستدير ، ثم رمى ببصره ثم قال : أى عدو الله أتقول هذا لرسول الله ﷺ ؟ وتصنع به ما أرى ؟ وتقول ما أسمع؟! فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك !! ورسول الله ﷺ ينظر

---

(١) من أبحاث الندوة العالمية للشباب الإسلامى ــ من قضايا الفكر المعاصر ص ٢٢٠ الدكتور أحمد العسال .

إلى عمر فى تؤدة وسكون ثم تبسم ثم قال : لأنا وهو أحوج إلى غير هذا منك أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن الاقتضاء ... اذهب به يا عمر فاقض حقه ، وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما روعته ، فقلت : أتعرفنى يا عمر ؟ قال: لا ... فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة ... قال: الحبر ؟ قلت: الحبر ... قال : فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت ؟ وتقول له ما قلت ؟ قلت : يا عمر ... إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ... فقد اختبرته منه... فأشهدك يا عمر أننى قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا، وأشهدك أن شطر مالى ــ فإنى أكثرها مالا ــ صدقة على أمة محمد ﷺ ... فقال عمر : أو على بعضهم ... فإنك لا تسعهم كلهم ؟ قلت: أو على بعضهم ... قال : فرجع عمر ، وزيد بن سعنة إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . فآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة (١) .

● الرسول كما وصفه القرآن :

إن المولى سبحانه وتعالى حين قدم رسوله ﷺ « الداعية الأول » للناس قال : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ .

● فقدمه للناس بما يستوجب حبه فيما وصفه به :

١ ــ بالإشفاق .

٢ ــ الحرص .

٣ ــ الرحمة .

ثلاث خصائص تميزت بها علاقة أمة محمد ﷺ بمن يتولى أمرها :

١ ــ النجاة من المهالك .

٢ ــ الشعور بالأمن فى حماهم .

٣ ــ الحب لهم فى الغيبة والحضور .

ولذلك كان مما وصف به رسول الله ﷺ أنه كان فى المعارك أسبق الجند إلى العدو وكانوا يتقون به عند اشتداد الهول ، ومع ذلك كان أعذرهم للناس ، ففى واقعة الأحزاب عندما كلف أحد أصحابه بالنهوض لاكتشاف أحوال الأعداء قال : مَنْ يقوم وأضمن له العودة . فلم يقم أحد من شدة الهول ومن شدة البرد ، وكان بينهم أبو بكر وعمر ، وكرر

(١) رواه أبو الشيخ فى كتاب أخلاق النبى ﷺ ص ٨٣ ــ ٨٥ .

ذلك مرات ثم اضطر بعد ذلك صلوات الله وسلامه عليه أن يَعيِّن بالاسم من ينهض ، فنادى حذيفة بن اليمان ، فحقق بذلك عذرهم عندما لم يعين أحدا بذاته ، كما حقق أيضا الحرص على ودّهم بستره عليهم وعدم إشهار عجزهم ، وحقق أخيرا نجاتهم به بالأخذ بأيديهم وتقوية ضعيفهم حين قال: من يقوم وأضمن له العودة .

وقام حذيفة بن اليمان وهو لا يكاد يتماسك من البرد ، بل ومن الاضطراب أيضا حين عجز أولا عن النهوض ، ولكن ما إن همّ بالقيام حتى مسح الله على قلبه وتجدد عزمه ومضى إلى غايته راشدا ، فيسر الله له من أمره بعد ذلك ما أقر به عين رسول الله ﷺ حين عاد ومعه نبأ عزم الكفار على الرحيل بعد أن تكفأت قدورهم بريح عاتية أرسلها الله عليهم وكفى الله المؤمنين قتالهم (١) .

● الصبر

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التى عنى بها الكتاب العزيز ، وهو أكثر خلق تكرر فى القرآن ؛ لأنه لا إيمان لمن لا صبر له وإن وجد فإيمان ضعيف وصاحبه ممن يعبد الله على حرف إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ولذلك جعله رسول الله ﷺ نصف الإيمان إذ الإيمان نصفه شكر ونصفه صبر ، وهو أحد أطباق السعادة كما يقول ابن القيم : أطباق السعادة ثلاثة :

١ ــ إذا أنعم عليه شكر .

٢ ــ وإذا ابتلى صبر .

٣ ــ وإذا أذنب استغفر .

ولأن النفس الإنسانية لها قوتان : قوة إقدام ، وقوة إحجام لذلك كانت حقيقة الصبر أن تجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعك ، وقوة الإحجام إمساكا عما يضرك ، فيتحلى المسلم بصبر على الطاعة وصبر عن المعصية فتبرز الأخلاق العالية التى تطبع المجتمع وتصبغه بصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة . فالصبر على شهوة البطن يطبع صاحبها بخلق شبع النفس وشرها فيخلو المجتمع من الشره والدناءة ووضاعة النفس ، والصبر على شهوة الفرج المحرمة تطبع صاحبها بالعفة فيخلو المجتمع من الفجور والزنا والعهر ، والصبر على الإنفاق فى موضعه يطبع صاحبه بالكرم والجود فيخلو المجتمع من البخل والطمع ، والصبر على فضول العيش يطبع صاحبه بالزهد فيخلو المجتمع من الحرص على جمع المال بأى ثمن .

---

(١) من بحث مقدم للندوة العالمية للشباب الإسلامى «الحرية مدخل إلى الدعوة الإسلامية» الأستاذ صلاح شادى.

والصبر على إمساك اللسان عن الكلام فيتخلص صاحبه بكتمان السر وعدم اللغو فيخلو المجتمع من فحش القول والغيبة والنميمة والكذب والقذف ، والصبر على داعى الغضب فيتخلق صاحبه بالحلم فيختفى التسرع والتهور ، والصبر على عدم الانتقام فيتخلق بالعفو فيختفى حب الانتقام ويسود التسامح ، والصبر على ملاقاة العدو فيتخلق صاحبه بالشجاعة والإقدام فيختفى من المجتمع الفرار والجبن والخور ولك أن تتصور داع إلى الله يتحلى بجماع هذه الأخلاق كيف يكون أثره بين الناس .

● ولا يتحقق الصبر إلا بأمور ثلاثة :

١ ـ حبس النفس عن الجزع .

٢ ـ وإمساك اللسان عن التشكى .

٣ ـ كف الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب .

وبذا يسمو المسلم بنفسه ويطهر قلبه ويحلق فى سماء ربه مع ملائكة الله الكرام يقول قتادة رضوان الله عليه : خلق الله سبحانه وتعالى الملائكة عقولا بلا شهوة وخلق البهائم شهوة بلا عقول ، وخلق الإنسان وجعل له عقلا وشهوة ، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو مع البهائم .

● فهم خاطئ :

بعض الناس يظن أن الصبر سلوك سلبى ، ويخلط بينه وبين الاستسلام والخنوع ، والمذلة ،وما كان الصبر كذلك بل هو جماع الأخلاق الحميدة ـ كما رأيت ـ فهو سلوك إيجابى ، فهل حين يصبر رسول الله ﷺ على الإيذاء والاستهزاء والسخرية والافتراء من أهله وقومه وأقرب الناس إليه نسبا وقال : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

هل يوم أن قال مقولته هذه كان سلبيا وهو ثابت على الحق يتحلى بأخلاق كريمة ودعوة حكيمة ومجادلة بالتى هى أحسن ؟

أم حين قال وهو عائد من الطائف وقد أوذى فى سبيل الله : « إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين » إلى أن قال : « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى »، أكان هذا السلوك سلبيا ؟ إنها قمة الإيجابية ثباتا ويقينا وهكذا سلوك أئمة الهدى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ فبالصبر واليقين أصبحوا أئمة الهدى كما ترى .

ولهذا نهى الإسلام عن ضد الصبر فقال :ولا تبطلوا أعمالكم وإبطالها ترك الصبر

على إتمامها ، كما قال: ﴿واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ والاستعجال من عدم الصبر ، وقال : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ﴾ والوهن من عدم الصبر لأنه حب الدنيا وكراهية الموت .

ويوم أن بقر المشركون بطن حمزة يوم أحد . قال النبى ﷺ : لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين منهم ، فنزل قول ربنا: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٨] .

فبين رب العزة للمؤمنين أنهم إن عاقبوا من ظلمهم واعتدى عليهم فبالمثل ولاتزيدوا، ولئن عفوتم وتركتم القصاص فهو خير لكم وأفضل ، وهذا ندب إلى الصبر وترك عقوبة من أساء ، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ، ثم أمر الله نبيه ﷺ بالصبر على ما يناله من الأذى فى سبيل الله ، ولن تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوفيقه لك . وهكذا يكون خلق الداعى لا يضيق صدره بما يقول الأعداء من السفه والجهل ولا بما يدبرون من المكر والكيد ؛ لأن الله مع المتقين بمعونته ونصره ، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية ،ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين (١) .

فهل يظن ظان أن مكارم الأخلاق هذه من الأمور السلبية ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ .

● صبر وصبر

ولم يكتف الإسلام بأمر المسلمين بالصبر ، فقد يتساوى معهم فى صبرهم المشركون والكفار فيستمسكون بباطلهم ، ألم ترهم وهم يقولون عن النبى ﷺ : ﴿ أهذا الذى بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ... ﴾ ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ... ﴾ .

فإن كان هذا شأن أهل الباطل مع آلهتهم المزعومة ؟ فكيف بأهل التوحيد ، فهم فى حاجة ولاشك إلى درجة أعلى من الصبر لينتصروا لأن بين النصر والهزيمة صبر ساعة ، ولذلك قال ربنا لعباده المؤمنين: ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

فالصبر مع نفسك ، والمصابرة بينك وبين عدوك ، والمرابطة هى المداومة والثبات وهى مرابطة الخيل فى الجهاد أى مداومة الصبر والمرابطة معه ، المسلم إذن مطالب بأن يكون

---

(١) صفوة التفاسير ج ٢ ص ١٤٩ سورة النحل بتصرف .

صبره لله ﴿ ولربك فاصبر ﴾ ﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ فإذا تحقق ذلك حصلت على ثناء الله لك وكنت ممن أثنى الله عليهم ﴿ الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ... ﴾ فهو سبحانه لم يمدحهم لمجرد صبرهم بل لابتغاء وجه ربهم .

وقد أقسم المولى سبحانه وتعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فحكم المولى سبحانه وتعالى على جميع الناس بالخسار إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة :

١ ـ الإيمان بالله .

٢ ـ والعمل الصالح .

٣ ـ التواصى بالحق .

٤ ـ التواصى بالصبر .

« لأن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح وكمل غيره بالنصح والإرشاد فيكون قد جمع بين حق الله ،وحق العباد » .

« والتواصى بالصبر ضرورة لأن القيام على الإيمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ، ولابد من الصبر على جهاد النفس ،وجهاد الغير ،والصبر على الأذى والمشقة ، والصبر على تبجح الباطل ، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم وبعد النهاية »(١) .

فالداعى إلى الله فى أمس الحاجة إلى الخلق الكريم إذ أن نظام الكون اقتضى أن يكون لأصحاب الدعوات أعداء يمكرون بهم ويكيدون لهم ويتربصون بهم الدوائر ،ولذلك كان لآدم إبليس ، ولإبراهيم نمروذ ، ولموسى فرعون ، ولمحمد ﷺ أبو جهل .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ... ﴾ فما أحوج الداعى إلى الصبر على هذا البلاء ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾

ولذلك لم يأمر ربنا رسول الله ﷺ بالاقتداء بأسلافه من الرسل فى خلق معين إلا فى خلق الصبر تنبيها لعظمة منزلته والحاجة إليه فقال: ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ كما نهى الرسول ﷺ أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولى العزم وامتلأ غيظا وغصبا وحزنا من قومه ولم يصبر عليهم فقال: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب

---

(١) الظلال سورة العصر ج ٦ ص ٣٩٦٨ .

الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ .

وقول ربنا : ﴿ فصبروا على ما كذبوا ﴾ تدل على أن رسل الله لم يرفعوا يدا دفاعا عن النفس أو انتقاما لذواتهم ، بل تحلوا بخلق الصبر ، واعتصموا بسكينة النفس ، وكفوا أيديهم واقتربوا من ربهم ، فأشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل ومع شدة هذا البلاء فإنهم قالوا : ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ فسلاح المؤمنين على لأواء الطريق وبلائه القربى إلى الله ، والصبر على الشدائد وصدق الله إذ يقول: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ إنه لخلق الذى لا يستطيع أن يستغنى عنه مؤمن فضلا عن أن يكون داعية إلى الله .

فإذا كان الصبر ضروريا لأى إنسان لاسيما المسلم فإنه بالنسبة للداعى أشد ضرورة له من غيره ؛ لأنه يعمل فى ميدانين ميدان نفسه ، يجاهدها ويحملها على الطاعة ويمنعها من المعصية وميدان خارج نفسه ، وهو ميدان الدعوة إلى الله ، ومخاطبة الناس فى موضوعها ومخالطتهم لأن المسلم الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم .

ولذلك فالداعى يحتاج إلى قدر كبير من الصبر فى المجالين مجال النفس ، ومجال الدعوة حتى يستطيع أن يتجاوز العقبات ويتحمل الأذى ، فإن فقد الصبر قعد أو انسحب من الميدان وحق عليه الحساب وفاته الثواب (١) .

● الحرص :

لابد أن يشعر المدعو بحرص الداعى عليه ، فهذا الشعور يفتح قلبه ويستثير عواطفه فإذا به أذن مصغية لما يسمع ، ولذلك وجدنا القرآن يذكر أهل مكة بهذه الصفة التى برزت فى تعامل رسول الله ﷺ معهم ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ وهو عليه الصلاة والسلام الذى كان يقول لهم : « أنتم تلقون بأنفسكم فى النار وأنا آخذ بحُجُزِكم » .

والداعى إلى الله قد يشتد حرصه على من يدعو . ولكنه لا يتلهف على نتائج عمله، وثمرة جهده ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ وقد يحزن لانصراف الناس عنه وبعدهم عن دعوته ولقد غمر رسول الله ﷺ هذا الشعور ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ لكن المولى سبحانه وتعالى وهو يصنعه على عينه لكى يخفف عنه هذه المشاعر ذكره بأن مقلب القلوب والأبصار هو مقلب الليل والنهار ﴿ ليس عليك هداهم

---

(١) أصول الدعوة د . عبد الكريم زيدان ص ٤٧ بتصرف .

ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ لتهدأ نفسه ويعلم أنه لا يملك إلا دعوتهم أما حركة القلب استجابة أو رفضا فهى من الله العلى الأعلى .

والحقيقة أن الداعية الصادق المخلص لله رب العالمين يصاب بالألم والحسرة حين يرى الصد والاستهزاء والسخرية لدعوته وهو يؤمن إيمانا لا يشوبه شك ويقينا لا يخالطه ريب بأن دعوته دعوة الحق ، وأن طريقه هو الصراط المستقيم ، فعليه أن يتذكر قول الله تعالى وهو يدعو: ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ﴾ . . . ومع هذا الذى يتعرض له لابد أن يشعر من يدعوهم بالحرص عليهم .

ولقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف وهذه المشاعر التى انتابت أنبياء الله ورسله وهم تتقطع قلوبهم حسرة وألما ، لما يرونه من موقف أعدائهم والمعرضين عن دعوتهم ، وإن دل ذلك فإنما يدل على الرحمة التى أشرنا إليها والحرص على هدى أقوامهم فيقول كل منهم لقومه: ﴿ إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ الله الله ونبى الله يقول للمكذبين من قومه: ﴿ إنى أخاف عليكم﴾ فأى حرص هذا، إنه حرص وصل برسول الله ﷺ ـ كما قلت إلى حالة أشفق القرآن عليه فيها ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦] بل وصل الأمر إلى أن المولى يخاطب رسوله ليخفف عنه ما هو فيه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١] .

حقيقة أن الداعية ليتألم وهو بشر مثلهم يرجو الثمرة حين يبذل الجهد ، فيحزن من إعراض الناس عن دعوته ، لكنه لابد أن يعلم حقيقة كثيرا ما تغيب عن الدعاة ألا وهى أن الداعى عليه أن يضع البذرة ولا ينتظر الثمرة فهو يحرص على بذرته ويرعاها ويبذل الجهد للمحافظة عليها أما الثمرة فهى من عند الله سبحانه إن شاء جعل لها أرضا نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وإن شاء جعلها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . وصدق الله إذ يقول: ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ... ﴾ واقرأ إن شئت قول ربنا لرسولنا الكريم: ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ فليس فى الدعوة شقاء إنما فيها شفاء .

● بعض مواقف من الحرص :

وتدبر هذا الموقف الذى حدث لرسول الله ﷺ يوم أن كسرت رباعيته وشج رأسه يوم أحد ، فجعل الدم يسيل من وجهه ، وهو يمسح الدم ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا

وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم» فأنزل الله عليه ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ .

وفى قصة لوط عليه السلام ترى هذا الحرص يتجلى فى جدال سيدنا إبراهيم لرسل الله الذين أتوا إلى قوم لوط عليه السلام وذلك فى قول ربنا عز وجل: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤، ٧٥] قال الإمام القرطبى فى تفسيره : فلما ذهب عن إبراهيم الفزع ، وجاءته البشرى بإسحاق (يجادلنا) أى يحاج الرسل ، وكان جداله عليه السلام على ضيفه أن قال لهم: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المؤمنين أمعذبوهم ؟ قالوا : لا . حتى صار ذلك إلى عشرة ، قال : أرأيتم إن كان فيهم عشرة أمعذبوهم أنتم قالوا : لا فأى حرص من هذا النبى الكريم على قومه حتى لا ينالهم عذاب .

أين هذا مما نراه من بعض الشباب الذى ربما يكون حرصه على أهله وعشيرته قبل هدايته يفوق حرصه بعد الهداية وتعجب فتراه رحيما فى جاهليته غليظا فى إسلامه كنت تسمع منه الكلمة الطيبة، وترى بشاشة وجهه، وصلة رحمه، فإذا به بعد أن أطلق لحيته جلس واعظا يرجمهم الحجارة قائلا لهم: ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى... ﴾ .

ولو أظهر هؤلاء الشباب حرصهم على أقرب الناس إليهم لتغيرت العلاقة بينه وبينهم وعش مع أحد تلاميذ رسول الله ﷺ ـ أبى هريرة رضوان الله عليه ـ يقول : كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة ، فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى فقلت : يا رسول الله إنى كنت أدعو أمى للإسلام فتأبى على وإنى دعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة فقال : اللهم اهد أم أبى هريرة ، فخرجت مستبشرا بدعوة رسول الله ﷺ ، فلما جئت قصدت إلى الباب فإذا هو مجاف (مردود) فسمعت أمى حس قدمى فقالت : مكانك يا أبا هريرة وسمعت حصحصة (أى صوت تحريك ماء) قال : ولبست درعها وأعجلت خمارها ففتحت الباب وقالت : يا أبا هريرة : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قال : فرجعت إلى رسول الله فأخبرته فحمد الله وقال خيرا (١) .

فأى حرص هذا ألا فاعتبروا يا أولى الألباب لعلكم تفلحون .

● الأمل والثقة فى نصر الله :

الداعى إلى الله إيمانه عميق، وثقته كبيرة فى انتصار هذا الدين ، فهو يؤمن بأن

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد فى الإصابة ج ٤ ص ٢٤١ حياة الصحابة ج١ ص ١٧٦ .

الإسلام لابد وأن تنتصر شعوبه، وتتحرر دوله، وتعلو رايته، ويسود مشارق الأرض ومغاربها، مهما مكر أعداء الدين، ومهما كادوا ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾.

وهذا الاعتقاد الجازم بنصر الله ليس كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ولا من باب التمنى الكاذب ، إنما هو من علم اليقين الذى تعلمناه من رسولنا الكريم ، وهو يقول فى ساعة العسرة وشدة الكرب ، وقلة العدد ، واستمرار الإيذاء والاستهزاء: «والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » وقد تحقق ما كتبه الله للمؤمنين من نصر ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ .

والمتأمل للقصص القرآنى يجد مصداق ذلك مع رسل الله وأنبيائه جميعا ، وكيف أن الله دحر أعداءه ، ونجىّ أولياءه وأصفياءه ، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] .

فهل إذا أصبح النصر حقا على الله فهل يخالج المسلم شك فى تحقيقه ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢] .

● رسل الله والنصر

وتأمل ما حدث لقوم نوح عليه السلام ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقوم هود عليه السلام ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] وكذلك قوم صالح عليه السلام ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦، ٦٧] وأما لوط عليه السلام ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣، ٨٤] ويستمر ركب النصر إلى شعيب عليه السلام ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ

جاثمين﴾ [هود: ٩٤] ويشتد طغيان الكافرين وعلوهم فى الأرض فإذا بنا نرى ﴿فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ وكانت إرادة الله مع هؤلاء المستضعفين كما قال: ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ،ونمكّن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ وتحققت إرادة الله بمنّه على المستضعفين ﴿ فانتقمنا منهم وأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وما كانوا يعرشون﴾ .

أفبعد هذا اليقين فى انتصار الحق وإزهاق الباطل يراود المسلم شك ؟ إنه أمل يُنتظر تحقيقه كما ينتظر انشقاق الفجر بعد ليل طال،إنه وعد من الله مشروط بدخول المسلمين فى السلم كافة،فإذا أذعنوا لربهم وفعلوا المأمور ،وتركوا المحظور، وصبروا على المقدور واستجابوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم تحقق وعد الله فيهم ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا. . .﴾ .

● شبهة واهية

وهذا النصر كما تحقق فى الدنيا يتحقق أيضا فى الآخرة لتتم النعمة وتكتمل الفرحة بهذه البشرى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] فالنصر فى الدنيا والآخرة على حد سواء كما أخبرنا المولى عز وجل ، وهنا تظهر شبهة قد تراود بعض المسلمين يجلّيها لنا إمام المفسرين ابن جرير الطبرى يقول فى تفسيره : « يقول قائل: ما معنى إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ؟ » وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه ومثلوا به كأشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما ،ومنهم من يهم بقتله قومه ، فكان أحسن أحواله أن يخلص منهم حتى فارقهم ناجيا بنفسه كإبراهيم الذى هاجر إلى الشام من أرضه مفارقا لقومه ، وعيسى الذى رفع إلى السماء إذ أراد قومه قتله ، فأين النصرة التى أخبرنا أنه ينصرها رسله والمؤمنين به فى الحياة الدنيا ، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما قد علمت ، « وما نصروا على ما نالهم بما نالهم به ؟ »

ثم أجاب ابن جرير على هذا السؤال باحتمالين أولهما أن المقصود من الآية هو انتصار رسول الله محمد ﷺ خاصة ، وأما الوجه الثانى الذى تستريح له النفس هو قوله : « إن

الله سبحانه ينصر رسله والمؤمنين به فى الحياة الدنيا ، وإن اختلفت صورة النصر فمنهم من يمكنهم الله سبحانه حتى يظهروا على عدوهم ويغلبوه ،وينتصروا عليه ، ومنهم من يعجل الله العذاب لأقوامهم المكذبين لهم ، ومنهم من يسلط عليهم ـ بعد قتلهم أنبيائهم ـ من ينتقم للأنبياء وينتصر لهم »(١) .

ويشير ابن كثير إلى هذا الكلام الذى قاله ابن جرير ثم يقول : « . . . ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى عليه السلام إماما عادلا ، وحكما مقسطا ، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصرة عظيمة ، وهذه سنة الله تعالى فى خلقه من قديم الدهر وحديثه ، إنه ينصر عباده فى الدنيا ، ويقر أعينهم ممن آذاهم» . ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى : مَنْ عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب »(٢) .

ولذلك أهلك الله عز وجل قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق ، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يُهلك منهم أحدا ، وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحدا . قال السدى: لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قومه فيقتلونه ، أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون فيذهب ذلك القرن،حتى يبعث الله تبارك وتعالى من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك فى الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلون فى الدنيا وهم منصورون فيها(٣).

● **من معانى النصر :**

إن من معانى النصر الانتقام ، وقد ينتقم المولى سبحانه وتعالى للمظلوم فى حياته أو بعد قتله وموته ، ولذلك فإننا نذكّر الذين يحادون الله ورسوله ويقعدون بالمرصاد لأوليائه ويحاربون عباده المجاهدين فى سبيله ـ نقول ـ نذكرهم بسنة الله ـ ونلفت نظرهم إلى ماحل بالأمم التى يسيرون على منوالهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣٨] . . ونقول للمسلم: ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ .

وشاء الله أن يكون نصره للمؤمنين من أمة محمد ﷺ بجهد البشر والأخذ بأسباب

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٤/ ٧٤، ٧٥ .

(٢) جزء من حديث طويل رواه البخارى كتاب الرقائق ٨/ ١٣١ بلفظ « فقد آذنته بالحرب » .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٨٣، ٨٤ .

النصر ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾.

فإذا أخذ المسلمون بالأسباب وأعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل نصرهم الله من قلة وضعف ، وأوحى إلى ملائكته ليثبتوهم ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ .

ولن يتحقق ذلك إلا إذا « أخضعوا أحداث الزمان لكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولسنة رسول هى تبيان لكل شىء ،مهما تراءى للناس أن الدنيا لا تحتمل هذا الإخضاع ؛ لأن الدين هو السنة التى وضعها الله للناس كما وضع السنن الكونية الأخرى للشمس والقمر والحيوان والنبات ، وكل ما فى الأرض وما عليها »(١) .

فمن حاول أن يخرج على سنة الله فمصيره مصير الكوكب الذى يخرج عن مداره سرعان ما يسقط من عليائه إلى الأرض فيخبو نوره وتدوسه الأقدام وتهوى به الريح فى مكان سحيق .

● الأمل معه العمل :

إن إيماننا بأن المستقبل لهذا الدين يمنحنا الأمل الذى يدفعنا إلى العمل الجاد للوصول إلى النصر الأكيد ، ولن يكون ذلك كذلك إلا إذا ارتفعنا إلى مستوى هذا الدين ، نعم نرتفع إلى مستواه فى حقيقة إيماننا ، ونرتفع إلى مستواه فى حقيقة عباداتنا ، ونرتفع إلى مستواه فى معاملاتنا وأخلاقنا ، ونرتفع إلى مستواه فى وعينا بما حولنا ومعرفتنا لأساليب عصرنا « ورحم الله رجلا عرف زمانه واستقامت طريقته » .

إنه نصر يحتاج إلى جهاد طويل ــ أقول جهاد ولا أقول قتال ــ لأن جسامة التحديات التى تواجه الإسلام والمسلمين فى هذه الحقبة كبيرة « وكلكم على ثغر من ثغور الإسلام فالله الله أن يؤتى من قبله » فالتزامك بالإسلام التزاما حيا ، وإلزامك أهلك به ، وتعليمه للناس ونشره وتبليغه ، وتربية المدعوين عليه ، وعدم البخل بوقتك ومالك وكل ما تملك لهذه الدعوة كل ذلك جهاد فى سبيل الله ، والصابر على ذلك حتى يتحقق نصر الله الموعود من المجاهدين الصادقين .

لذلك « فإن الدعاة اليوم هم طلائع النور فى أمة طال عليها الليل ، وبوادر اليقظة فى أمة تأخر بها النوم ، وأمل العالم فى عصر أجدبت فيه الدنيا من رسل الرحمة واليقين

(١) مجلة الدعوة عدد ٥٢ من مقال الإمام الجليل الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين .

وامتلأت بزبانية الأثرة والإلحاد » (١) .

● فهم خاطئ :

وأخيرا أحب أن ألفت النظر إلى أمر هام وهو أن بعض المسلمين يسيئون معنى النصر فإذا طال على الداعى الأمد مثلا ولم يستجب له أحد بالرغم من التزامه بمنهج الدعوة السديد ،وتمر عليه السنون وهو يدعو الناس لدين الله ولا يتحقق له نصر فى عمره المحدود حكموا على الدعوة بالفشل وعلى الداعى بالعجز ولهؤلاء ضرب الله المثل بقصة نوح عليه السلام الذى عاش بين قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل من هؤلاء الذين طغوا وبغوا وعصوا ربهم ولم يتركوا محارمه ولم يجتنبوا مآثمه، ومع هذا العناد والجحود من قومه فإنه استمر فى دعوته ليلا ونهارا ما ترك وسيلة من وسائل الدعوة إلا سلكها سرا وجهرا ، وقومه لم يكتفوا بالإعراض عنه بل اتبعوه بالسخرية والاتهام وهو يتلقى كل ذلك بالصبر والحسنى والأدب الجميل والبيان المنير .

ألف سنة إلا خمسين عاما هذا حاله بينما عدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ، ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ، وهو يزداد إصرارا واستمرارا فى دعوته لا يمل ولا يفتر ولا ييأس أمام هذا الإعراض والإصرار الذى وصل بهم إلى أن يكرهوا سماع صوته ورؤية وجهه ﴿ وجعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ وهى صورة تبين إصرار الداعى على دعوته وتحيّن كل فرصة ليبلغهم إياها بالرغم من إصرارهم على الضلال .

وبعد هذا الجهاد الطويل ، وهذا العناء المرير ماذا كانت النتيجة ؟ يقول لنا نوح عليه السلام : ﴿ رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا : لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ .

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله وهو الذى انتهت إليه أمانة دعوة الله فى الأرض كلها فى آخر الزمان ليرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل لإقرار حقيقة الإيمان فى الأرض ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة ، كما تعرض على الجماعة المسلمة فى مكة ،وعلى الأمة المسلمة بعامة ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبى البشرية الثانى ، كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة (٢) .

---

(١) دراسة فى الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالى ص ٩ .

(٢) الظلال ج ٦ ص ٣٧٠٦ بتصرف .

فهل تدبر الشباب اليوم هذا الدرس الربانى ؟ وهل سأل نفسه كم عدد الذين استجابوا لنوح عليه السلام بعد ألف سنة إلا خمسين عاما ﴿ فما آمن معه إلا قليل ﴾ يزيدون عن العشرة نفر أو يقلون . . . فكيف نحكم على الدعوة والداعى بعد هذا الزمن الطويل واستجابة العدد القليل نقول : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ أما قلوب البشر فيملكها رب العباد ولا شأن للداعى باستجابة الناس له أو عدم استجابتهم بعد أن يعيد تقييم أسلوب الدعوة ويطمئن على مدى مطابقته لمنهج رسول الله ﷺ لأن المولى سيسألنا عن الكيف وليس عن الكم واسمع إلى تبيان ذلك من رسول الله موسى عليه السلام حين قال: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩] .

أبعد ذلك نقيس نجاح الدعوة بقصر مدتها وكثرة المستجيبين لها أم بمدى مطابقتها لمنهج الرسول ﷺ دعوة وأسلوبا ،أما النتائج فمردها إلى الله لا يجليها لوقتها إلا هو بالرغم من أن النفس تتوق لرؤية النصر ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ .

● وفهم خاطئ آخر :

وبعض الدعاة يضيق ذرعا بالناس الذين يدعوهم فإذا دعاهم مرة أو مرات ولم يستجيبوا له حكم عليهم بالضلال إن لم يكن بالكفر ، وطمأن نفسه ليقنعها أنها ما قصرت فى دعوة ، وإن للنار وقودا من الناس والحجارة فماذا هو صانع مع هذا الصنف من البشرية الذى أعده الله للنار . . . هكذا يقول ؟

ولهؤلاء يضرب الله المثل بسيدنا يونس عليه السلام ، ذلك النبى الكريم الذى ضاق صدره بتكذيب قومه فأنذرهم بعذاب قريب ، وغادرهم مغضبا لأنهم كذبوه ، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة ، فناوأتها الرياح والأمواج ، فقال الملاحون: هاهنا عبد أبق من سيده ، ولابد لنجاة السفينة من إلقائه فى الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فألقوه فى البحر ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾ أى وهو آت بما يلام عليه من تخليه عن المهمة التى أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضبا لهم ، وخروجه بغير إذن ربه، قال عطاء : أوحى الله إلى الحوت أنى قد جعلت بطنك سجنا ، ولم أجعله لك طعاما، فلذلك بقى سالما لم يتغير منه شىء (١) وكان هذا من تدبير الله له ، فلما استكمل قوته وعافيته رده الله إلى قومه ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا

---

(١) تفسير أبى السعود ٤/ ٢٧٧ .

فمتعناهم إلى حين ﴾.

فأنت ترى نبى الله يونس دعى قومه مرات ومرات لكن ضاق صدره منهم فخرج يلتمس قوما آخرين فكان هذا الدرس الربانى الذى يجب على الدعاة أن يعوه جيدا « ألا وهو تكرار الدعوة مرات ومرات » فإن لم يستجيبوا فقل لنفسك : الله أعلم حيث يجعل رسالته ؟ والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، ولا تضيق صدرا بالناس وفى المرة التى لا يستجيبون فيها قل لنفسك: لعلهم يستجيبون فى المرة التالية ولا تيأس من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين .

هذان مثلان من القصص القرآنى أكتفى بهما ، ولعلك يا أخى المسلم لو عشت القصص القرآنى ومعانيه ومراميه لوجدت فيه الكثير من الدروس المستفادة ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق ... ﴾ .

فعش مع إبراهيم لترى بره بوالده وأهله ، فعش مع يوسف لترى مدى صفحه ومسامحته لإخوته،وعش مع مؤمن يس،ومؤمن فرعون. . .عش مع هؤلاء الدعاة إلى الله لترى تلطفهم وصبرهم وجهدهم لنتعلم جميعا منهجا تركه لنا رسل الله الكرام وأتمه وأكمله وجمّله رسولنا الكريم ﷺ ليكون لنا نبراسا ونورا نهتدى به،ونحن نسير طريق الله.

وأخيرا فإننا نقول للذين لا يأملون الخير فى مجتمعهم ويشعرون باليأس لأنهم لا يرون فيه إلا سوادا حالكا وظلما بينا ،وكفرا بواحا . نقول لهؤلاء الذين لاهم لهم إلا الحكم بالكفر تارة ، وبالفسق تارة أخرى يجب ألا يشغلهم هذا الحكم فضلا عن أن يرموه فى وجوه الناس دون فقه فنحن دعاة ولسنا قضاة،ونحن للدعوة عمالها ولسنا علماءها فيجب على الداعى وهو يدعو الناس أن يستشعر الخوف على نفسه أولا ولا يخشى على الإسلام فإن الإسلام له رب سيحفظه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ... ﴾ فاخش على نفسك ألا تتشرف بالانتساب إلى الكتيبة التى سيجرى الله النصر على أيديها؛لأن الإسلام سينتصر بجماعة إن لم تكن بك فبغيرك ، وأنت إن لم تكن بهم فلست بغيرهم ، ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ . . . فالنصر محقق بإذن الله لكنه يحتاج إلى العمل الدؤوب والدعوة المستمرة ومخالطة الناس ومعايشتهم ومشاركتهم مشاعرهم وإحساساتهم.

وكذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الرسل الكرام من البشر يعيشون حياة البشر فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم ، وسلوكهم العملى نموذجا حيا لما يدعون إليه الناس، يتأثر الناس بأخلاقهم وسلوكهم ويتحملون ويصبرون ويجاهدون حتى يجرى الله النصر على أيديهم .

« ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ولا يمشون فى الأسواق ، ولا يعاشرون النساء ، ولاتعتلج فى صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس ، فلاهم يحسون دوافع البشر التى تحركهم ،ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون » .

« وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ويلهب ظهورهم بالسياط ويلقى على رؤوسهم الأحجار ،ويؤذى مسامعهم بالألفاظ ، فإنه لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه، ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقوله لما بينه وبينهم من قطيعة فى الحس والشعور ، وأيُّما داعية لا يصدق فعله قوله فإن كلماته تقف على أبواب الآذان ولا تتعداها إلى القلوب ، فمهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة فالكلمة البسيطة الصادقة التى يصاحبها الانفعال ويؤيدها العمل هى الكلمة المثمرة التى تحرك الآخرين إلى العمل» (١).

إن أولى خطوات النصر وبشائره أن تهزم عدوك من داخله هزيمة نفسية وأن تشعره بانتصارك عليه ، إذ إنه يريد أن يبعدك عن سبيل الله ويدعوك إلى حزبه ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ فإن استجبت له فقد انتصر عليك ، فثباتك على الحق الذى تدعو إليه هو هزيمة له وانتصار منك عليه وماقصه أصحاب الأخدود منا ببعيد ، وقصة الغلام الذى قال للملك: أتريد أن تقتلنى ـ وهو ثابت على الحق ـ أدخل الناس فى دين الله أفواجا وقالوا : آمنا برب هذا الغلام (٢) .

بل أى انتصار هذا الذى نراه من مؤمن يس فبعد ماقتله قومه قال : ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين . . . إنه الثبات الذى عاقبته فلاح فى الدنيا وفوز فى الآخرة (٣) .

فلنعمل والأمل يدفعنا واليقين إلى تحقيق النصر رائدنا ورسول الله ﷺ مرشدنا ليتحقق حينئذ قول ربنا : ﴿ وأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ .

● **الوعى والفقه :**

لاشك أن حركة الداعية حركة واسعة ،وانتشاره كبير ، واتصالاته كثيرة ، وهو ولاشك يلتقى بأنواع كثيرة من البشر ، كل له مزاجه ،وثقافته ، واطلاعه ، فلابد للداعى أن يشبع هذه الثقافات ويلم بشىء منها سواء كان دينيا أو فكريا أو سياسيا أو حركيا ، ولا ينفى هذا مبدأ التخصص فالتخصص فى زماننا أمر لابد منه حتى لا نكون بدعا من الناس،

---

(١) الظلال ج٤ ص ٢٣٦٨ بتصرف .

(٢) راجع تفسير سورة البروج من ابن كثير .

(٣) راجع تفسير سورة يس من ابن كثير

وحتى لا يفوتنا خير كثير .

لكن مبدأ التخصص لا ينفى اطلاع الداعية على الثقافات المتنوعة والمشكلات العامة حتى يشارك من يخاطبه كلٌ حسب ثقافته كمدخل من مداخل الدعوة ، وهو بذلك يستطيع أن يناقش الحجة بالحجة ، ويدعم أقواله بالبراهين فيرجح كفة دعوته ، والناس يجذبهم قوى الحجة ، وينصرفون عن الساذج عديم الخبرة ، فألحن الحجة ولو كان على باطل ربما يقنع مستمعيه وضعيف الحجة لا يؤثر ولو كان على الحق « وإن أحدكم ليأتينى وهو ألحن بالحجة من صاحبه فأقضى له . . . » .

فإذا كان رسول الله ﷺ يتأثر بألحن الحجة ولو كان على الباطل ، فما بالكم بصاحب الحق الصادق ، صاحب الحجة البالغة الذى يقذف بالحق الذى معه على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

● إن صاحب الدعوة فى أمس الحاجة إلى :

إخلاص فى العمل ، وصواب فى المنهج ،ووضوح فى الفكرة ، وقوة فى الحجة ، ودراية بالمجتمع ، وعلم بأحوال الناس ، وفقه بالدعوة ليتحقق له ما استعاذ منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال : « اللهم إنى أعوذ بك من جَلَد الفاجر ، وعجز التقى» .

ولن يكون ذلك كذلك إلا إذا تلافى الأحكام العاطفية ، والتصرفات الانفعالية والخطابة المثيرة التى تستثير العواطف فتهيجها ، ولا ترشد العقول فتبصرّها .

والداعى لا يترك الواقع وحقائقه ولا يعتمد التهويل والمبالغة فالدعوة فى حاجة إلى عقل المهندس الواعى ، ومبضع الطبيب الخبير ليقوم بعملية التخلى التى يعقبها التحلى بفضائل مجتمع ننشده يقوم على تخطيط مبرمج لأن الحركة العشوائية لا تأتى بخير ولا تفيد والكلام المرتجل لا يحقق ثمرة .

والعجيب أن أهل الباطل يخططون لتشويه الدعوة والدعاة ، وإحباط الحركة ، وإطفاء النور وما هم ببالغيه لأنهم واهمون ، ومع هذا الوهم وهذا السراب فإنهم يتآمرون على الإسلام فى الصحافة والإعلام وفى السياسة والاقتصاد وفى التربية والتعليم حتى أن بلدا كأمريكا يفزع علماء للأبحاث والبرمجة لمواجهة الصحوة الإسلامية وينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون وهم مع هذا لا يملّون من هذا الصد ويستمرون فى هذا الكيد .

أليس أجدر بأهل الحق أن يأخذوا بالأسباب ؟ فيخططون ويتوكلون على الله ويفرقون

بين الأمنيات والإمكانيات ولا ينطلقون من خيال إنما من واقع مدروس ملموس ولذلك كان على الداعى الواعى أن يدرس البيئة التى يعمل فيها دراسة علمية متأنية حكيمة يتعرف منها على علل البيئة التى درسها والأمراض فيشخصها ، ثم يفكر فى أسلوب العمل تفكيرا علميا لا سطحيا ويتعرف على عقلية الناس واستعداداتهم ومستوى تفكيرهم وثقافتهم فلا يعقل أن يتعامل الداعى مع البيئة الريفية كما يتعامل مع البيئة الحضرية أو البدوية ، والوسط المتعلم كما يتعامل مع الوسط الجاهل أو الأمى ، والبلد الذى تنتشر فيه الشيوعية كالتى تنتشر وتسود فيها الرأسمالية أو العلمانية ، والبيئة المقهورة المظلومة كالتى تتمتع بشىء أو بقسط من الحرية . . والحق يقال: إن الداعى لابد أن يتحدث مع كل قوم بلسان حالهم واللغة التى يتحدثون بها ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤] .

فلكل جماعة من الناس لسان تخاطب به على حسب حالها ، فالجماعة الثائرة الهائجة تخاطب بعبارات هادئة لتكون بردا وسلاما على القلوب ، والجماعة الهادئة الفاترة تخاطب بعبارات مثيرة موقظة للهمم ، حافزة للعزائم ،محركة للنفوس يضبطها الفقه ويحكمها الوعى وهكذا تكون أساليب الداعى ملائمة ومناسبة . وصدق رسول الله ﷺ فيما رواه الطبرانى فى الكبير عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « يأيها الناس إنما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ، ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين،وإنما يخشى الله من عباده العلماء».

● حاجتنا لفقه الدعوة :

وهكذا ننتقل بالدعوة من ميدان المشاعر والانفعالات والخطب والمقالات إلى ميدان التخطيط والتنظيم والبرمجة والتأصيل والتقعيد ، وليس غريبا أن تبرز هذه الحاجات فى هذه الآونة لأن الدعوة اتسعت وتشعبت وكثرت ممارستها وتجاربها وأساليبها ، وهذا الاتساع وهذا التشعب لا يضبط إلا بالكشف عن الأصول والقواعد ،وليس أمر الدعوة بدعا من أمور العلوم الإسلامية الأخرى ، فقد تناول المسلمون حديث رسول الله ﷺ بالرواية والدراسة حتى وجدوا أنفسهم بحاجة إلى علم أصول الحديث ومصطلحه ، وكذلك الحال فى النحو والصرف والعقيدة والتفسير والتاريخ والفقه ،فإن أصول العلوم وقواعدها جاءت فى مرحلة متأخرة .

وفى الوقت الذى اتجهت فيه العلوم للتأصيل والتقعيد كان علم الدعوة أقوالا مأثورة وشذرات منثورة ، ولم يكن علما بالمعنى الاصطلاحى للعلم ؛ لأن مبعث العلم الحاجة إليه لم يكن المجتمع الإسلامى مهجورا أو غريبا ، وإنَّما كان قائما فاعلا ناشئا وأكثر أفراده

يمارسون الدعوة كما يعيشون وكما يأكلون ويشربون[1] .

فلا عجب أن نؤصل للدعوة ونقعد لها ونرشد إلى العلوم التى يجب على الداعى تعلمها حتى تتعمق ثقافته وفقهه ووعيه وحتى نساير ركب التقدم والرقى ونأخذ بأسباب الحياة الطيبة . فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « تحسن السريانية؟إنها تأتينى كتب، ،قال: قلت: لا. قال: فتعلمها، فتعلمتها فى سبعة عشر يوما»[2].

أليس ذلك أكبر دليل على حرص رسول الله ﷺ على أن تكون الأمة الإسلامية واعية للثقافات والحضارات واللغات التى حولها بالقدر الذى يجعلها تستفيد وتفيد فى مجال الخبرات الإنسانية العملية ؛ وليتمكن الدعاة إلى الله من أداء رسالتهم فى سهولة ويسر .

وهكذا فإن الداعى يحتاج بجانب فقهه وعلمه وتخطيطه إلى جناحين يحلق بهما : جناح التقوى ليتجرد بعمله لله سبحانه ، وجناح الوعى ليتفرس به ما يحاك له من مؤمرات ودسائس . فكم من تقى افتقد الوعى فسقط فى شرك الأعداء ، وكم من داع لا تقوى له أخلد إلى الأرض واتبع هواه

ولكى ترى حاجة الداعى إلى اليقظة والوعى استمع إلى ما قاله جلادستون فى مجلس العموم البريطانى ، حين أمسك هذا اللعين بكتاب الله فى يده وصاح قائلا : إنكم لن تنتصروا على المسلمين ما لم تمزقوا هذا الكتاب ، فإذا بأحد أعضاء المجلس يخطف منه الكتاب ويمزقه إربا ، فما كان من جلادستون إلا أن قال له : ما أجهلك ما أردت تمزيق ورقه ولكنى أردت تمزيق تعاليمه فى نفوس المسلمين .

إنه يريد تمزيق تعاليمه وليس تمزيق ورقه ، يريد تمزيق الصدور ، والتواء النفوس وسواد القلوب حتى تهجر هذا الكتاب الذى جعله الله نورا للناس يمشون به . . ويذكرنى هذا اللعين « جلادستون » بأستاذه إبليس الذى ظهر لعيسى ابن مريم عليه السلام فقال له : ألست تقول: إنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك ؟ قال : نعم قال: فارم بنفسك من ذروة هذا الجبل فإنه إن يُقدر لك السلامة تسلم . فقال له عيسى عليه السلام : يا ملعون إن لله أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه ــ فبهت الذى كفر . يا لها من بصيرة نافذة ووعى بأساليب شياطين الإنس والجن على حد سواء يرد كيدهم فى نحورهم . إن الإصلاح والتغيير لا يمكن أن يجيئا بمجرد إسداء النصح ، وإصدار التوجيهات ، وتنميق

---

(١) قواعد الدعوة إلى الله . د . همام عبد الرحيم سعيد ص ٩، ١

(٢) أخرجه أحمد والبخارى والترمذى

المقالات، وتدبيج الخطب والمحاضرات ، إنه يتطلب تغييرا فى مجرى الواقع المعاش ، ومن هنا فإن الداعى الذى يصلح للتحدث فى الإسلام رجل خبير بالحياة وعللها ، مكين فى الوحى الأعلى ، يأخذ منه بلباقة ما يشفى علل الناس ويصلح بالهم ، وما يتألف به نافرهم ويسكن ثائرهم ، وما يدحض به الأسارير المنقبضة ،وما يشعر الناس بعد الاستماع منه أنهم فقراء إلى الله محتاجون إلى هداياته ، لا بصيرة لهم إلا منه ولا ملجأ إلا إليه[1]. ولن يكون الداعى كذلك إلا إذا عاش مع القرآن وانفعل به لأن القرآن لا يعطى كنوزه وذخائره إلا لأولئك الذين يفتحون قلوبهم لآياته وتوجيهاته لتأخذ طريقها فى واقعهم فتحول تلك التوجيهات والمبادئ إلى حياة نابضة تمشى على الأرض وتعيش فى دنيا الواقع.

روى الأستاذ عمر التلمسانى رحمة الله عليه ــ قصة أول لقاء بينه وبين الشهيد حسن البنا ــ رضوان الله عليه ــ يقول : إن المرشد سأله : هل تقرأ القرآن : فأجابه نعم . ثم يقول : (أخرجت من جيبى مصحفا صغيرا لأُكِّد له ما أقول) . فسألنى ولماذا تحتفظ به فى جيبك ؟ فقلت :إنه خير وبركة . فما كنت أعرف من القرآن الكريم إلا أنه كتاب الله، وأنه بركة توضع على الرأس إكبارا ، أو فى الجيب حراسة ، أو فى المأتم رحمة ، فقال المرشد :مالهذا نزل القرآن يا عمر ، لقد نزل تشريعا يربط بين الدنيا والآخرة لقد نزل لكى نعمل به فى سبيل الله وخير المسلمين ،لا لكى تضعه فى جيبك أو لتقرأه لوحدك. وزاد المرشد قائلا : وعندما تتمعن فى قراءة القرآن وإدراك معانيه . فسوف تجد أن القراءة لمجرد القراءة لا تفيدك، فأنت عبد من عباد الله تقرأ القرآن تقربا لله وهذا صحيح، وإنما هذا أمر لا يكفى، فالمسألة ليست مسألة بركة فحسب ، وإنما العمل بتعاليم القرآن : فهل يرضى الإسلام أن يكون المسلم ذليلا؟هل يرضى أن يكون المسلم فى مؤخرة العالم كله؟هل يرضى أن يكون حملة كتاب الله على هذه الصورة من التبعية؟» [2] أى فقه هذا؟وأى وعى؟

صدقت يا إمام . . . فإن أعداء الإسلام يخشون أن يجتمع فى المسلمين صدق أبى بكر وعدل عمر ، ونبل عثمان ، وبسالة على ، وفروسية خالد ، وحنكة عمرو ، وحلم معاوية، وإقدام ابن الزبير . . . إنهم يريدون من المسلمين أن يكونوا إمعات ولا يحبون أن يروا فيهم الكيس الفطن الذى يكشف خبث طويتهم كما روى لنا العالم الجليل زاهد الكوثرى وكيل شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية يقول : « اجتمع سفير الدولة العثمانية فى بلاد الإنجليز مع كبراء الدولة ، فقال أحد الكبراء للسفير ، لماذا تصرّون أن تبقى المرأة

---

(١) كتاب مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة الشيخ محمد الغزالى ص ٣٠٨ .

(٢) من مقال للدكتور عبد القادر طامش فى مجلة الدعوة السعودية .

المسلمة فى الشرق الإسلامى متخلفة معزولة عن الرجال محجوبة عن النور ؟ فقال له السفير العثمانى : لأن نساءنا مسلمات فى الشرق لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن ، فخجل الرجل ولم ينبس ببنت شفة وتمنى أن لا يغمز المسلمين بكلامه » (١) .

أرأيت إلى سرعة البديهة والوعى العميق والفقه فى الدين ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « مَثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى ،إنها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مَثَلُ من فَقُه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلمه وعلّمه ،ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (٢) .

فما أحوج الداعى لهذا الوعى والفهم والمعرفة الدقيقة لمنهج الدعوة إلى الله ، ولذلك فإننا سنستعرض معك بشىء من الإيجاز نماذج من منهج الرسل فى الدعوة إلى الله كى نعلم أن هذا المنهج بدأه رسل الله وأنبياؤه واكتمل نضجا وفكرا وتأصيلا وتقعيدا وأسلوبا ونهجا برسالة المصطفى ﷺ لله فليتنا نتعلم هذا المنهج ونعلمه ونعمل به وننشره به ليصدق فينا ما رواه البيهقى عن محمد بن كعب القرظى رحمه الله قال : « إن موسى عليه السلام قال لربه . يا رب أى خلقك أكرم عليك ؟ قال : الذى لسانه رطبا بذكرى ، قال : يا رب فأى خلقك أعلم؟قال:الذى يلتمس إلى علمه علم غيره،قال:يا رب أى خلقك أعظم ذنبا؟ قال: الذى يتهمنى. قال: وهل يتهمك أحد. قال: الذى يستخيرنى ولا يرضى بقضائى»(٣)

★ ★ ★

(١) من كتاب المقالات فى موضوع الحجاب الشيخ زاهد الكوثرى .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم الجوزية ص ٦٣ .

الفصل الثالث

منهج الرسل وقواعد الدعوة

- ـ نماذج من منهج الرسل فى الدعوة .
- ـ أنواع البيان فى القرآن .
- ـ موقف الداعى من المجتمع .
- ـ قواعد الدعوة .
- ـ مقاصد الشريعة .
- ـ العلم بقيمة الأعمال والأحكام .
- ـ مراتب الأحكام .
- ـ اختلاف مراتب الناس .
- ـ شروط التصدى للمنكر .
- ـ قاعدة سد الذرائع .
- ـ جواز تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة الخفيفة .
- ـ بعض القواعد الشرعية التى يجب مراعاتها .

★ ★ ★

● منهج الرسل فى الدعوة إلى الله :

نعلم أن أسس الدعوة فى القرآن الكريم قامت على أمور ثلاثة :

١ ـ الإيمان بالله ٢ ـ الإيمان بالرسل ٣ ـ الإيمان بالبعث والجزاء.

فكانت الرسل تدعو إلى توحيد الله ، وتنهى عن الإشراك به ، وكانت تبين حقيقة هذا التوحيد بأساليب متعددة : بلفت النظر إلى الآيات الكونية ، والتذكير بنعمة الله ، أو بيان صفات الكمال الثابتة له ، أو بالحجج العقلية ، أو بضرب الأمثال ، أو بالتفكر والتدبر فى الأنفس والآفاق (١) . واسمع إلى القرآن يناقش العقول فيقول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٢ ـ ٤٤] . ويقول : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ولعلا بعضهم على بعض﴾ . كما كان ينزه المولى سبحانه عن اتخاذ الصاحبة والولد والشريك فى مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ .بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١] ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ،وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا...﴾ وفى مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٣] .

وما أعظم هذا الإنكار على قوم يكرهون البنات وتسود وجوههم إذا بشر أحدهم بالأنثى ومع هذا يجعلون لله ما يكرهون ،فينكر عليهم القرآن هذه القسمة الضيزى فيقول: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ . فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٩] .

---

(١) راجع كتاب منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف.

بهذا المنطق الحكيم والحجة السديدة عرض رسل الله الكرام دعوتهم على أقوامهم لا يختلف رسول عن الآخر . وكانوا يثبتون الرسالة والرسول بإبراز جانب الصدق الذى كان يتصف به كل نبى ورسول ، فكان كل نبى يقول لقومه : ﴿ إنى لكم رسول أمين ﴾ كما كان يظهر لهم بعض المعجزات التى تؤيده من قبل ربه ، وكان يسوق لهم البينات والحجج والبراهين الساطعة والناطقة بصدقه ، وأن ما جاء به من الحق منزل من عند الله سبحانه وتعالى بأسلوب حكيم ، وحجة بالغة وبينة واضحة ؛ ليكون الإقناع لا الإكراه هو السبيل. فإذا ما آمنوا بالله ورسله بالأدلة النقلية والعقلية ورسخ هذا الإيمان فى قلوبهم ، دعوهم إلى الإيمان بالبعث والنشور ؛ لأنه من الأمور الغيبية التى لا يمكن للعقل أن يتوصل إليها إلا بعد الإيمان بالله ورسله ، فالإيمان برسل الله عليهم الصلاة والسلام يتبعه الإيمان بكل ما جاءوا به ، ومن أهم ما جاءوا به الدعوة إلى الإيمان بالبعث وما يتبعه من حساب وجزاء ، ولذلك فإن الإنكار ليوم البعث هو فى الحقيقة إنكار لما جاء به الرسل .

واستمع إلى أسلوب القرآن فى الدعوة إلى الإيمان بيوم البعث بالاستدلال ببدء خلق الإنسان ؛ لأن الذى بدأ الخلق قادر على إعادته : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩] ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧] ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ . أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٤٠] .

واستمع إلى هذا النداء الذى يوقظ النائمين، وينبه الغافلين ويزيد إيمان المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧] .

● **وأنت ترى فى أساليب الدعوة هذه :**

١ ـ البيان بالحجة لا بالقوة وبالبرهان لا الإكراه ، وباللسان لا السنان .

٢ ـ دفع الشبهات التى تثار بما يدحضها ويزيلها بمخاطبة العقل وإقامة الدليل بأساليب متعددة فى صور مختلفة بحيث تتناسب مع العقول المتفاوتة حتى لا يبقى مجال للريب

والشك.

٣ ـ استخدام الترغيب والترهيب فى الدعوة بحكمة بالغة .

٤ ـ إظهار الأسوة الحسنة وتقديم النموذج القرآنى ليكون خلق الداعى ، وهكذا يعلمنا القرآن كدعاة إلى الله البينة واجبة على الداعى ، فللمدعو أن يسأل وعلى الداعى أن يجيب ويوضح ويبين مهما كان فى السؤال إثارة أو إهانة أو سخرية أو استهزاء .

فهذا فرعون يسأل موسى : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ . قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ . قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى . الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَىٰ﴾ [طه : ٥٠ ـ ٥٤] .

واقرأ على سبيل المثال لا الحصر . سورة هود وستجد فيها التهكم والسخرية بالأسئلة المثيرة التى توجه إلى كل نبى من قومه ،لكنه يجيب ويوضح ويبين دون أن يبالى بالاستهزاء أو السخرية أو التهكم ؛ لأن مهمته تتطلب ذلك التبيان والتوضيح .

● **أنواع البيان فى القرآن :**

والمتأمل فى القرآن الكريم ـ الذى نزل لهداية البشرية ـ يجد أنه اشتمل على نوعين من البيان :

الأول : فيما يتعلق بالدعوة إلى :

١ ـ التوحيد ٢ ـ إثبات الرسالة ٣ ـ كون القرآن من عند الله سبحانه

٤ ـ إثبات البعث والنشور ٥ ـ بيان الانحراف والضلال اللذين كان عليهما القوم

ثانيا : الاهتمام بالجانب التشريعى : أعنى مالابد منه من بيان الأحكام العملية فى العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والسياسية والحربية وأصول الحكومة الإسلامية . . . إلخ . وهذا ماكان فى المدنى منه ، غير أنه لما كان فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى فريق دخل عليه الشرك فى العقيدة كما دخل على مشركى مكة ، إذ كان فى النصارى من يغلو فى رسول الله عيسى عليه السلام حتى أخرجه من صنف البشر ، وكان فى اليهود من يغلو فى العزير فقال : إنه ابن الله ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ـ لذلك بيّن لهم القرآن فى هذه الفترة صحة الاعتقاد وفساد باطلهم (١) .

وبهذا كله يتّبين أن الله سبحانه لم يكلف رسله أن يطلبوا من الناس الإذعان لدينه

---

(١) معالم الدعوة ج ١ ص ٢٤٨ بتصرف .

الذى بعثهم به إذعانا قسريا ، دون أن يقيموا الحجج والأدلة الواضحة على أن ما جاءوا به هو الحق ، وأن ما دونه هو الباطل ـ للمرتابين فى ذلك ، بل كلف الله سبحانه رسله أن يقوموا بواجب التبليغ المصحوب بالبينة ؛ ذلك لأن الناس لا يلزمهم الإيمان ، إلا إذا قامت عليهم الحجة بالتبليغ ، ومن مهمة الرسل ـ كما قلنا ـ أن يوضحوا ويبينوا للناس ما أرسلهم الله به ، وقد ذكر الله سبحانه عن جميع رسله أنهم جاءوا أقوامهم بالبينات ، وذلك فى مثل قوله: ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١] .

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] .

فهذا نوح عليه السلام بعد أن عرض على قومه دعوته ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] فأجابهم بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١] وكذلك فعلوا مع هود عليه السلام حين دعاهم إلى الإيمان بالله ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود٥٣ ـ ٥٤] فكانت إجابته : قال : ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود٥٤ـ ٥٦] .

وأما إبراهيم عليه السلام فقد عرف القوم بربه فقال : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢] وكذلك فعل جميع الرسل والأنبياء يعرفون أقوامهم بحقيقة دعوتهم إلى الله ويبينون لهم ما نزل عليهم . هذا ماكان يقوم به رسل الله الكرام فى أزمانهم ،وفى زماننا هذا طال على المسلمين الأمد فأصبحوا بين تائه وحيران ، وضال ومتعطش للحق ،والمضلَّل به ،والمتعبد على جهل ،وكل هؤلاء فى حاجة إلى من يأخذ بأيديهم إلى الطريق الأقوم ، ويرشدهم إلى صراط الله المستقيم حتى يكون الجميع على هدى ، وتلزم الحجة من أعرض بعد البيان . ولذلك فإن مسئولية البيان وأسلوبه فى أعناق الدعاة إلى الله ، ومن فضل الله فإن أعداء دين الله لا يستطيعون مقاومة الحق بالبرهان والحجة لأن الباطل لا يملك الحجة التى يقوم عليها وجوده ، ولا سلطان له على النفوس إلا عن طريق الشبهة والشهوة ، فعلى الداعى أن يعرف بمجرد أن يحمل الدعوة

ستوجه إليه الاتهامات والأباطيل كسلاح يشهره أعداؤه عليه ، فعليه التحلى بالصبر والثبات، وأن يدعو الناس على بصيرة للعودة إلى المصادر الأصلية لهذا الدين ليستقوا منه.

والغريب أن أكثر الذين يتطاولون على هذه الدعوة هم المترفون والأكابر فى كل عصر ومصر ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٣، ١٢٤] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] .

وهم الذين ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] لأنهم يقارنون بين حالهم من سعة فى المال وبسطة فى الجسم ، ورفعة فى المركز ،وحال المسلمين من ضعف وفقر ومهانة . ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] حتى أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يطردهم من مجلسه حتى يؤمنوا وقالوا للرسول ﷺ: تدنى هؤلاء ؟ يقول سعد بن أبى وقاص : « كنا مع النبى ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبى : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . . . ﴾ (١) .

• موقف الداعى من المجتمع !

والداعى لا يجارى القوم فى مطالبهم ، ولا عاداتهم ، ولا تقاليدهم التى تتصادم وقواعد الشرع وأحكامه وآدابه ، وأصحاب الدعوة ينبغى أن لا تستخفهم أهواء البشر ، رغبة فى كسبهم إلى الدعوة ؛ لأن الرغبة فى الاستجابة لمقترحات بعض المدعوين هى التى تقوم بعض الدعاة اليوم إلى محاولة ــ لا أقول تغيير بعض الأعراف والعادات الإسلامية فحسب ــ بل تصل إلى محاولة تحوير العقيدة ذاتها أو تحوير النظام الإسلامى بما يتناسب مع الأوضاع الشاذة . فما الذى يفعله الداعى أمام قوم يقولون مثلا : إن الإسلام شعائر لا شأن لها بالشرائع ، أو دين لا شأن له بالدولة ، أو أخلاق لا شأن لها بالسياسة .

إن الاستجابة لمثل هذه المطالب والمقترحات باسم المرونة ويسر الدين تجعل من الدين نفسه ألعوبة لا منهج له ولا تصور ربانى خاص به ، لذلك قال ربنا لرسولنا ﷺ :

---

(١) رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٨٧٨ . وجاء فى رواية الواحدى ذكر الستة المشار إليهم فى حديث سعد بن أبى وقاص وهم : سعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن مسعود، وصهيب أو عمار ، والمقداد، وبلال.

﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ .

والحقيقة التى لا مفر منها : أن أعداء الإسلام يحاولون الصد عن سبيل الله سواء فى ذلك صد الناس عن اتباع حملة الحق ودعاته ، أو صد الدعاة عن استمرارهم فى الدعوة إلى الله وتبليغ دينه إلى الناس بكل الوسائل بالتهديد والإيذاء ، أو الإغراء والإغواء ، أو بالتشهير والتشويه . ورضوان الله عن الإمام الشافعى حين سئل : أيما أفضل للرجل : أن يُمكّن أو يُبتلى ؟ فقال : لا يُمكّن حتى يبتلى ، وصدق رسول الله ﷺ فى الحديث الذى روته السيدة عائشة رضوان الله عليها لمعاوية : « من أرضى الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا »(١) .

إن الذين يتحدثون عن دين الله الحق ، ويظهرون اطمئنانهم إليه وإيمانهم به ، ثم يرون حرماته تنتهك ،وحماه يُستباح ، فلا تتحرك لهم غيرة عليه ، ولا يهرعون لحمايته والذود عنه حبا لهذه الحياة ، وعزوفا عن الآخرة ، اشتروا العاجلة بالآجلة . ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] .

أما الذين لديهم الغيرة على دين الله ،فلابد لهم من أن يتصدوا لهذه الشبهات والمنكرات ومالا يرضى الله ، ليس بالعاطفة أو الاستثارة أو العنف ، فكم من أناس تصدوا للدعوة والإفتاء والقول فى دين الله من غير أن تكون لديهم الآلة ولم يجمعوا الأدوات . وليسوا أهلا للاجتهاد ، وبذلك يسيئون لدعوتهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولو كان ذلك بحسن نية .

ونحن نعلم أن السبب فى وضع علم أصول الفقه ووضع الضوابط والقواعد أنه دخل الدخيل فأفتى بغير علم فضل وأضل ، وإذا كان علم أصول الفقه هو العلم الذى يبحث فى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية وهو ما يتعلق بالشريعة .

فإننا يجب أن نعدى هذه القواعد من نطاق الأحكام الشرعية العملية إلى نطاق الدعوة العامة إلى الله كى يتزود الداعى بقواعد وأصول وضوابط تحكم دعوته حتى لا ينحرف عن المنهج الحق ، منهج الدعوة الذى سلكه الأنبياء ــ كما رأيت ــ ورسل الله جميعا ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فاقتدى بهم رسول الله ﷺ الداعى الأول .

---

(١) الترمذى . كتاب الزهد ٤/ ٦٠٩، ٦١٠

ولما كانت الدعوة إلى الله علم من أجل العلوم الإسلامية فهى لذلك أولى بالتزام القواعد والأصول والضوابط وسنرى من خلال عرضنا لبعض قواعد وأصول الفقه مدى الارتباط الوثيق بين هذه القواعد والدعوة إلى الله والتى تضبط سير الداعى ونهجه وأسلوب دعوته مع الناس ، خاصة فى زماننا هذا بعد ما كشفت المفاهيم غير الصحيحة ،ودخل الدخيل على دعاة الإسلام ورأينا مَنْ لا يفقه دينه،ومن يدين بغير الإسلام ، ومن يلبسون ثوبه ويعتنقون أفكارا علمانية أو إلحادية يخوضون فى دين الله بغير علم ويزينون للعامة باطلهم.

لذا رأينا أن نعرض لبعض هذه القواعد والأصول حتى يتضح للداعى منهج الدعوة وأسلوبها حتى يدعو الداعى إلى الله على بصيرة ، وحتى يعلم الشباب بوجه خاص أن للدعوة قواعد وأصول .

★ ★ ★

قواعد الدعوة

لاشك أن فقه الدعوة أصبح علما من العلوم المعتبرة، له أصوله وقواعده، وينبغى على كل داع إلى الله أن يراعى هذه القواعد، وهو يدعو الناس لدين الله، فلا يكفى أن يكون الداعية عابدا من العباد أو ناسكا من النساك فمع هذا التبتل المطلوب الذى يصبغ العابد بصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، لابد له من فهم دقيق وفقه واع حتى يدعو إلى الله على بصيرة. إذ بدون الفقه قد يضر الداعى ولا يفيد، وينفر ولا يشوق، ويفرق ولا يجمع. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: « نضّر الله امرءًا علم مقالتى ووعاها فأداها كما وعاها، فرب مبلغ هو أوعى من سامع» وفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ... ومن أراد الله به خيرا فقهه فى الدين لذلك دعا رسول الله ﷺ لابن عباس فقال: « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » لأن الحديث فى الأمر والنهى دون فقه به ودون علم بمقاصد الشريعة فتنة فى الأرض وفساد كبير فيجب على الداعى إلى الخير أن يعرف المصالح والمقاصد والقواعد الشرعية؛ لأن المصالح والمفاسد التى تعتبر مقياسا للأمر والنهى فى الشرع الإسلامى هى التى تتفق أو تتنافى مع مقاصد الشريعة، إذ إن هذه المقاصد هى لتحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم فى الآجل والعاجل، وبهذا تتحقق لهم السعادة الحقة فى حياتهم وآخرتهم، يقول العز بن عبد السلام « إن الشريعة كلها مصالح، إما درء مفاسد أو جلب مصالح »(١) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الشريعة الإسلامية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها» (٢) وقال ابن القيم الجوزية: «الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد وهى عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها » (٣) ويقول الإمام الشاطبى: «إنها ـ أى الشريعة ـ وضعت لصالح العباد » (٤)

● **مقاصد الشريعة:**

« إن من أول مقاصد الشريعة صيانة الأركان الخمسة الضرورية للحياة وهى:

الدين ـ النفس ـ العقل ـ النسل ـ المال.

ثم ضمان ما سواها من الأمور التى تحتاج إليها الحياة الصالحة مما دون تلك الأركان الضرورية فى أهميتها، وهذه الأركان اتفقت الشرائع الإلهية بل والوضعية أيضا على

---

(١) القواعد للعز بن عبد السلام ج ١ ص ٩.

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ج ١ ص ١٤٧، ج ٢ ص ٢٤، ج ٣ ص ١١٨

(٣) أعلام الموقعين ج ٣ ص ١

(٤) أعلام الموقعين ج ٣ ص ١

وجوب احترامها وحفظها .

« ولقد قسم علماء الفقه الإسلامى الأعمال والتصرفات التى تعد من المصالح بالنظر الشرعى وبحسب دلائل النصوص الشرعية وأحكامها إلى ثلاثة أقسام :

أولا : الضروريات : وهى الأعمال والتصرفات التى تتوقف عليها صيانة الأركان الخمسة السالفة البيان . والنظر الشرعى أن هذه الأمور لابد منها للحياة الصالحة ، فإذا فقد بعضها انهارت الحياة الإنسانية أو اختلت .

ولذا شرعت العبادات ، وأبيح بل وجب الأكل والشرب والملبس بما يصون الأبدان ويستر العورات كما نظمت أحكام المعاملات لصيانة الحقوق والأموال ، وشرعت العقوبات والتضمينات ــ أى المسئوليات المالية ــ زجرا عن العدوان وجبرا للحقوق » .

فأساس الأعمال التى تعد من المصالح الضرورية أن لا تقوم تلك الأمور الخمسة التى هى من أركان الحياة البشرية الصالحة إلا بمراعاتها » .

ثانيا : الحاجيات : وهى الأعمال والتصرفات التى لا تتوقف عليها صيانة الأركان الخمسة ، ولكن تتطلبها الحاجة لأجل التوسعة ورفع الحرج ، كإباحة الصيد ، والتمتع بالطيبات التى يمكن أن يستغنى عنها الإنسان ولكن بشىء من المشقة ، وكتشريع عقد الاستئجار على سبيل المثال وكثير من أنواع المعاملات ، إذ لو سُدّ طريق الاستئجار لما تعطلت حياة الناس وما فسدت أوضاعهم ، ولكن ينالهم حرج كبير .

ثالثا : التكميليات والتحسينات : وهى التى لا تتحرج الحياة بتركها ولكن مراعاتها من مكارم الأخلاق أو من محاسن العادات ، فهى من قبيل استكمال ما يليق ، والتنزه عما لا يليق ، كآداب الكلام والطعام والشراب ، وكالاعتدال فى المظهر ، والاقتصاد فى المصارف دون إسراف أو تقتير ونحو ذلك » .

«وعلى هذا فالأحكام التى شرعت لصيانة الأركان الضرورية هى أهم الأحكام وأحقها بالمراعاة ، وتليها الأحكام الشرعية لضمان الحاجيات ، ثم الأحكام الشرعية للتحسين والتكميل» (١) .

« فلا يراعى حكم تحسينى إذا كان فى مراعاته إخلال بما هو ضرورى أو حاجى ؛ لأن الفرع لا يراعى إذا كان فى مراعاته والمحافظة عليه تفريط فى الأصل ، ولذلك أبيح شرعا كشف العورة عند الاقتضاء لأجل تشخيص داء ، أو لمداواة أو عملية جراحية ضرورية ؛ لأن ستر العورة من الأمور التحسينية التى غايتها أدبية ، أما العلاج فمن الضروريات لأن به

(١) المدخل الفقهى العام ج ١ ص ٩٣ - ٩٤ مصطفى أحمد الزرقا .

صيانة النفس أو العقل أو النسل »[1]

« وعلى هذا فإن كل ما يؤيد هذه المقاصد الشرعية ويساعد على تحقيقها فهو مصلحة مطلوبة طلبا قويا أو ضعيفا بحسب موقعها فى تلك الأقسام الثلاثة ، وكل ما ينافسها فهو مفسدة ممنوعة منعا شديدا أو ضعيفا بحسب نوع المقصد الشرعى الذى تخل به »[2] .

ولذلك قال العلماء :

● كل أمر فيه جهتا نفع وضرر :

فمن المسلّم به أن كل أمر من الأمور فيه جهة نفع وجهة ضرر متعادلتان أو متفاوتتان، فإذا كانت جهة النفع فى الشىء هى الغالبة فهى مصلحة بالمعنى العرفى ، وإن اشتمل على ضرر مغلوب ، وإذا كانت جهة الضرر هى الغالبة فهو مفسدة بالمعنى العرفى وإن اشتمل على نفع مغلوب .

« ونتيجة لذلك فإن كل شىء أو فعل إنما يكون مشروعا أو ممنوعا بحسب رجحان نفعه أو رجحان ضرره ، لا لأنه نفع محض أو ضرر محض »[3] وهذا هو الفقه فى الدين، ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين .

● العلم بقيم الأعمال والأحكام :

ولذلك وجب على الداعى أن يفقه ما يتعلق بقيم الأعمال ومراتبها الشرعية والاحتفاظ لكل منها بموضعه فى سلم المأمورات أو المنهيات ، دون خلط أو إخلال بالنسب ، أو تفريق المتماثلات ، أو تسوية بين المختلفات .

لقد جاء الإسلام فوضع لكل عمل قيمة خاصة بحسب تأثيره فى النفس والحياة ما نعلم منها وما لا نعلم .

« كما وضع للأمور المحظورة درجات ونسبا أيضا حسب ضررها وآثارها المادية والمعنوية أيضا، ومن هنا كانت الأمور المطلوبة فى الإسلام مراتب ودرجات ، منها المستحب الذى رغب الشارع فى فعله ولا حرج فى تركه، ومنها المسنون سنة مؤكدة ، وهو ما واظب عليه النبى ﷺ ولم يتركه إلا نادرا، ولم يطلبه جازما حتى أن بعض الصحابة كان يتركه أحيانا حتى لا يعده الناس واجبا فيحرجوا أنفسهم كما ورد أن أبا بكر وعمر كانا يتركان الأضحية لذلك » .

---

(١) أصول الفقه الشيخ عبد الوهاب خلاف ص ١٦٣ ، المدخل إلى علم أصول الفقه الدكتور معروف البروالبى ص ٤١٦ ، ٤١٧ الطبعة الثانية

(٢) المدخل الفقهى العام ج ١ ص ٩٢

(٣) المرجع السابق المدخل العام ص ٩٦ .

؛ ومنها الواجب [1] ـ كما فى بعض المذاهب ـ وهو ما أمر به الشارع وإن لم يصل الأمر به إلى درجة القطع . ومنها الفرض ، وهو ما ثبت وجوبه بطريق قطعى لا شبهة فيه، ورتب الشارع على فعله الثواب وعلى تركه العقاب،ويلزم من تركه الفسق،ومن جحده الكفر» .

« ومن المعلوم أن الفرض نوعان : فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين ، وفرض عين على كل من يلزمه » .

وفرض العين كذلك درجات ، فهناك فرائض اعتبرها الإسلام أركانا أساسية وهى خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، وهناك فرائض أخرى دون هذه فى الأهمية والمنزلة وإن كانت مطلوبة فى دين الله طلبا جازما .

والإسلام ولاشك يقدم فرض العين على فرض الكفاية ، ولهذا يقدم بر الوالدين وطاعتهما على الجهاد ما دام فرض كفاية [2] ، ولا يسمح للابن بالجهاد حينئذ بغير إذن الوالدين كما صحت بذلك الأحاديث عن النبى ﷺ .

« كما يقدم فرض العين المتعلق بحق المجموع على الفرض المتعلق بحق فرد أو أفراد ، كالجهاد وبر الوالدين فالجهاد إذا أصبح فرض عين على كل فرد كما فى حالة هجوم عدو كافر على أهل بلد ـ مقدم على حق الوالدين فى البر والطاعة .

وهكذا يقدم الفرض على الواجب ، والواجب على السنة ، والسنة المؤكدة على المستحب والإسلام يقدم القربات الاجتماعية على القربات الفردية ، ويفضل ما يتعدى نفعه إلى الغير على ما يقتصر نفعه على فاعله ولهذا فضل الجهاد على العبادة الفردية ، ويفضل الفقه والعلم على العبادة ، والفقيه على العابد وإصلاح ذات البين على التطوع بالصلاة والصيام والصدقة ، ويفضل عمل الإمام العادل فى رعيته على تطوعه بنوافل العبادات بأضعاف مضاعفة « اليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » .

كما أن الإسلام يؤثر أعمال القلوب على أعمال الجوارح ، ويقدم العقيدة على العمل ويعتبرها هى المحور الأساسى .

---

(١) الواجب عند الجمهور هو الفعل المطلوب على سبيل الإلزام والحتم بحيث يأثم تاركه وقد قسم الأحناف الواجب إلى ما يثبت بدليل قطعى (وهو الفرض) وما يثبت بدليل ظنى (وهو الواجب) راجع أصول الفقه لأبى زهرة وأصول الفقه للدكتور بدران أبو العينين .

(٢) والجهاد يكون فرض عين على كل مسلم إذا نزل العدو بساحة المسلمين .

ولقد رأينا فى عصور الانحطاط إهمال المسلمين ـ إلى حد كبير ـ فروض الكفاية المتعلقة بمجموع الأمة كالتفوق العلمى والصناعى والحربى ، ومثل الاجتهاد فى الفقه واستنباط الأحكام ، ومثل نشر الدعوة الإسلامية ومثل مقاومة البدع والمظالم .

بل وأهملوا بعض الفرائض العينية أو أعطوها دون قيمتها مثل فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والأدهى من ذلك نراهم يهتمون ببعض الأركان دون البعض فيهتمون بالصيام ويتركون الصلاة ، ويهتمون ببعض النوافل أكثر من اهتمامهم بالفرائض والواجبات، فيهتمون بالأذكار والتسابيح والأوراد ولم يولوا هذا الاهتمام الكثير من الفرائض الاجتماعية مثل إنكار المنكر ، ومقاومة الظلم الاجتماعى والسياسى .

وكما أن للمأمورات مراتب ، كذلك فإن للمنهيات مراتب منها : المكروه تنزيها وهو ما كان إلى الحلال أقرب ومنها المكروه تحريما وهو ما كان إلى الحرام أقرب ، ومنها المحرم الصريح الذى فصَّله الله فى كتابه وسنة رسوله ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ .

والحرام نوعان صغائر وكبائر ، فالصغائر تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ . لحديث الصحيح « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

أما الكبائر فلا يغسلها ولا يمحوها إلا التوبة النصوح ، والكبائر نفسها تتفاوت فمنها ما عده النبى ﷺ أكبر الكبائر وعلى رأسها الإشراك بالله تعالى ،وهو الذنب الذى لا يغفر أبدا إلا بالتوبة ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

ويليه ذنوب أخرى ذكرتها الأحاديث مثل عقوق الوالدين ، وشهادة الزور والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله ، وأكل الربا ،وأكل مال اليتيم .

● ومما وقع فيه الخلل والاضطراب :

١ ـ اشتغال كثير من الناس بمحاربة المكروهات أو الشبهات أكثر مما اشتغلوا بحرب المحرمات المنتشرة ، أو الواجبات المضيعة ، ومثل ذلك الاشتغال بما اختلف فى حله وحرمته عما هو مقطوع بتحريمه .

٢ ـ انصراف الكثيرين إلى مقاومة الصغائر مع إغفال الكبائر والموبقات ،كالعرافة والسحر والكهانة واتخاذ القبور مساجد ، والنذر والذبح للموتى ، والاستعانة بالمقبورين ، ونحو ذلك مما كدر صفاء عقيدة التوحيد (١) .

---

(١) رسالة صحوة الشباب الإسلامي للدكتور يوسف القرضاوي تحت عنوان « العلم يقيم الأعمال والأحكام » ص٢٩ رأينا نقلها بتصرف لأهميتها .

● مراتب الأدلة : (١)

الذى درس قواعد أصول الفقه يعلم أن هذه القواعد وجدت من حين وجد الاجتهاد ، وكان لكل فقيه قواعده التى يطبقها فى اجتهاده، قد تتفق أو تختلف مع قواعد غيره من الفقهاء، وقد اجتهد فقهاء الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم، ثم سمى علم أصول الفقه.

ومن هذه القواعد ترتيب الأدلة حين الاستدلال ، فقد روى الإمام البغوى عن ميمون ابن مهران قال : كان أبو بكر إذا جاء الخصوم نظر فى كتاب الله فإن وجد ما يقضى به قضى به ، فإن لم يجد بحث فى سنة رسول الله ﷺ ، فإذا وجد قضى بها وإن لم يجد قال : أقول فيها برأى وكذلك كان عمر رضوان الله عليه يفعل .

فكانوا يجتهدون الرأى مسترشدين بالكتاب والسنة وبما عرفوا من أسرار الشريعة وحكمها وأغراضها بما يحقق العدالة والمساواة وتقضى به مصلحة الأمة وحاجة الناس أو تطبيق القواعد العامة أو القياس أو غيره من القواعد .

● مع أبى حنيفة :

فكان الإمام أبو حنيفة يرتب بين الأدلة التى يعمل بها فقد روى عن أبى حنيفة أنه قال: إنى آخذ بكتاب الله إذا وجدته فإذا لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ — والآثار الصحاح وإلا أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع من شئت ثم لم أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين ، وسعيد بن المسيب فلى أن أجتهد كما اجتهدوا -- وفى رواية — فهم رجال ونحن رجال .

وقد اشترط الإمام أبو حنيفة شروطا لتلقى الحديث وتوسع فى القياس والفقه التقديرى وهكذا حسب البيئة والأحوال التى كانت عليها أحوال أهل العراق .

● مع الإمام مالك :

كان يعتمد بجانب الأدلة الأربعة (الكتاب — السنة — الإجماع — القياس) على عمل أهل المدينة والمصالح المرسلة ، وقول الصحابى ، والاستحسان ، وكان يقدم خبر الواحد على القياس لكنه اشترط فى قبول خبر الواحد عدم مخالفته عمل أهل المدينة ، ويرى فى ذلك أن عمل أهل المدينة بمنزلة رواية الكثرة عن رسول الله ﷺ .

● مع الإمام الشافعى :

كان بجانب الأدلة الأربعة يأخذ بالسنة الصحيحة ولا يشترط ما اشترطه الإمام أبو

(١) راجع مقالات فى تاريخ الفقه الإسلامى لفضيلة الشيخ عبد العال عطوة

حنيفة فى الحديث فلم يشترط الشهرة وإنما الصحة والاتصال ،ولم يأخذ بأقوال الصحابة لاحتمال أن تكون عن اجتهاد ويحتمل الخطأ ، وترك العمل بالاستحسان ، وكان يقول «من استحسن فقد شرع » ، وهو يعنى بذلك الاستحسان المجرد عن الدليل الشرعى ، وأنكر الاحتجاج بعمل أهل المدينة وكان ينقض مالكا فى ذلك ، وكان يقدم خبر الواحد على القياس .

وقد غيّر مذهبه حين أتى إلى مصر ، وسمع ما عند علمائها من حديث وفقه ورأى عادات وحالات اجتماعية تخالف ما سمع ورأى فى الحجاز والعراق .

● مع الإمام أحمد :

ذكر ابن القيم أن مذهب أحمد بن حنبل مبنى على أصول خمسة :

١ ــ النص من الكتاب أو الحديث ولم يلتفت فى ذلك إلى اختلاف الصحابة أو عدم العلم بالمخالف الذى يسميه البعض بالإجماع .

٢ ــ قول الصحابى عند عدم النص .

٣ ــ إذا تعددت أقوال الصحابة فى المسألة الواحدة اختار من أقوالهم أقربها إلى الكتاب والسنة بحيث لا يخرج عن قولهم .

٤ ــ تقديم الحديث المرسل والضعيف على القياس .

٥ ــ استخدام القياس للضرورة فلا يأخذ به إلا حين لا يجد شيئا فى الأصول الأربعة المتقدمة (١) .

وكما أن للأدلة مراتب كما رأيت فكذلك الأحكام المستنبطة من هذه الأدلة إنما هى مراتب يجب التعرف عليها .

● مراتب الأحكام :

ومن الفقه الذى يغفل عنه بعض الدعاة : معرفة مراتب الأحكام الشرعية وأنها ليست فى درجة واحدة من حيث ثبوتها .

فهناك الأحكام الظنية التى هى مجال الاجتهاد،وتقبل تعدد الأفهام والتفسيرات، سواءً كانت أحكاما فيما لا نص فيه،أو فيما فيه نص ظنى الثبوت أو ظنى الدلالة أو ظنيهما معا.

وهذا شأن الأحكام المتعلقة بالعمل كالأحكام الفقهية ، فهذه يكفى فيها الظن بخلاف الأحكام المتعلقة بالعقيدة التى لا يغنى فيها إلا القطع واليقين .

---

(١) مقالات فى تاريخ الفقه الإسلامى لفضيلة الشيخ عبد العال عطوه. .

والاختلاف فى الأحكام الفرعية العملية الظنية لا ضرر فيه ولا خطر ، إذا كان مبنيا على اجتهاد شرعى صحيح وهو رحمة بالأمة ، ومرونة فى الشريعة ، وسعة فى الفقه ، وقد اختلف فيها أصحاب النبى ﷺ ومن تبعهم بإحسان ، فما ضرهم ذلك شيئا ، وما نال من أخواتهم كثيرا ولا قليلا .

روى ابن وهب عن القاسم بن محمد قال : « أعجبنى قول عمر بن عبد العزيز : ما أحب أن أصحاب محمد لا يختلفون ؛ لأنه لو كان قولا واحدا لكان الناس فى ضيق ، وإنهم أئمة يقتدى بهم ، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سنة »(١) .

وفضلا عن ذلك فهناك الأحكام التى ثبتت بالكتاب والسنة والإجماع ووصلت إلى درجة القطع ، وإن لم تصبح من ضروريات الدين ، وهناك الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة بحيث يسوى فى العلم بها العام والخاص وهى التى يكفر من أنكرها بغير خلاف ، لما فى إنكارها من تكذيب صريح لله ولرسوله .

فلا يجوز أن توضع الأحكام كلها فى إطار واحد ودرجة واحدة حتى يسارع بعض الناس إلى إلصاق الكفر بكل من عارض حكما ما دون تمييز بين الأصول والفروع ولا تفريق بين الثابت بالنص والثابت بالاجتهاد وبين القطعى والظنى فى النصوص ، وبين الضرورى وغير الضرورى فى الدين فلكل منها منزلته ، وله حكمه الذى يجب أن يعيه المتصدى للدعوة إلى الله .

ولقد رأينا فى زماننا من كفر بالأقوال والأعمال معتمدين على أدلة محتملة كالنصوص التى أطلقت الكفر على بعض المعاصى أو سلبت الإيمان عن مرتكبيها ، مثل : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم وجوه بعض » ومثل : « من حلف بغير الله فقد كفر » ومثل : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن . . . » غير مفرقين بين كفر النعمة وكفر الجحود ، ولا مميزين بين الكفر الأصغر ـ كفر المعصية ـ والكفر الأكبر المخرج من الملة ، آخذين بما يوافق أهواءهم من الظواهر تاركين ما عداها مما هو أولى وأقوى ، ضاربين النصوص بعضها ببعض متبعين للمتشابهات ، معرضين عن المحكمات البينات ، والله يقول : ﴿ **فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ .

● **اختلاف مراتب الناس :**

وكما أن الأعمال مراتب ، والأحكام مراتب ، فالناس كذلك مراتب وأقصد بالناس

---

(١) المدخل الفقهى العام ص ٢١٢ ج ١ .

هنا أهل الإسلام ، ولهذا يخطئ من يعامل الناس كل الناس على أنهم مرتبة واحدة دون تمييز بين العموم والخصوص ،أو المبتدئ والمنتهى أو الضعيف والقوى مع أن فى الدين متسع للجميع ،حسب رتبهم واستعداداتهم ولهذا وجدت العزيمة كما وجدت الرخصة ،والعدل والفضل ،والفرض والنفل ،والالتزام والتطوع وقديما قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين(١).

وهكذا أيها الأخ الداعى تلاحظ ، أن حفظ النصوص ،والوقوف عند الدليل الشرعى دون تمحيص ودون معرفة بما قاله العلماء فيه أمر بالغ الخطورة ، وقد يؤدى بك إلى أن تفتى بغير علم أو تقول ما ليس بحق ، وتورد الناس موارد الهلاك ، وبذلك تسىء إلى دينك ودعوتك وتحسب أنك أحسنت صنعا ولو قلت لا أدرى لكان خيرا لك وللناس .

إن الاستقاء المباشر من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أمر بالغ الصعوبة على العامة ومن فى منزلتهم ،ولذلك وجب على الداعى أن يستقى من معين العلماء وينقل فهمهم إلى العامة نقل التلميذ الأمين عن الأستاذ الحصيف .

فمثلا لماذا نختلف على من يشرب الماء قائما أو قاعدا ـ ولقد صح عن الخمسة أئمة الحديث ما عدا أبا داود ـ عن ابن عباس رضي الله عنه قال : سقيت رسول الله ﷺ من ماء زمزم فشرب وهو قائم .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشى ونشرب ونحن قيام (٢) وعن مالك أنه بلغه أن عمر وعثمان وعليا كانوا يشربون قياما

بينما روى عن أنس بن مالك قال : « لا يشربن أحدكم قائما ، فمن نسى فليستقئ» . ويرى الفقهاء أن الشرب عن قيام مباح ، وأنه عن قعود أفضل ، ولا حرمة فيما لو شرب قائما . . . وكل على حسب حاله . . . ومثل ذلك التبول وقوفا ، وبهذا الفقه وسعة الصدر ينتهى الخلاف المذموم ، ويحل محله الاختلاف المحمود فى الرأى ،واختلاف الرأى لا يذهب للود قضية .

واسأل نفسك بعد هذا الفهم هل من الأفضل أن نترك مثل هذه الأمور الخلافية كإسبال الإزار ، والأخذ من اللحية أو حتى حلقها ، والصلاة فى مسجد مقبور ، وغير ذلك مما لا حصر له من المسائل الخلافية ونعلم الناس العقيدة بيسرها وسهولتها ، والإسلام بشموله وعمومه من نظم الحكم ، وأساليب الشورى ، وتداول المال ، وتظالم الطبقات ، ونقدم لهم الحل الإسلامى فى مشكلات الشباب ومتاعب الأسرة ، ونبين لهم أن عماد ذلك كله عقيدة صافية وأخلاق عالية ونظم سامية توحد المسلمين وتجعلهم صفا واحدا ونظاما

---

(١) رسالة الصحوة للقرضاوى ص٣٨ ـ ٣٩ المصدر السابق .

(٢) أخرجه الترمذى وصححه .

واحدا، وقيادة واحدة ، بل ومشاعر واحدة . « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منا » ونعلمهم التعاون فيما اتفق عليه ، وأن يعذر بعضنا بعضا فيما اختلف فيه دون تعصب أو إكراه الناس على رأى مختلف فيه .

إننا أحيانا نفترق على كثير من القضايا الخلافية الفرعية ،فنتصالح ونتخاصم من أجلها فنجعل الأصل فرعا،والفرع أصلا ونعلن حربا غير شريفة بين المسلمين بعضهم مع بعض بسبب هذه الجزئيات يحدث هذا التمزق فى الأمة الإسلامية ،والعالم الصليبى يحترق شوقا إلى ضرب الإسلام فى عقر داره لتنتكس رايته ويتخلف قادته ، وتنمحى حضارته، وتصبح أمته فى ذيل الأمم يشمت فيها صليبى متربص، أو شيوعى حاقد، أو صهيونى ماكر.

ولقد نجح الصليبيون فى تنصير أربعة أخماس الفلبين ،ثم اتجهوا إلى جزر أندونيسيا يحملون الخطة ذاتها ، وقد محوا المعالم الإسلامية من سنغافورة ، وهم الآن يبعثرون طلائعهم فى شرق وجنوب آسيا ، ولا تسل عن الروس وما فعلوه بالولايات الإسلامية هناك،وما قصتهم مع أفغانستان منا ببعيد،أما الصهاينة فقد جعلوا القدس عاصمة لهم وهم لا يخفون أطماعهم من النيل إلى الفرات . . . أفبعد ذلك لا نجتمع على ما اجتمع عليه المسلمون الأوائل لنواجه هذه الهجمة الشرسة على ديننا وأرضنا أم نظل مختلفين على مسائل لا تُسمن ولا تغنى من جوع حتى يحقق أعداؤنا أهدافهم ثم نندم فى يوم لا ينفع فيه الندم ، ورضوان الله عليك يا أنس بن مالك حين قلت لأصحابك فيما رواه البخارى: «إنكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها فى عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

● درس من السلف :

إن من روائع الدروس التربوية الإسلامية ماجاء عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فى تعليم الناس كيف يتغاضون عن صغائر الذنوب ، وتوافه العيوب إذا وقعت ممن يؤدى الفرائض،ويجتنب الكبائر ، فليس هناك إنسان معصوم ، وكل بنى آدم خطاء ، ولم يخلق الله البشر ملائكة مطهرين .

روى ابن جرير بسنده عن ابن عون عن الحسن البصرى : أن أناسا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله عز وجل ، أمر أن يعمل بها ، لا يُعمل بها فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك فقدم وقدموا معه . . . فلقى عمر رضي الله عنه، فقال : متى قدمت ؟ قال : منذ كذا وكذا . قال : أبإذن قدمت ؟

قال الحسن : (فلا أدرى كيف أرد عليه) .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أناسا لقونى بمصر فقالوا : إنا نرى أشياء فى كتاب الله

أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك . . قال : فاجمعهم لى .

قال : فجمعتهم له (قال ابن عون : فى بهو) فأخذ أدناهم رجلا ، فقال : أنشدك الله ، وبحق الإسلام عليك : أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم .

قال : فهل أحصيته فى نفسك؟يعنى هل استقصيت العمل به فى تصحيح نيتك وتطهير قلبك،ومحاسبة نفسك ؟ فقال : لا . (ولو قال نعم لخصمه) أى لأفحمه وألزمه الحجة.

قال : فهل أحصيته فى بصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك (أى كلامك) فهل أحصيته فى أثرك (أى خطواتك ومشيك) .

ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم : (يعنى وهو يسألهم : هل استقصيتم العمل بكتاب الله كله فى أنفسكم وجوارحكم وأقوالكم وأفعالكم ، وحركاتكم وسكناتكم ، وهم بالطبع يجيبون : (اللهم لا) فقال : ثكلت عمر أمه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ (أى بالصورة التى تفهمونها أنتم ، ولم تقيموها فى أنفسكم باعترافكم) .

قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات . . . وتلا ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ .

ثم قال : هل علم أهل المدينة ــ أو قال : هل علم أحد بما قدمتم ؟ قالوا : لا ، قال: لو علموا لوعظت بكم (أى لجعلتكم عظة ونكالا لغيركم) . وبهذا الفقه العمرى الداعى لكتاب الله ، حسم أمير المؤمنين هذه القضية فى بدايتها ، وسد بابا للتشدد والتنطع لو كان تساهل فيه لربما هبت منه رياح فتنة لا يعلم إلا الله تعالى عواقبها »[1] ولك أن تسأل بعد ذلك كيف إذن تتصدى للمنكر؟

● شروط التصدى للمنكر : (أى متى تتصدى للمنكر ؟)

أولا: لابد أن يكون منكرا وهو ما كان محظور الوقوع فى الشرع ولفظ منكر أعم من لفظ المعصية ، فلا يختص المنكر بالكبائر ، فالخلوة بالأجنبية والنظر إلى المحرمات كل ذلك من الصغائر ويجب النهى عنها .

ثانيا : أن يكون المنكر ظاهرا بغير تجسس،فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لا يجوز الدخول عليه بغير إذن لتعرف المعصية ولا يتجسس عليه ، وقد نهى الله تعالى عن التجسس فقال : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وكذلك لو رؤى فاسق وتحت ذيله شىء لم يجز أن يكشف عنه.

ثالثا : أن يكون منكرا معلوما بغير اجتهاد ، فكل ما هو محل اجتهاد فلا نكران فيه ،

---

(١) القصة من رسالة صحوة الشباب للقرضاوى ص٤١ وذكرها ابن كثير فى تفسيره الآية ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ من سورة النساء .

فليس للحنفى أن ينكر على الشافعى ما هو من مجارى الاجتهاد ـ أى المسائل المختلف فيها بين الأئمة ـ إذ لا يعلم خطأ المخالف قطعا بل ظنا ، فلابد أن يكون المنكر متفقا عليه ، وكذا إنما ينكر على الفرق المبتدعة فى خطئهم المعلوم على القطع بخلاف الخطأ فى نطاق الاجتهاد ، كهيئات الصلاة ، والقنوت ، وقراءة القرآن فى المسجد ، والأذانين ، والشرب وقوفا ، والتبول وقوفا، والنقاب أم الحجاب ، كل هذه المسائل ليس فيها أمر بمعروف ولا نهى عن منكر لأنها خلافية .

وتعال واسمع ما قاله ابن القيم : إذ جعل إنكار المنكر أربع درجات ، فأنت حين تفكر فى التصدى للمنكر وإنكاره تحدث إحدى الاحتمالات الأربعة الآتية :

الأولى : أن يزول ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل وإن لم يزل بجملته .

الثالثة : أن يخلف ما هو مثله .

رابعا : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأولى والثانية مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد إما أن تزيله وإما أن تتركه ، والرابعة : محرمة أى إنك إن فكرت فى إزالة المنكر فى هذه الحالة تكون آثما

وعلى هذا فإن رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون الشطرنج كان إنكارهم عليهم من عدم الفقه والبصيرة ، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله ، وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب وسماع فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد وإلا كان تركهم على ذلك خيرا من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك ، فكان ما هم فيه شاغلا لهم عن ذلك (١) .

« ولقد ذكر ابن القيم أن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية مرّ فى زمانه على جماعة من جنود التتار قد استغرقوا فى شرب الخمر ، فأنكر عليهم بعض أصحابه فما كان منه إلا أن قال لهم : دعوهم فى سكرهم ولهوهم فإنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ،وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل الأنفس وسفك الدماء .

وهذا يتمشى مع قاعدة مقررة وهى : السكوت على منكر ما ،مخافة منكر أكبر ارتكابا لأخف الضررين وأهون الشرين » (٢) .

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم .

(٢) مقالة حوار د . القرضاوى الاجتهاد والتجديد ـ مجلة الأمة العدد الخامس والأربعون السنة الرابعة ١٤٠٤

أى فقه للدعوة هذا ؟ ذلك لأن النبى ﷺ حين علم أمته إيجاب إنكار المنكر ؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله وسوله فإنه لا يَسُوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله .

وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ فى قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : لا ما أقاموا الصلاة ، وقال: من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعته (١) .

ومن تأمل ما جرى على الإسلام من الفتن الكبار والصغار رآها فى إضاعته هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات، حانات الخمر، وبيوت الدعارة، وستون وثلاثمائة صنم فى جوف الكعبة، والنساء يطفن عرايا، فما امتدت يده إلى صنم يحطمه ولا إلى حانة ينسفها ، إنما دعا إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده إلى قواعد إبراهيم، ولكنه لم يفعل مع قدرته على ذلك خشية وقوع ما هو أعظم منه وعدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثى عهد بكفر .

ومن هذا الباب أيضا أنه ﷺ « نهى أن تقطع الأيدى فى الغزو » فهذا حد من حدود الله تعالى ، وقد نهى عن إقامته فى الغزو خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله من تعطيله أو تأخيره من لحوق صاحبه بالمشركين حمية أو غضبا كما قال عمر وأبو الدرداء وحذيفة رضوان الله على الجميع .

وقد نص أحمد وإسحاق بن راهويه والأوزاعى وغيرهم من علماء الإسلام : على أن الحدود لا تقام فى أرض العدو، ولذلك لما أتى بشر بن أرطأة برجل من الغزاة قد سرق مجنة ، فقال : لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تقطع الأيدى فى الغزو » (٢) لقطعت يدك .

وكتب عمر إلى الناس أن لا يجلدن أمير جيش ولا سرية ولا رجل من المسلمين حدا وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلا لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار ، وعن أبى الدرداء مثل ذلك .

وقال علقمة : كنا فى جيش فى أرض الروم ومعنا حذيفة بن اليمان، وعلينا الوليد بن عتبة ، فشرب الخمر ، فأردنا أن نحده فقال حذيفة : أتحدّون أميركم وقد دنوتم من عدوكم فيطمعوا فيكم .

---

(١) من الذى يغير المنكر وكيف ؟ للدكتور محمود محمد عمارة ص ٧ . (٢) رواه أبو داود .

ولذلك قعّد ابن القيم قاعدة : « تأخير الحد لعارض أمرٌ وردت به الشريعة كما يؤخر عن الحامل والمرضع ، وعن وقت الحر والبرد والمرض فهذا تأخير لمصلحة المحدود فتأخيره لمصلحة الإسلام أولى والأمثلة التى تبين أن العبرة ليست بظاهر النص إنما بإعماله بفقه كثيرة وهذا هو نهج السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان وهاك قاعدة أخرى فقهنى الله وإياك .

● لا يجوز الإتيان بفعل يكون وسيلة إلى حرام وإن كان هذا الفعل جائزا :

فلقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين فى مكة عن الانتصار باليد وأمرهم بالعفو والصفح لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء واحتمال الضيم ، ومصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحة على مصلحة الانتصار والمقاتلة .

كذلك كفّ ﷺ عن قتل المنافقين مع كونه مصلحة لئلا يكون ذريعة إلى تنفير الناس عنه وقولهم إن محمدا ﷺ يقتل أصحابه ، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل .

ولقد نهى المولى المؤمنين أن يسبوا آلهة الكافرين مع كون السب غيظا وحمية لله وإهانة آلهتهم ، فقال : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . لكون ذلك ذريعة إلى سبهم الله تعالى ، فكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سب آلهتهم ، وهذا تصريح بالمنع من الجائز لئلا يكون سببا فى فعل ما لا يجوز .

بل أكثر من هذا فإن الله أمر موسى وهارون أن يلينا لفرعون القول وهو أعظم أعداء الله وأشدهم كفرا ، وأعتاهم عليه ، وذلك لئلا يكون إغلاظ القول له مع أنه حقيق به ذريعة إلى تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة ، فقال : ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه : ٤٣ ، ٤٤] فنهاهما عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره إليه تعالى .

ومن هذا الباب منع المولى سبحانه للرسول ﷺ من الجهر بالقرآن فى مكة حيث كان المشركون يسمعون فربما يسبون القرآن ، ومن أنزله ومن جاء به ومن أنزل عليه . . .

وأزيدك قاعدة :

● جواز تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة الخفيفة :

حدثنا إسماعيل بن أبى أويس بسنده عن عبد الله بن عباس قال : أقبلت راكبا على حمار أتان (الأنثى) ، وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام ـ ورسول الله ﷺ يصلى بمنى إلى

غير جدار ، فمررت بين يدى بعض الصف ، وأرسلت الأتان يرتع فدخلت فى الصف ، فلم يُنكر ذلك علىّ » (١) .

قال الشارح: مرور ابن عباس فيه جواز تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة الخفيفة لأن المرور مفسدة خفيفة ، والدخول فى الصلاة مصلحة راجحة .

واستدل ابن عباس على الجواز بعدم الإنكار لانتفاء الموانع إذ ذاك ، ولا يقال منع من الإنكار اشتغالهم بالصلاة لأنه نفى الإنكار ـ يقصد ابن عباس ـ مطلقا فتناول ما بعد الصلاة ، وأيضا لأن الإنكار يمكن أن يكون بالإشارة ، وهذا لم يحدث .

وتدبر هذا الموقف الذى حدث من صحابى جليل هو عبد الله بن مسعود وهو يشاهد منكرا عظيما وجرما كبيرا ـ هو إيذاء رسول الله ﷺ من عتاة المشركين ، فما استطاع أن يغير هذا المنكر لا بالقول ولا بالفعل فاسمع إليه :

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبى ﷺ كان يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجىء بسلى جزور بنى فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فجاء به ، فنظر حتى إذا سجد النبى ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغنى شيئا لو كانت لى منعة . قال : فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض ، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فطرحت عن ظهره ، فرفع رأسه ثم قال : « اللهم عليك بقريش » ثلاث مرات ، فشق عليهم إذ دعا عليهم ، قال : وكانوا يرون أن الدعوة فى ذلك البلد مستجابة ، ثم سمى : اللهم عليك بأبى جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط ، وعدّ السابع فلم نحفظه . قال : فوالذى نفسى بيده ، لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى فى القليب ، قليب بدر .

قال الشارح : كف ابن مسعود عن القوم وهو يشاهد مافُعل بالنبى ﷺ فلا هو زجرهم باللسان ولا باليد ولا حتى قام وأزال ما على الرسول ﷺ لكنه صمت لأنه ليس له منعة فما لامه أحد .

● وهذه قاعدة سد الذرائع :

والذريعة هى الوسيلة فإذا كانت موصلة إلى مفسدة كانت حراما ، وإذا أفضت إلى الحلال كانت حلالا ، فالنظر إلى أجنبية حرام لأنه وسيلة إلى الزنا الحرام . والسعى إلى البيت الحرام يفضى إلى الحج وتكون الوسيلة واجبة .

---

(١) البخارى ج ١ ص ١٧١ باب متى يصح سماع الصغير ؟

يقول الإمام القرافى : واعلم أن الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها وتكره وتندب وتباح .

ومن الذرائع مالا يختلف فيها سواء فى سدها أو فتحها : كحفر الآبار فى طريق المسلمين لأنه وسيلة إلى هلاكهم ، وسب الأصنام عند من يعلم من حاله أنه يسب الله تعالى . فهذه يجب سدها .

أما التى يختلف فيها مثل أن يحكم القاضى بعلمه بين الخصوم ، وليس بما يتوفر إليه من الأدلة ، فاختلفوا هل يحرم القضاء بالعلم من القضاة السوء لأنه وسيلة إلى الحكم بالباطل منهم أو لا يحرم .

ولذلك وجب على الداعى معرفة شروط وأقسام الذرائع المتفق عليها والمختلف فيها .

● خلاصة القول :

هناك كثير من الأحكام التى تتغير بتغير الأزمان وكثير من الظروف تؤثر فى طبيعة الفتوى . ومن ثم قال فقهاؤنا : « الفتوى تقدر زمانا ومكانا وشخصا » .

ولقد رأينا إماما جليلا كالإمام الشافعى ـ رضوان الله عليه ـ حين كان فى العراق أنشأ مذهبا فقهيا ، فلما ذهب إلى مصر أنشأ مذهبا آخر ،وأصبحنا نسمع عن رأيه فى المسألة قديما وحديثا : أى حين كان فى العراق ولما أصبح فى مصر ، فالإمام واحد والفُتيا اختلفت باختلاف الزمان والمكان والأشخاص .

ونحن فى مجتمع الآن وفى عصر له خصائصه وطبيعته ومواصفاته وتعقيداته ، فضلا عن أن المسلمين أنفسهم تفرقوا واختلفوا ، وضعف الإسلام فى نفوس كثير من أتباعه ومن ثم كانت قضية الدعوة إلى الإسلام لابد أن تخضع لأحكام الفقه وأصوله حتى يضبط السير إلى الله بالقواعد والأصول وليس بالهوى والظن .

وأنت تلاحظ فى زماننا هذا من أحيا كليات الإسلام وجزئياته لأن الإسلام عنده كل متكامل فهو لا يفرط فى كلية ولا يتهاون فى جزئية فكل من عند الله .

بينما تجد من يؤمنون بالكليات ويهملون الجزئيات وربما إذا عرضت عليهم أنكروها . وفرق كبير بين أن تبدأ بالكليات ثم تردفها بالجزئيات ، وبين إهمال الجزئيات أو إنكارها ، ولنا فى قاعدة تأخير البيان عن وقت الحاجة مندوحة ، مع مراعاة أنه لا يجوز تأخيره إلا لظروف وقتية يراها الداعى .

وبعض الناس يغرقون فى فروع المسائل العملية ،وتغيب عنهم الكليات الكبرى فى هذا

الدين . فسقوط الخلافة لا يشعرون به ، وعدم تحكيم الشريعة لا يشغل بالهم ، وسفك دماء المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لا يعنيهم . فتراهم مشغولين بحكم دم البرغوث، ولا يشغلهم دماء المسلمين تسيل .

لذلك كان لابد من إحياء المفاهيم الكبرى والبديهيات العظمى وفى نفس الوقت لا نهمل الجزئيات ، بل يجب التعرف على المسائل الفرعية ، ولكن نبين ما هو أصل لا يسع الاختلاف فيه ، وما هو فرع يمكن الاختلاف فيه ، وحدود هذا الاختلاف ومتى يجوز والأدب الجامع فى كل مسألة وفى كل مقام .

وهكذا فإن المسلم المتفقه فى دينه يعلم أن مجموع ما قاله الأئمة المجتهدون مما استنبطوه من الكتاب والسنة ، وما يمكن أن يستنبط على أصولهم من أحكام إلى قيام الساعة يعتبر من الشريعة الإسلامية ، فهو جزء منا ،ومجموع الأقوال فى المسألة الواحدة عندهم يضع أمام المسلم خيارات كثيرة وبذلك لا نختلف فى الآراء المتعددة للأئمة على سبيل المثال : قضية القنوت . هل هو بعد الوتر ؟ أم بعد الفجر ؟ أو فى رمضان ؟ أم فى النوازل ؟ وقس على ذلك الأمور المختلف فيها جميعا . فمن رحمة الله على الأمة المسلمة هذا الخلاف الذى يسع الزمان والمكان والأشخاص .

لو أخذ الداعى بحكم من الأحكام المختلف فيها ، واختار رأيا يجذب به الآخرين إلى الإسلام تيسيرا لهم ، طالما أن هذا الحكم لا يتعارض مع شريعتنا ولا يعطلها ، فهذا من فقه الدعوة، وكم من أمور فقهية الداعى فى حاجة لفهمها والعمل بها ، فهل فقه الداعى ما فعله رسول الله ﷺ يوم فتح مكة حين ترك البيت الحرام على ما هو عليه كما أخبرتنا بقوله ﷺ عائشة رضوان الله عليها : « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ، لهدمت البيت وبنيته على قواعد إبراهيم » .

بهذه القواعد الأصولية يستطيع الداعى أن يتصرف حسب الموقف الذى يقابله بما عنده من فقه فيختار الرأى السائغ شرعا إذا كان محققا لأهداف كبرى ، ومكافئا لأسلحة الخصوم حتى لا يترك لهم منفذا ، وحتى يتحلى بسعة الصدر ودقة الفهم طالما أن أهدافه إسلامية ، ووسائله إسلامية ، وخطته إسلامية ، ومناهجه إسلامية ، وقواعده إسلامية .

هذا هو الفهم السليم الذى نتعلمه من فقهاء الأمة وعلمائها . نعم قد تتغير بعض الأحكام بتغير الأزمان ولكن هذا التغير ليس على إطلاقه أو كما يتصور من لافقه عنده أن هذا مداهنة وممالأة وكيف يكون كذلك طالما أن هذا التغير محكوم بقواعد التغيير على ضوء الأصول الإسلامية نفسها .

● الفقه ومرونة الحركة :

إن فهم قضية الدعوة بهذه الدقة المطلوبة يعطى لها مرونة فى الحركة فلا يجمد الداعى على تصور للحركة بعينها ، ولا فهم للدعوة مبتوت عن مقاصد الشريعة السمحاء ، فلا نرى من يحرم بل ويجرّم الدخول إلى مجلس الشعب ، ولا ندرى أى فهم هذا ؟ ورسول الله ﷺ يجالس المشركين قبل الرسالة فى دار ابن جدعان ويوافقهم فيما ذهبوا إليه فى هذا العهد « نصرة المظلوم » وحتى لا يقول قائل : إن هذا كان قبل الإسلام ، فإن رسول الله ﷺ يقطع عليه الطريق ليتضح الفهم السليم لكل ذى عينين فيقول ﷺ : « دعيت فى دار ابن جدعان لحلف لو دعيت له فى الإسلام لأجبت » أو كما قال ﷺ فما بالك بمجلس فى دولة مسلمة ، وجل أعضاء المجلس مسلمون يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، بل فيهم من يصلى ويصوم ويزكى وحج البيت الحرام ، فكيف لنا حين تتاح للمسلمين فرصة يصححون فيها المفاهيم ، ويكسبون الأتباع ، ويبينون الحلال من الحرام ، ويطالبون بتطبيق شرع الله ، ثم يسمعون ما يسمعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فاللهم فقهنا فى ديننا .

إن الداعى فى حاجة إلى : فهم للدعوة دقيق .

وجودة لأساليبها .

وتربية للأتباع عليها .

وأى فشل فى واحدة من هذه الثلاث يشكل خطرا فى العمل الإسلامى فضلا عن اعتباره قصورا هائلا فى الدعوة إلى الله .

إن فهم هذه الأمور يجعل الداعى حين يبدأ مع المدعو ، لابد له من أن يتعرف أول ما يتعرف على عقليته ليخاطبه على قدرها ، فلا يعقل أن تخاطب المسلم الذى ضلله الغزو الفكرى كالكافر الأصيل ، ولا يصح أن تخاطب المسلم الغافل كالمسلم المتصوف صوفية منحرفة ، والذى التبست عليه المفاهيم كالعنيد المرائى ، فكل واحد من هؤلاء له نقطة بداية إذا أصابها الداعى فقد وفق إلى خير كثير واستطاع أن يفتح مغاليق القلوب بتوفيق الله له .

لذلك كان فقه الدعوة علما من العلوم التى يجب على الداعى دراستها ، والاهتمام بها ، والمضحك المبكى أن نسمع بعض الناس يجعلون هذا العلم من البدع ، وليتهم استحسنوا هذه البدعة لأنها تيسر للداعى أمرا من أخطر الأمور الا وهى الدعوة إلى الله مهمة الرسل الكرام .

ولا ندرى لِمَ لم يسألوا أنفسهم : هل تسمية علم من العلوم تيسيرا على المسلمين

لفهم الدين بدعة ؟ بصرف النظر عن نوعها سواء كانت بدعة تركية أو إضافية، وهل الحكم واحد فى الحالتين ؟ . . . وماذا نقول عن علم أصول الدين ؟ وأصول الفقه ؟ أليس الإمام الشافعى أول من كتب كتابه « الرسالة » التى أصبحت مرجعا فى علم أصول الفقه ؟ فماذا نقول عن هذا العلم هل هو أيضا بدعة ؟

إن المسلمين الأوائل كانت اللغة عندهم سليقة ، كما أن الإسلام أصبح فهمه لديهم سهلا لوجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ، فضلا عن نزول القرآن نفسه بلسانهم ، فأصبح الإسلام لا يحتاج إلى مَنْ يقسمه لهم إلى : شعائر ، وشرائع ، وأخلاق ، ومعاملات ، ولا من يقسمه إلى : توحيد ، ومصطلح حديث ، وفقه ، أو إلى سيرة وتاريخ ، ولا إلى أصول الدين وفروعه . حتى خلف من بعدهم خلف أصبح لسانهم أعجميا وثقافتهم غربية . فهل إذا وفق الله عالما من العلماء فنحت علما يسر به فهم الإسلام للمسلمين ، أو أعان الدعاة إلى الله فى ضبط السلوك والتصور والحركة ليستبين لهم سبيل المؤمنين ؛ وليعلموا أن الإسلام دعوة وداعية ؛ دعوة هي القرآن ، وداعية هو رسول الله ﷺ . فإذا بين لهم أصول الدعوة لابد أن يبين لهم فقه الداعية . فهل يكون ذلك من البدع ؟ فو الله لو كانت كذلك لكانت بدعة حسنة ، لصاحبها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

إن الذين يعيشون الإسلام على أنه دين الجماعة ، وليس أمرا تعبديا يتمثل فى صلاة وزكاة وحج وصيام فحسب ، هم الذين يعرفون معنى العلاقات التى تحكم الأفراد وكيف أن الدعوة إلى دين الجماعة تحتاج إلى فقه فى الدعوة دقيق ، والدارس لحياة رسول الله ﷺ يتعلم كيف كان الداعى الأول يتعامل مع هذه الجماعة ، ويأخذ بأيدى أفرادها إلى معالى السلوك ، فما أحوج الدعاة إلى الله فى زماننا هذا أن يفقهوه ليقولوا بحق : ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ أرأيت إلى فقه الدعوة كيف يكون ؟

ليس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودعوة الناس إلى شرع الله خبط عشواء أو (فهلوه) فى السلوك كما يظن كثير من الشباب ، ولكنه سلوك تضبطه قواعد وتوجيه يوزن بميزان الفقه وأصوله ، ودعوتنا والحمد لله ليست جامدة كما رأيت ــ لا فى شريعتها ولا فى أسلوب الدعوة إليها ، فعطاء هذه الشريعة متجدد على مدى الزمان والأيام فلقد أتت بقواعد تشريعية مستنبطة من استقراء النصوص وأسباب النزول ، ووقائع الأحداث ، ولذلك فإن مقاصد الشريعة يجب على الداعى فهمها ومراعاتها فى كل ما يدعو إليه لأن الأمور بمقاصدها ، ولذلك سأسوق إليك بعض هذه القواعد التى يستعين بها الداعى حين

يدعو ليكون على بصيرة .

● بعض القواعد الشرعية التى يجب مراعاتها :

١ ــ اليقين لا يزول بالشك .

٢ ــ لا ضرر ولا ضرار .

أ ــ الضرر يدفع بقدر الإمكان .

ب ــ الضرر يزال .

جـ ــ الضرر لا يزال بمثله .

د ــ الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف .

هـ ــ نختار أهون الشرين .

٣ ــ إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما .

٤ ــ يُتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام .

٥ ــ درء المفاسد أولى من جلب المنافع .

٦ ــ ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها .

٧ ــ الضرورات تبيح المحظورات .

٨ ــ المشقة تجلب التيسير .

وهكذا فإن الداعى لابد له من فقه قبل الأمر والنهى ،ورفق معه ، وصبر بعده ، ليحقق قول ربه: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن. . . ﴾ .

وأخيرا فإننا بعد أن عرفنا بعض قواعد وأصول الفقه [كقاعدة المصلحة والمقاصد ــ وترتيب الأدلة ــ ومراتب الأحكام ــ والأمر والنهى] مما لا يستغنى عنها الداعى وهو يسير فى طريق الدعوة ليكون على وعى وفقه بالأصول والقواعد الشرعية حتى لا يتبع الهوى أو الظن بل يلتزم بالمنهج وقواعده وأصوله .

لذا فقد رأيت أن أضع ــ بتوفيق الله وحده ــ بين يديك بعض القواعد وإن شئت فسمها وصايا عشر تستأنس بها فى طريق دعوتك ، وتسترشد بها وأنت تدعو الناس ، وأسأل الله أن ينفعك بها .

الفصل الرابع

قواعد مستنبطة من الأصول ترشد الداعى

- ـ القدوة قبل الدعوة .
- ـ التأليف قبل التعريف .
- ـ التعريف قبل التكليف .
- ـ التدرج فى التكاليف .
- ـ التيسير لا التعسير .
- ـ الأصول قبل الفروع .
- ـ الترغيب قبل الترهيب .
- ـ التفهيم لا التلقين .
- ـ التربية لا التعرية .
- ـ تلميذ إمام لا تلميذ كتاب .

★ ★ ★

أولا : القدوة قبل الدعوة

• النموذج البشرى القدوة :

المسلمون بلا دعاة جهال تتخطفهم شياطين الإنس والجن من كل حدب وصوب ، وتعصف بهم الضلالات والأهواء من كل جانب .

من هنا كان الدعاة إلى الله مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ،وحجة الله فى أرضه ، بهم تمحق الضلالة من الأفكار ، وتنقشع غيوم الشك من القلوب والنفوس ،فهم غيظ الشيطان وركيزة الإيمان ، وقوام الأمة ، فهم أمناء على دين الله ، يدعون الناس إليه بلسان صادق ، وجنان ثابت ، وخلق كريم ، أعمالهم ترجمان لدعوتهم ، فهم الأسوة فى القول والعمل ، فيصلحون ما فسد ، ويقوّمون ما اعوجّ ، لا يستخفون من الناس ولا يخشون أحدا إلا الله ، ولا يقولون إلا حسنا ، شعارهم أصلح نفسك وادع غيرك ، وأقم دولة الإسلام فى قلبك ؛ لأن شخصية الداعى لها نصيب كبير فى نجاح دعوته ، وتأثير رسالته.

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حين يريد إقامة حجته على خلقه ،يخلق منهم رجلا، يصنع على عينه،صناعة ليس لصاحبها يد فيها ثم يبعثه للناس رسولا فى عصر الرسالات، أو إماما يهدى بأمره بعد عصر النبوات،فالعلماء ورثة الأنبياء كما صح فى الخبر ، وحسبهم بذلك شرفا لهم ،يرى الناس فيهم ما يدعون إليه بالحال قبل المقال،ذلك لأن الناس لا تستطيع أن تفرق بين الدعوة والداعية لأنه لا انفكاك للرسول عن الرسالة،وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر؛لأن الإسلام دعوة وداعية ،فالدعوة من الرسل كالروح من الجسد بينهما تلازم لا ينفك [1] ، ولقد أراد المولى سبحانه أن يكون النموذج بشرا من الناس يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ويعلمهم الكتاب والحكمة ويكون القدوة فى السلوك والعبادة والمعاملات والعادات ، وقد مضت سنة الله فى خلقه أن يرسل لكل صنف من مخلوقاته رسولا منهم . لهذا وجب على الداعى أن يدرس سيرة الرسول ﷺ إذ إن سيرته تحكى لنا شخصية إنسان كرمه الله بالرسالة فكان أسوة حسنة للمؤمنين بل قدوة نموذجية للإنسان فى حياته الشخصية والاجتماعية ، إنه المثل الأعلى للإنسان الكامل ،بل ولكل من أراد أن يعيش سعيدا كريما فى نفسه وأسرته وبيئته .

إنه القدوة لجميع النواحى الإنسانية فى المجتمع، فهو الأسوة الحسنة لكل داع ، وكل

---

(١) إلام ندعو وكيف ، الشيخ محمد سلامة جبر ص ٢٤٨ بتصرف .

قائد ، وكل أب ، وكل زوج ، وكل صديق ، وكل مربى ،وكل سياسى وكل رئيس دولة، يروى لنا العباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله خلق الخلق، فجعلنى من خيرهم ، من خير فرقهم ، وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلنى من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم،وأنا خيرهم نفسا،وخيرهم بيتا [1]، فهو القدوة بين الناس نسبا وكان خلقه القرآن فكان القدوة بين الناس خلقا .

كان ﷺ العابد المتحنث ، ورجل السياسة الذى شيد أمة من الفتات المتناثر ، ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش ، وأب حنون عطوف ، وزوج تحققت فيه المودة والرحمة والسكن ، وصديق رحيم ، وقريب كريم ، وجار تشغله هموم جيرانه ، وحاكم تملأ نفسه مشاعر محكوميه ؛ يعودهم ويزورهم ويعينهم ، ويمنحهم من مودته وعطفه ما يجعلهم يفتدونه بأنفسهم ، ومع هذا كله فهو قائم على أعظم دعوة شهدتها الأرض ، الدعوة التى حققت للإنسان وجوده الكامل ، وتغلغلت فى كيانه كله ، ورأى الناس الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه تتمثل فيه هذه الصفات السابقة كلها ، فصدقوا هذه المبادئ الحية لأنهم يرونها رأى العين ، لا يقرءونها فى كتاب فحسب ، بل يرونها فى بشر ، فتتحرك لها نفوسهم ، وتهفو لها مشاعرهم ، ويحاولون أن يقتبسوا قبسات من الرسول ﷺ ، كلٌ بقدر ما يطيق فكان ﷺ أكبر قدوة للبشرية فى تاريخها الطويل ، وكان مربيا وهاديا بسلوكه الشخصى قبل أن يكون بالكلم الطيب الذى ينطق به ، سواء فى ذلك القرآن المنزل أو حديثه ﷺ ، وهذه القدوة باقية ما بقيت السماوات والأرض .

● قدوة يحتذى بها :

إن الإسلام يعرض هذه القدوة ليس للإعجاب السالب ، ولا التأمل التجريدى فى سبحات الخيال ، إنه يعرضها عليهم ليحققوها فى ذوات أنفسهم ، كل بقدر ما يستطيع ؛ لأن الإسلام يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية ،فيقيم تربيته الدائمة على هذا الأساس [2].

● القدوة أولا :

فلابد للطفل من قدوة فى أسرته ووالديه لكى يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية وينهج على نهجها الرفيع ، لابد للناس من قدوة فى مجتمعهم يطبعهم بطابع الإسلام وتقاليده النظيفة لكى يحملوا أمانة لمن يربونهم من الأجيال ، ولابد للمجتمع من قدوة فى قواده وزعمائه وحكامه تتحقق فى أشخاصهم المبادئ ، وينسج على منوالهم المحكومين .

فما قيمة دعوة مترف إلى التقشف ، وماذا تجدى دعوة ظالم لإنصاف المظلومين ، بل

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح .

(٢) منهج التربية الإسلامية للأستاذ سيد قطب فصل التربية بالقدوة ص ٢٢١ بتصرف .

وما قيمة دعوة كاذب إلى الصدق ودعوة منحرف إلى الاستقامة ، إنها دعوات لا تجدى بل تترك أثرا سيئا فى نفوس المدعوين. فهل تتصور والدا كذوبا ينشئ أولاده على الصدق، أو أما مستهترة تربى بناتها على الفضيلة والعفاف أو ابنا عاقا أو قاس يدعو الناس إلى الرحمة، إن فاقد الشيء لا يعطيه .

● ابدأ بنفسك :

كانى برسول الله ﷺ يحدد لصحابته معالم الشخصية القدوة ، وما ينبغى للمسلم أن يكون عليه قبل أن يدعو الناس لدين الله ، وذلك فى حديث معاذ الذى يجمع بين تقوى الله ،ومحاسن الأخلاق والذى يقول فيه : أوصانى رسول الله ﷺ فقال : يا معاذ أوصيك بتقوى الله ، وصدق الحديث والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ،وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ، والتفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب وخفض الجناح ، وأنهاك أن تسب حكيما أو تكذب صادقا أو تطيع آثما ، أو تعصى إماما عادلا ، أو تفسد أرضا ، وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية (١) .

فبالله عليك ، شخصية هذه سماتها وتلك أخلاقها . كيف يكون تأثيرها فيمن حولها ، صدقت يا عمر حين قلت : « إن لله رجالا أحيوا الحق بذكره، وأماتوا الباطل بهجره » فالمؤمن الصادق يجب أن يبدأ بنفسه قبل أن يدعو غيره ، ذلك أنه من السهل جدا أن يُدَّعى الدين ، ولكن من الصعب أن يطبق على النفس وأن يكون صاحب الدعوة قدوة سلوكية يراها الناس .

يستطيع الإنسان أن يكون عالما جهبذا فى الكيمياء أو العلوم أو الطب أو الهندسة أو غير ذلك من العلوم التى أمرنا الله بتعلمها لتعمر الدنيا ، ولكن هذه العلوم لا تتطلب منا قيدا سلوكيا ، فقد تكون عالما فى أى فرع من هذه الفروع وسلوكك تبعا لهواك ولكن هذا لا يفسد الحقيقة أنك عالم بارع فى علمك ؛ لأن النبوغ لا يضع قيدا على الأخلاق . إلا علم الدين ، فإنك إن كنت من علمائه أو الداعين إليه أو من المتدينين المخلصين لابد أن تكون قدوة حسنة لما تدعو إليه ، وإلا ما استمع إليك أحد ،ولو كنت أكثر الناس اطلاعا وعلما وقراءة فى دين الله ، ولن يستفاد بعلمك هذا بل ولن ينظر إليك نظرة الاحترام الجديرة بك إلا إذا كان سلوكك وفقا لقواعد الدين وتبعا لما أمر الله به .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد .

ولعل لله سبحانه وتعالى حكمة فى ذلك هى ألا يأخذ الناس علمهم عن الدين إلا من المؤمنين حقا الذين يطبقون المنهج على أنفسهم أولا قبل أن يطالبوا بتطبيقه على غيرهم وبذلك يكون الإيمان نابعا من القلب وليس مجرد قضية يرددها اللسان أو تجارة يمضى بها الإنسان بين الناس .

فالدين الحقيقى لا ينتشر ولا يزدهر إلا بالقدوة أولا ، القدوة السلوكية ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى وضع امتحانا للدين فى قلوب الناس ، وهذا الامتحان هو نعيم الدنيا وزخرفها .

فقد يكون الإنسان مخلصا فى دعوته ، فإذا أقبلت عليه الدنيا لتعطيه مال إلى الدنيا وترك الدين ، ولقد كان هناك لفتة من حياة رسول الله ﷺ حين عرضت عليه قريش المال والحكم ، وكل نعيم الدنيا فى أول الدعوة ، ولو أن الرسول ﷺ كان يقصد بدعوته الدنيا لوافق على كل المغريات التى عرضت عليه ، ولكنه رفض ﷺ بلا تردد ودون لحظة تفكير ، وكانت حياة رسولنا ﷺ فى أول الإسلام هى نفس الحياة التى عاش بها بعد أن انتشر وأصبح له دولة ، لم يملأ بيته بفاخر الطعام ولا بنى قصرا ليسكن فيه ، ولكنه ظل يعيش فى نفس البيت المتواضع ، وفى أيام كثيرة لا يكون عنده طعام يكفيه

● رجل القول ورجل العمل

ومن الجدير بالذكر أن الإسلام انتشر فى الهند وغيرها عن طريق التجار لا العلماء بما رأوا فيهم من الأسوة والقدوة السلوكية أمانة وصدقا .

إنك إن أردت أن تعرف أى دعوة من المبدأ ، هل هذا المبدأ ينبع عن عقيدة وإخلاص أم عن زيف وخداع لا تنظر إليه فى أوله حين يكون الذين يقومون به لا يملكون شيئا بل انظر إليه بعد أن ينتصر ويملك أسباب الدنيا ، تجد أن انحرافا لابد أن يحدث ، وأن ما نادى به أصحاب هذا المبدأ كان عندما كانوا لا يملكون شيئا ولما أقبلت الدنيا عليهم وجدوا أن هذا المبدأ يقيد شهواتهم وأهواءهم فهدموه .

وهذا يحدث فى جميع الثورات والانقلابات فى العالم ،التى يدعى أصحابها أنهم يريدون الإصلاح بمنهج بشرى ، لذلك تجد بعد فترة اتهامات بأن هؤلاء الناس قد انحرفوا عن مبادئهم ،وأنه لابد من تصحيح مسار الثورة لماذا ؟ لأنها كانت من أجل الدنيا،من أجل الوصول إلى الحكم وليست من أجل الإصلاح ولا من أجل إقامة شرع الله فى الأرض.

أما إذا تحدث الداعى فإنه يتحدث عن منهج الله الذى رسمه سبحانه وتعالى للحياة فى الأرض ،وهو المنهج الذى لن يصلح الكون إلا إذا تم تطبيقه ، ولا يطبق إلا إذا وُجِدَ من

آمن به وعمل بمنهاجه . لذلك كان رسول الله ﷺ كان القدوة فى القول والفعل (١) .

ولتستشعر خطورة الدعوة بالكلمة المعسولة التى ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب اسمع إلى ما قاله هذا السائح المسلم فى ديار الأندلس .

يقول : « إن الدليل الذى قادنى بين آثار الحمراء تناول المسلمين بالكلمة الحاسمة لقد قامت لهم دولة هنا لما كانوا لله خلائف ، ثم طردوا من هذه الديار لما أصبحوا على ثراها طوائف »(٢) وصدق الله ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء . . . ﴾ ، ورضوان الله على شهيد الإسلام حسن البنا حين نبّه أتباع دعوته لهذا المعنى فقال: إن رجل القول غير رجل العمل ، ورجل العمل غير رجل الجهاد، ورجل الجهاد فقط غير رجل الجهاد المنتج الحكيم الذى يؤدى إلى أعظم الربح بأقل التضحيات ، إن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ، ولكن القليل من هذا الكثير يثبتون عند العمل ،وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا ، ولكن القليل منهم يقدرون على حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل العنيف ، وهؤلاء المجاهدون هم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله .

وفى قصة طالوت بيان لما أقول : فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختيار الدقيق ، وامتحنوها بالعمل القوى البغيض لديها الشاق عليها ، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها » (٣) .

إننا كى نحقق الآمال الكبار التى ننشدها فى حاجة إلى أصحاب النفوس العظيمة ذات الإرادة القوية والوفاء الثابت والإيمان الصادق ،والتضحية العزيزة ، ولذلك فإن مسئولية الدعاة تجاه أنفسهم أضخم بكثير من مسئولياتهم تجاه المجتمع . وخطورة التقصير فيما للدعاة على أنفسهم من واجبات يفوق خطورة التقصير فيما للمجتمع عليهم من حقوق ، فالدعاة ينبغى أن يكونوا قدوة حسنة للمجتمع الذى يعيشون فيه ، تبدو فى حياتهم آثار الرسالة التى يدعون الناس إليها . وترسم فى خطاهم ملامح المبادئ التى يحملونها ، وبذلك يحس كل من حولهم ويشعر بالوجود الحركى لهذا الدين وبالتحرك العضوى له ، وفى هذا ما فيه من أثر بالغ فى مجالات الدعوة والتبليغ .

● **تحذير للدعاة :**

ولقد صفع القرآن أولئك الذين يعظون الناس ولا يتعظون ، وينهونهم ولا ينتهون فقال

---

(١) من مقالة للشيخ محمد متولى الشعراوى الأخبار عدد ١٠٨٢٣ السنة الخامسة والثلاثون يناير ١٩٨٧ .

(٢) كتاب علل وأدوية ص٣٧ للشيخ محمد الغزالى . (٣) طريق الدعوة الأستاذ مصطفى مشهور ص ٣٨ .

تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

يقول صاحب الظلال الشهيد سيد قطب فى هذه الآية : « إن آفة رجال الدين حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة جادة دافعة أنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون إلى البر ويهملونه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويأولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق فى ظاهرها مع ظاهر النصوص ، ولكنها تختلف فى حقيقتها عن حقيقة الدين لتبرير أغراض وأهواء من يملكون المال أو السلطان ، كما كان يفعل أحبار يهود .

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه فى سلوك الداعين إليه هى الآفة التى تصيب النفوس بالشك ، لا فى الدعاة وحدهم ، ولكن فى الدعوات ذاتها ، وهى التى تبلبل قلوب الناس وأفكارهم لأنهم يسمعون قولا جميلا ويشهدون فعلا قبيحا ، فتتملكهم الحيرة بين القول والعمل ، وتخبو فى أرواحهم الشعلة التى توقدها العقيدة ، وينطفئ فى قلوبهم النور الذى يشعه الإيمان ، ولا يعودون يثقون فى الدين بعدما فقدوا ثقتهم برجاله .

إن الكلمة لتنبعث ميتة ، وتصل هامدة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة إذا هى لم تنبعث من قلب يؤمن بها ، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقا إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيما واقعيا لما ينطق ، عندئذ يؤمن الناس ، ويثق الناس ، ولو لم يكن فى تلك الكلمة طنين ولا بريق ، إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من زينتها ، وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها ، إنها تستحيل يومئذ حياة لأنها منبثقة من حياة (١) ولا يمكن للداعى أن يكون قدوة وأسوة فيما يقول ، وأن يكون قرآنا يتحرك إلا إذا وثق صلته بالله واستمد منه العون وأصبحت ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ هى منهاجه ونبراسه ، حينئذ يهديه الصراط المستقيم ويعينه على لأواء الطريق ، فيرى فيه الناس صدق ما يقول فيفتح الله به قلوبا غلفا وأعينا عميا وآذانا صما .

وقال الشاعر :

يأيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالرأى منك وينفع التعليم

(١) فى ظلال القرآن ج ١ ص ٦٨ .

وقال أبو العتاهية :

وصفت التُّقى حتى كأنك ذو تقى ... وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقال آخر :

وغير التقى يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوى الناس وهو عليل (١)

فلابد للدعاة أن يترسموا خطى الدعوة فى كل شأن من شئونهم فى أقوالهم وأفعالهم فى حياتهم الخاصة والعامة لا يفرقون بين أحد منها ، فهم صادقون مع أنفسهم كأفراد وفى بيوتهم كأزواج وآباء ، وفى مجتمعاتهم كعمال أو أرباب عمل أو موظفين ، ورضوان الله على على بن أبى طالب حين قال : « من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومهذبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومهذبهم » .

وهل يجنى الذين يقولون مالا يفعلون ويعظون ولا يتعظون ، ويرشدون ولا يسترشدون إلا سخرية العباد وسخط ربهم ، يخسرون دينهم ودنياهم وذلك هو الخسران المبين ، قال الشعبى : « يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار ، وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ،وننهى عن الشر ونفعله » .

ومن هنا كان من واجب الدعاة أن يتشددوا فى الحساب مع أنفسهم ، ويأخذوا ذواتهم بالعزائم حتى تستقيم على طاعة الله عز وجل . روى أن الله تعالى قال لعيسى عليه السلام : «يابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحى منى » (٢) .

● احذر مقت الله :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢، ٣] .

يقول ابن كثير : هذا إنكار على من يعد وعدا ، أو يقول قولا لا يفى به وفى الصحيحين : « آية المنافق ثلاث إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا ائتمن خان » ثم أكد الإنكار عليهم بقوله: ﴿ كبر مقتا عند الله ﴾ أى عظم فعلكم هذا بغضا عند ربكم ﴿ أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ أى أن تقولوا شيئا ثم لا تفعلونه وأن تعدوا بشىء ثم لا توفون به .

---

(١) صفوة التفاسير الشيخ محمد على الصابونى ج ١ ص ٥٦ .

(٢) مشكلات الدعوة والداعين فتحى يكن ص ٧٨ .

قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد أهل المعصية الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فنزلت الآية (١) .

● وقفة مع النفس :

إن أهم سمات الداعى إلى الله الصدق والاستقامة فيكون ظاهره كباطنه وأن يطابق فعله قوله ، وهذه السمة يحرص على إبرازها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعه قال : أتانا رسول الله وأنا صبى فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمى : يا عبد الله تعال أعطك فقال لها رسول الله : وما أردت أن تعطيه؟ فقالت : تمرا فقال : أما إنك لو لم تفعلى كُتبت عليك كذبة ، ولعله استقاء من هذا النبع الطاهر الرائق امتنع الإمام أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ عن الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثا ، حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهمها بطعام وحجره فارغ فتحرج أن يروى عنه وقد كذب على بغلته (٢) .

فعلى الداعى أن يكون صريحا مع نفسه فلا يخادعها ومع الناس فلا يرائيهم ولا ينافقهم وليسمع كل داعية ما يقوله ابن السماك فى هذا المعنى : كم من مذكر بالله ناس لله، وكم من مخوف بالله جرىء على الله ، وكم من مقرب إلى الله بعيد عن الله ، وكم من داع إلى الله فار من الله ،وكم من تال لكتاب الله منسلخ عن آيات الله (٣) ليت الدعاة يعون قول ربنا : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٧].

وصفوة القول فى هذا أن مسئولية الدعاة تجاه المجتمع يجب ألا تشغلهم عن مسئوليتهم تجاه أنفسهم ، وانشغالهم بإصلاح الناس يجب ألا يصرفهم عن إصلاح حالهم ، وواجبهم أن يعطوا المسئولية حقها فى أنفسهم وفى مجتمعهم .

لقد ذم الله اليهود الذين أكرمهم الله بالتوراة فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها وشبههم بالحمار الذى يحمل أسفارا فقال : ﴿ مثل الذين حُملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ... ﴾ .

---

(١) صفوة التفاسير للشيخ الصابونى ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٢) الظلال ج ٣ ص ٣٥٥٣ .

(٣) مشكلات الدعوة والداعية ص ٧٨ .

أى مثل اليهود الذين أعطوا التوراة وكلفوا بالعمل بما فيها ولم يعملوا بها ولم ينتفعوا بهديها وبنورها كمثل الحمار الذى يحمل الكتب النافعة الضخمة ولا يناله منها إلا التعب والعناء .

قال القرطبى : شبههم الله تعالى والتوراة فى أيديهم وهم لا يعملون بها كالحمار يحمل كتبا وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة فهو يتعب فى حملها ولا ينتفع بما فيها وهذه الآية الكريمة فيها تعريض بنا معشر المسلمين إن لم نطبق أحكام القرآن ونعمل بمقتضاه وهو على حد قولهم : « إياك أعنى واسمعى يا جارة » (١) .

● درس للتربية :

وتأمل كيف أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينهى عادة من عادات الجاهلية وهى التبنى فلم يصدر أمرا لينفذه المؤمنون إنما أمر الرسول ﷺ أن يكون القدوة فى ذلك فقال: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ وقال لزينب بنت جحش: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ والثانية لرسول الله ﷺ : ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ حتى يكون القدوة فى التطبيق.

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ يأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . . .﴾ .

واسمع إلى ما أخرجه ابن جرير فى تاريخه عن سالم أن عمر بن الخطاب كان إذا صعد المنبر ينهى الناس عن شىء جمع أهله فقال : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة لمكانه منى .

وهذه وصية الإمام الشافعى أرشد بها مؤدب أولاد هارون الرشيد فقال : « ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاح نفسك فإن أعنَّتهم معقودة بيدك فالحسن عندهم ما استحسنته والقبيح عندهم ما تركته » .

فانظرقوله : القبيح عندهم ما تركته . لم يقل له : القبيح عندهم ما قلت لهم إنه قبيح، بل ما لم تعمل به ولم تقر به » (٢) .

إن توجيهات الداعى الواصلة إليك منه تستقر فى ذاكرتك ومن ثم فهى عرضة للنسيان، أما الداعى نفسه كقدوة طيبة فإنه يظل فى الوجدان ومن أجل ذلك لا يُنسى .

---

(١) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٣٧٩ . (٢) المنطلق محمد الراشد ص ٣٨،٣٧ .

إن من نصب نفسه لوظيفة الهدى ودعوة الناس إلى الخير يجب أن يكون أبعدهم عن التصنع وأحرصهم على الكمال ، فإن أدنى هفوة منه تسقط اعتباره وتسهل التهاون به، فلا يكون لكلامه تأثير فى القلوب ويصير مجلسه مسلاة يتلهى الناس بحضوره .

سئل الإمام أحمد عن الرجل يكثر من كتابة الحديث وطلبه أيسوغ له ذلك ؟ فقال: ينبغى أن يكثر العمل به على قدر زيادته فى الطلب (١) .

إن القدوة الحسنة دعوة عملية وليست دعوة كلامية فهى دعوة بالحال قبل أن تكون بالمقال .

فالتخلق بأخلاق الإسلام قولا وعملا ، التزاما واجتنابا يجذب غير المسلمين إلى الإسلام لأن المسلم صاحب رسالة فإذا أساء حملها ولم يحسن أوامرها نقل ذلك من حيث يشعر أو لا يشعر إلى أولئك الذين لا يعلمون شيئا عن مبادئ الإسلام لأنه مهما سمت المبادئ والتوجيهات ولم تجد من يأخذ بها لم يكن لها أثر ولم تغن أصحابها شيئا وكأنها غير موجودة أو ذات نفع للناس (٢) .

وفى الحديث « يؤتى بالعالم فيلقى فى النار فتزلقه أقتابه فيدور كما يدور الحمار فيقال له : ما بلغ بك ما أنت فيه وقد كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول : كنت آمركم بالخير فلا آتيه وأنهاكم عن الشر وآتيه » (٣) .

إنه من السهل أن تلقى محاضرة عن الإسلام أو تعقد ندوة حول معنى من معانيه أو تؤلف كتابا فى كماله وتمامه فى شموله وعمومه ،ولكن كل ذلك يتحول إلى حبر على ورق ما لم يتحول ما تقوله أوتكتبه إلى واقع ملموس يراه الناس مشهودا عندئذ تتحول الأفكار والسطور والكلمات إلى حركة وإلى حياة يؤمن بها من شرح الله صدره للإسلام.

ذلك أن الكلام والبراعة فيه سهلة يجيدها الصادقون كما يجيدها الكذابون على حد سواء ، ويعرف سبيلها المخلصون والمنافقون معا واقرأ إن شئت ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . . .** ﴾ .

● **الخشية من الله :**

إن الدعاة إلى الله هم أصدق الناس قيلا،وأشرفهم طريقا ولذلك يجب أن يكون ظاهر

---

(١) المنطلق محمد الراشد ص ٣٨ .

(٢) معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها د. محمود محمد بابلى ص ١٢٥ بتصرف .

(٣) رواه البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه بلفظ « يجاء بالرجل يوم القيامة » .

الداعى كباطنه يحاسب نفسه على كل أمر من الأمور وكل حركة من الحركات بل وكل سكنة من السكنات؛ليقى نفسه العثرات والزلات ولقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثال للناس لعلهم يقتدون به فيفوزون،فاسمع إليه ﷺ وهو يقول:«إنى لأنقلب إلى أهلى فأجد التمرة ساقطة على فراشى فأرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون من صدقة فألقيها»(١).

ولكن ماذا يحدث لو أكلها اسمع إلى الإمام أحمد فى مسنده يقول : إن النبى ﷺ أرق من الليل فقال له بعض نسائه : يا رسول الله أرقت الليل فقال : «إنى كنت أصبت تمرة تحت جنبى فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه » (٢) .

هكذا الداعى يجب أن يكون ، يحصن نفسه ويطهر قلبه ويحاسب جوارحه العين على ما ترى ، والأذن على ما تسمع ، واليد على ما امتدت ، والرجل على ما سعت ، والبطن على ما حوت ، بل يكون حارسا لخواطره حذرا من إهمالها والاسترسال معها فإن أصل الفساد كله يكون من قبلها ، ولذلك فإن الرسول ﷺ يقول : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس » (٣) ولذلك لابد للداعية من وقفة بين الفينة والفينة يخلو فيها لنفسه ، تتصل فيها روحه بالله جل شأنه وتصفو فيها نفسه من كدورات الأخلاق الذميمة والحياة المضطربة من حوله ومثل هذه الخلوات تدعوه إلى محاسبة نفسه إن قصرت فى خير أو زلّت فى اتجاه ،أو جانبت سبيل الحكمة ، أو أخطأت فى سبيل أو منهج أو طريق أو انغمست مع الناس فى الجدال والنقاش حتى أنسته تذكر الله والأنس به وتذكر الآخرة وجنتها ونارها ، والموت وغصصه وآلامه . ولذلك كان التهجد وقيام الليل فرضا فى حق النبى ﷺ مستحبا فى حق غيره وأولى الناس بالحرص على هذه النافلة هم الدعاة إلى الله وشريعته وجنته ، وللخلوة والتهجد والقيام لله بالليل بالعبودية فى أعقاب الليل لذة لا يدركها إلا من أكرمه الله بها وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول فى أعقاب تهجده وعبادته:«نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها»(٤) وحسبنا قول الله تبارك وتعالى فى خطاب رسول الله ﷺ : ﴿ **يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا**﴾ إلى قوله : ﴿ **إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا** ﴾ .

إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان ،وخلقه الفاضل هو السحر الذى يجذب إليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب ، ومن ثم فإن الداعية الموفق الناجح الذى

---

(١) البخارى كتاب اللقطة .

(٢) كتاب الزهد باب الورع من كتاب مَنْ الذى يغير المنكر وكيف ص ٤٦ د . محمد محمود عمارة .

(٣) أخرجه الترمذى وابن ماجة قال:حديث حسن غريب .

(٤) السيرة النبوية دروس وعبر للدكتور مصطفى السباعى ص ٤٦ .

يهدى إلى الحق بعمله وإن لم ينطق بكلمة لأنه مثل حى متحرك للمبادئ التى يعتنقها.

إن التدين الحقيقى صورة لجوهر النفس بعد ما استكانت لله ونزلت على أمره واصطبغت بالفضائل التى شرعها وترفعت عن الرذائل التى حرمها واستقامت على ذلك استقامة تامة ، هذا التدين وحده هو الذى تلتمس منه الأسوة ويقتبس منه الهدى ، إن المسلمين استحقوا أن يتأسى الناس بهم وأن ينسجوا على منوالهم وأن يقلدوهم فى أقوالهم وأفعالهم وأن يهجروا لغاتهم الأصلية إلى اللغة العربية الوافدة لأن المسلمين كانوا يمثلون فى العالم نهضة مجددة راشدة مسعدة .

● النصر المزيف :

إن من الغباء البالغ أن تنتظر أحدا يؤمن بك عقب انتصار فى معركة جدل أو انتصار فى ميدان حرب ، إن المقهور فى أحد الميدانين قد يستسلم راضيا أو ساخطا بيد أنه لن يتبعك عن إخلاص ، ولن يشاركك الشعور والفكر أبدا . . . ومن ثمّ نرى لزاما علينا التوكيد بأن القدوة وحدها وما يبعث على الاقتداء من إعزاز وإعجاب هى السبيل الممهدة لنشر الدعوة على أوسع نطاق ، وحين نتابع أوصاف المسلمين الفاتحين نجد أن الجماهير رمقت حملة العقيدة الظاهرة بشىء من الدهشة ورأت فيهم نماذج خلابة للفضل والعدل ، فلم يمكثوا غير قليل حتى زاحموهم عليها [1] والسلف الصالح رضوان الله عليهم وحدهم مصدر الأسوة ويعجبنى ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه إذ يقول : « من كان مستنا فليستن بمن قد مات فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرتهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » وفى الحديث « إنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » [2].

والاقتداء المطلوب بداهة ليس فى ركوب الخيل والحرب بالسيف والرمح إنما الاقتداء فى التجرد والخشية وإيثار الآخرة [3] .

ويروى أنه وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفد تميم وفيهم سيدهم الأحنف بن قيس الذى كان إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب، فوجدوا عمر يهنأ إبل الصدقة (أى يطليها بالقطران) فقال للأحنف بن قيس : يا أحنف اخلع ثيابك وتعال

---

(١) من كتاب مع الله ص ٢٩٩، ٣٠٠ للشيخ الغزالى بتصرف .

(٢) كتاب هموم داعية ص ٢٣٢ للشيخ محمد الغزالى .

(٣) كتاب هموم داعية ص ٢٣٢ للشيخ محمد الغزالى

معى نهنأ هذه الإبل فإن فيها حق اليتيم والمسكين والأرملة وابن السبيل ، فقال رجل: يا أمير المؤمنين مُرْ عبدا يكفيكما هذا العمل ، فنظر إليه عمر فى شىء من الغضب وقال : ثكلتك أمك ، وهل تجد مَنْ أعبد منى ومن الأحنف هذا ؟ مَنْ ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين .

● مهمة مشرفة :

إن الدعاة إلى الله يقومون بمهمة الأنبياء ولذلك كان لابد أن يصدقوا الله فى أقوالهم وأفعالهم لا يقصدون بذلك إلا وجه الله ، فهم أحق الناس باقتباس شمائلهم والاقتداء بهداهم وأخذ الأسوة من محياهم ومماتهم .

وأنجح الناس فى أداء هذه الرسالة من تُرى وراثات النبوة فى خلقه وسلوكه ، وعبادته وجهاده ،وتضحيته وكبريائه على الدنيا ، ومقاومته لفتنتها ومعاملته لذى السلطان غير راغب ولا راهب (١) .

وهكذا يكون الداعى إلى الله راجح العقل ، أصيل الرأى ، حسن المعاملة ، وفىّ الوعد ، مستقيم السيرة ، حسن السمعة ، تسبقه سمعته قبل دعوته منذ بكورة شبابه ؛ لأن استقامة الداعى فى شبابه أدعى إلى نجاحه فى دعوته إلى الله وإصلاح الأخلاق ، ومحاربة المنكرات إذ لا يجد فى الناس مَنْ يغمزه فى سلوكه الشخصى قبل قيامه بالدعوة ، وكثيراً ما رأينا أناسا قاموا بدعوة الإصلاح وخاصة إصلاح الأخلاق كان من أكبر عوامل إعراض الناس عنهم ما يذكرونه لهم من ماض ملوث ، وخلق غير مستقيم ، بل إن هذا الماضى السيئ يكون مدعاة للشك فى صدق مثل هؤلاء الدعاة بحيث يُتهمون بالتستر وراء دعوة الصلاح لمآرب خاصة أو يتهمون بأنهم ما بدأوا بالدعوة إلى الإصلاح إلا بعد أن قضوا ملذات الحياة وشهواتها ، وأصبحوا فى عمر لا أمل لهم فيه بالاستمرار فيما كانوا فيه من عرض أو مال أو شهوة أو جاه .

أما الداعية المستقيم فى شبابه فإنه يظل أبدا رافع الرأس ناصع الجبين لا يجد أعداء الإصلاح سبيلا إلى غمزه بماض قريب أو بعيد ، ولا يتخذون من هذا الماضى المنحرف تكأة للتشهير به ودعوة الناس إلى الاستخفاف بشأنه ، ولذلك فإن الداعية الذى ينتظر لدعوته النجاح لابد أن تستقيم سيرته وتحسن سمعته قبل أن يدعو الناس إلى ما يجب أن يدعوهم إليه قال رسول الله ﷺ لمن رموه فى سيرته وحياته وسلوكه بلسان القرآن : ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ ولذلك عاش رسول الله ﷺ أربعين عاما يأكلهم

(١) كتاب مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة ص ٢١٩ الشيخ محمد الغزالى .

ويشاربهم ويبيعهم ويبتاع منهم ، ويشاركهم خيرهم ويجتنب شرورهم . فلم يشارك أقرانه من شباب مكة فى لهوهم ولا عبثهم وقد عصمه الله من ذلك ، فقد استفاضت كتب السيرة أنه سمع وهو فى الشباب غناءً من إحدى دور مكة فى حفلة عرس فأراد أن يشهدها فألقى الله عليه النوم فما أيقظه إلا حر الشمس ، ولم يشارك قومه فى عبادة الأوثان ، ولا أكل شيئا مما ذبح لها ، ولم يشرب خمرا ولا لعب قمارا ،ولا عرف عنه فحش فى القول، أو هجو فى الكلام .

أربعون سنة يعيشها بينهم قبل الرسالة ينادونه « الصادق الأمين » يشاركهم مشاكلهم ، ويلجأون إليه لحلها ، وما قصة الحجر الأسود منا ببعيد فلقد عرفوه قبل الرسالة بما وصفه به ربه بعدها ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ومكث بينهم فى مكة ثلاثة عشر عاما بعد الرسالة هو هو بأخلاقه قبل الرسالة هى نفسها بعدها .

إنها القيادة الرشيدة التى صنعها الله على عينه بين الناس فيما يزيد على نصف قرن من الزمان ، بينما احتاج بناء الدولة عشر سنوات فى المدينة ما زادت عليها ليعى المسلمون الدرس ولنرى كم يمضى من الزمان حتى يجود بقيادة تقوده نحو الخير وتحقق إرادة الله على الأرض من خيرية هذه الأمة .

فهل وعى الدعاة هذا الدرس وعرفوا أن القدوة هى أساس الدعوة ؟

فليت الدعاة قبل أن يدعوا الناس بالمقال يدعونهم بالحال كما فعل رسول الله ﷺ حينئذ تستقيم الخطى ويتحقق الهدف ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، ويصل الداعى إلى غايته ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

★ ★ ★

ثانيًا : التأليف قبل التعريف

● رسالة الرحمة :

رسالة الإسلام رسالة رحمة فمن حملها وآمن بها كان رحيما بالناس جميعا لاقتدائه برسالة رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

ذلك لأن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها والداعى الحكيم وفقه الله إلى أقفال القلوب ففتحها برفقه ، وتعامل معها برحمته ، واستحضر مشاعر الحب فى مخاطبته إياها ، حينئذ تلين القلوب القاسية وتستقيم الجوارح العاصية ، فما كان من القلب وصل إلى القلب وما كان من اللسان لا يتجاوز الآذان .

فإن كنت خبيراً بنفوس البشر فاعلم أنها تألف الاعوجاج والتمرد ، خاصة إذا طال على صاحبها الأمد ، فيقسو القلب وتتعدد السبل ، وحينئذ إن باشرتها بالإصلاح فإن ذلك يعتبر مصادمة لها ، فكان لزاما عليك أن تتلطف فى المعاملة ، وتعرف مداخل النفوس لأنك لا تتعامل مع أحجار صلدة ، ولا مع ملائكة بررة ، أنت تتعامل مع نفوس إنسانية فيها الإقبال والإحجام ، فيها الخير وفيها الشر ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فيها ﴿ حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . . ﴾ فإن لم تعرف المداخل والأبواب التى تدخل منها إلى النفوس فإن الفشل سيصيبك حتما لا محالة لأنك اصطدمت بالسنة ، وسنة الله لا تجد لها تبديلا ولا تجد لها تحويلا ، وإذا غالطت نفسك وتجاهلت هذه الغرائز والنزعات فلن يضير وجودها شيء وأنت المضار .

إن الشهوات خلقت وستبقى فلا تتعجل الطريق بل تلطف وتحايل مرة بل مرات إلى أن تعرف كيف تدخل إلى الناس ، ولا يشغلك أن تعرى المدعو أو تظهر أخطاءه .

«إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » ولكنك تريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقك إلا بالله .

● فقه دعوتنا :

لقد قامت الدعوة إلى الله على أساس الحكمة ، والحكمة هى مقتضى الحال ورضوان الله عليك يا على يابن أبى طالب حين قلت : « إن للقلوب إقبالا وإدبارا ، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل ، وإن أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض » . . . أى فقه هذا . . . إنه فقه مدرسة محمد ﷺ الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه .

وأنت إن تأملت قول الله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ وجدت أنها لا تكتفى بالأمر بالجدل بالطريقة الحسنة، بل أمرت بالتى هى أحسن، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها، وجب على المسلم أن يجادل بالتى هى أحسن جذبا للقلوب النافرة وتقريبا للأنفس المتباعدة.

وفى آية آخرى يقول ربنا الرحيم : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ، ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم ، أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ فإرجاع الأمر لمشيئة الله تعالى فى رحمتهم أو عذابهم هو لون من قول : « التى هى أحسن » . ومن التى هى أحسن ذكر مواضع الاتفاق بين المتجادلين ، والانطلاق منها إلى مواضع الخلاف ، عسى أن يتفق عليها كما فى قوله تعالى : ﴿ لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم . وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ .

أما مواضع الاختلاف فالحكم فيها إلى الله يوم القيامة ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ فإذا كان هذا هو أسلوب جدال المسلم لغير المسلم ، فكيف يكون جدال المسلم للمسلم وقد أظلتهما وحدة العقيدة والأخوة فى الدين . . .

إن بعض الإخوة يخلطون بين الصراحة فى الحق والخشونة فى الأسلوب ، مع أنه لا تلازم بينهما والداعية الحكيم هو الذى يوصل الدعوة إلى غيره بألين الطرق وأرق العبارات، دون أدنى تفريط فى المضمون .

والواقع المشاهد يعلمنا: أن الأسلوب الخشن يضيع المضمون الحسن ولهذا ورد فى الأثر: «من أمر بمعروف فليكن أمره بالمعروف » واستمع إلى الإمام الغزالى فى كتاب «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» من «الإحياء» يقول: لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهى عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهى عنه، فقيه فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه، ومما ذكره رحمة الله عليه: أن رجلا دخل على المأمون الخليفة العباسى يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فأغلظ له فى القول، وقسا فى التعبير، ولم يراع أن لكل مقام مقال يناسبه، وكان المأمون ذا فقه فقال له: يا هذا ارفق ، فإن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر منى ، وأوصاهما بقوله : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ . وبهذا حاج المأمون ذلك الرجل وخصمه فلم يجد جوابا (١).

---

(١) رسالة صحوة الشباب الإسلامى ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها . للدكتور يوسف القرضاوى من ص٢٣ : ٢٥ .

ومما علمه الله لموسى أن تكون دعوته لفرعون بهذه الصيغة اللينة الرقيقة : فقل هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ومن اطلع على جوار موسى مع فرعون فى القرآن الكريم يجده قد وعى وصية الله له،ونفذها بكل دقة برغم تجبر فرعون واستعلائه وتهجمه واتهامه وتهديده .كما يتبين ذلك من سورة الشعراء .

ومن درس سيرة رسول الله ﷺ وسنته فى هذا الجانب ، نرى فى هديه الرفق الذى يرفض العنف ، والرحمة التى تنافى القسوة ، واللين الذى يأبى الفظاظة ، كيف لا وقد وصفه الله بقوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ وصور علاقته بأصحابه فى قوله : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ [آل عمران].

● **الكلمة كائن حى :**

إن الكلمة الطيبة ــ فى نظر الإسلام ــ كائن حى مؤثر ، ولذلك كان حريا بنا كثرة التنبيه إلى أهميتها والتنويه بها ؛ لأنها الكلمة التى بها تفتح القلوب للتلقى والآذان للسماع، والجوارح للعمل بها ، ولن تكون كذلك إلا إذا كنت رفيقا وأنت تقولها ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ .

إنه ليس المهم توصيل الحقيقة إلى الناس فقط،ولكن الأهم هو الأسلوب والطريقة التى تصل بها،فإذا كان الرسول ﷺ يقول:«زينوا القرآن بأصواتكم» لكى يتشوق إليه السامع وينجذب إليه فيؤثر فيه.فما بالك بكلام البشر كلام الداعية ألا يحتاج إلى أن يزين ويزين؟ ﴿**ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء**﴾.

إن النصح علاج مُرّ فليصحبه شىء من حلو الكلام ، فكن من الذين يعلمون الحق ويرحمون الخلق ، واسمع إلى يحيى بن معاذ يقول : أحسن شىء كلام رقيق ، يستخرج من بحر عميق على لسان رجل رفيق (١) .

إن الرفق هو القنطرة التى بين الداعى والمدعو فإن أحكمت وضعها وصل للمدعو ما تريد وترغب ، فلا تتعجل عرض الدعوة على الناس قبل أن تضع قنطرتك وتثبتها باللين ، وتزينها بالرفق حتى مع أعدى أعداء الدعوة ، واسمع ــ إن شئت ــ إلى هذا الموقف بين رسول الله ﷺ وبين عائشة رضوان الله عليها . فقد كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون :السامُ عليكم « بدلا من السلام عليكم ــ والسام الموت ــ وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم : وعليكم لا يزيد عليها ، فسمعتهم عائشة يوما فقالت :

---

(١) المنطلق محمد الراشد ص٢٦ .

بل عليكم السام واللعنة فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ : مهلا يا عائشة ، إن الله يكره الفحش والتفحش. فقالت: يا رسول الله أما سمعت ما قالوا؟فقال لها: أما سمعت ما قلت لهم ؟ إنى قلت لهم : وعليكم،فيستجيب الله لى فيهم ولا يستجيب لهم فى(١).

أى أخلاق عالية ، وأى قمة سامقة . . . إن الله يكره الفحش والتفحش فى موقف تدافع فيه عن رسول الله ﷺ وربنا يقول: ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم . . . ﴾ لكن أصحاب الدعوات يعلمون ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ فلابد للداعى أن يأخذ بالعزائم ويترفق بالناس ولو رموه بالحجر ورضوان الله على شهيد الإسلام حسن البنا حين قال : كونوا كالشجر يرمى بالحجر فيلقى بالثمر ، يرمونك بالتهكم ، والسخرية ، والاستهزاء ، والتنكيل ، والإخراج وأنت ترميهم بالرفق واللين والصبر على الإيذاء لأن الله يحب الرفق فى الأمر كله » .

● لا مداهنة :

فلا تصادم الفطر بقوتك وخشونة لفظك ، وتخير طيب الكلام ولا تظن أن فى ذلك مداهنة أو نفاقا أو تعطيلا للشرع ، بل هى مراعاة النفسيات كما نراعى المصالح والمقاصد.

واسمع إلى ما يرويه البخارى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رجلا استأذن على النبى ﷺ فقال : « أن ائذنوا له بئس أخو العشيرة » فلما دخل ألان له الكلام ، فقلت : يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنت له فى القول ،فقال عليه الصلاة والسلام : «أى عائشة إن من شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه » كما روى البخارى أن أبا الدرداء كان يقول : إنا لنكشر (نبتسم) فى وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم .

هذا ما تعلمه السلف الصالح من رسولهم ﷺ وكان قدوتهم فى الدعوة فهما وحركة، فهم علماء فى فهمهم وهم رحماء فى دعوتهم ، سمعوا من رسولهم ﷺ قوله : « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف ، ومالا يعطى على ما سواه» (٢) فعملوا بذلك .

● فهم منكوس :

لكننا فى زماننا هذا نرى عجبا من بعض الشباب ، نراه قبل أن يلتزم بإسلامه هاشا باشا، بارا بوالديه ، عطوفا على أهله ، يحب أخاه وأخته ، ويصل رحمه ، ويرحم جاره ويخفض الجناح لمن حوله ، فلما أنعم الله عليه بنعمة الإسلام إذا به يفهمه بهواه ، فتراه

---

(١) صفوة التفاسير الشيخ محمد على الصابونى ج ٣ ص ٣٣٨ سورة المجادلة .

(٢) رواه مسلم .

مثلا مقطب الجبين ، مكفهر الوجه ، عبوسا قمطريرا ، لا يعرف بسمة على شفتيه ، لا يرحم صغيرا ، ولا يوقر كبيرا ، ينهر أمه ، ويغلظ على أبيه ،يقاطع أخاه ، ويسب أخته، يكرم صديقه ، ويسفه أخاه لا تراه إلا محتقرا لمن يراه خاصة إذا خالفه الرأى وكأنى برسول الله ﷺ يعنى هؤلاء حين أخبرنا بعلامات الساعة فقال : إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء . فقيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « إذا كان المغنم دولا (١) والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وبر صديقه ،وجفا أباه، وارتفعت الأصوات فى المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولُبس الحرير ، واتخذت القينات (٢) والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها . فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء أو خسفا أو مسخا » (٣) فلابد للداعى أن يشعر المدعو بعاطفته نحوه ، ويشعره بأنه له لا لغيره ولن يكون عليه يوما من الأيام ،فأنت منه كالوالد العطوف على ولده ، فإن قساة القلوب ينفرون الناس ولا يجذبونهم فيفرقون ولا يجمعون واسمع إلى أبى سعيد الحسن البصرى يقول : إن عائذ بن عمرو رضي الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد فقال : أى بنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن شر الرعاء الحُطمة » (٤) فإياك أن تكون منهم. فقال له : اجلس إنما أنت من نخالة(٥) أصحاب محمد ﷺ فقال : وهل كانت لهم نخالة إنما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم . فإياك أن تكون من الحطمة وحاول أن تؤلف القلوب حتى يجرى الله الخير على يديك . وكأنى بك تسأل وكيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟

لكى نؤلف القلوب ــ بتوفيق الله ــ يجب أن نراعى أمورا منها :

● أولا : شعور المدعو أنك تدعوه إلى مبدأ لا إلى نفع شخصى :

أولى خطوات النصر ثباتك على ما تدعو إليه مهما أصابك من مكروه ، فشعور مَنْ تدعوهم بأنك لا تريد منهم جزاء ولا شكورا إنما تريد لهم الخير كل الخير فتراهم يلقون بأنفسهم فى النار وأنت تأخذ بحجزهم ، فإن عرض عليك مال أو جاه أو مركز أو سلطان قلت : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه. وكأن القرآن يخاطبك ﴿ فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ﴾ فإن رأى المدعو فيك المبدأ والقيمة وشعر بأن المبدأ حبيب

---

(١) إذا صار مال الدولة وقفا على أناس دون آخرين . (٢) المغنيات .

(٣) رسالة المهدى وأشراط الساعة للشيخ محمد على الصابونى ص ٢٢ .

(٤) العنيف فى رغبته وهذا الحديث رواه مسلم (٥) النخالة ــ السقط .

إليك تعمل على أن يسود ويحمله الناس كل الناس لا تبتغى من وراء ذلك منفعة مادية ولا مصلحة شخصية أيقن أن دعوتك بريئة نزيهة ، قد تسامت فى نزاهتها حتى جاوزت المطامع الشخصية واحتقرت المنافع المادية ، وخلفت وراءها الأهواء والأغراض ، ومضت قدما فى الطريق التى رسمها الحق تبارك وتعالى لسيد الداعين وهو يقول له: ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ .

● دروس من القرآن :

تعلمنا ذلك من القرآن حين رأينا كل نبى ورسول يقول لقومه مؤكدا بُعده عن المغانم الشخصية والمكاسب المادية ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ قالها نوح وقالها من بعده هود ، وصالح،وشعيب ومن جاء بعدهم من رسل الله وأنبيائه.

فكل داع إلى الله منهم « يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها ، فما له فيها من إرب بدعوتهم إلى الله وما يطلب منهم أجرا جزاء هدايتهم إليه فهو يطلب أجره من رب الناس الذى كلفه دعوة الناس ، وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر كما جاء فى قول ربنا يبدو أنه كان ضروريا للدعوة الصحيحة تمييزا لها مما عهده الناس من الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد ، وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائما مصدر ابتزاز للأموال بشتى الأساليب ، فأما دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائما متجردين ، لا يطلبون أجرا على الهدى فأجرهم على رب العالمين» (١) .

● مع بلقيس :

ولقد فطنت « بلقيس » بذكائها إلى اختبار الداعى ومعرفة مقصده وغاية ما يدعو إليه حين أرسل إليها سليمان عليه السلام برسالته التى يدعوها فيها إلى الإسلام ، فأرادت أن تتأكد من صدقه ومبدئه وإن كان راغبا فى الدنيا أم داعيا إلى قيم : والهدّية تلين القلب ، وتعلن الود ، فقد تفلح فى دفع القتال ، وهى تجربة ، فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر دنيا ووسائل الدنيا لا تجدى ، وإن لم يقبلها فهو إذن أمر عقيدة ، الذى لا يصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض » (٢) يقول ابن عباس : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى صادق فاتبعوه (٣) . فلما رفض سليمان قالت : إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (٤) .

---

(١) ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٦٠٧ من سورة الشعراء . . (٢) ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٦٤٠ من سورة النمل.

(٣) صفوة التفاسير الشيخ الصابونى ج٢ ص ٤٠٨ سورة النمل .

(٤) الآية ﴿ قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت=

وبالرغم من أن الداعى يُشعر المدعو بأنه رجل مبدأ يعيش له ويعمل من أجله لا يبغى له إلا الخير فإنه لا يمتن بشىء عليه ولا يرى له فضلا فى دعوته ، وإنما يعتقد قول الله تعالى: ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ وبذلك يشعر المدعو أنك رجل مبدأ وقيمة ، ليس مبدأ ، مخدرا نائما فى النفوس ولكنه إيمان مشتعل قوى فى نفوس المؤمنين الذين ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ .

● ثانيا : شعور المدعو بأنك حريص عليه تحب له الخير :

قلنا : إن الدعوة إلى الله هى رحمة للعالمين تصبغ دعاتها بصبغتها ، ويشعر صاحبها بأن ما عند الناس ينفد وما عند الله باق ، بعكس الدعوات الوضعية التى لا تقوم إلا على المصلحة الشخصية فى هذه الحياة الدنيا .

والداعى إلى الله بيقينه الذى يعيش به يستشعر عرش ربه بارزا أمامه ، والصراط تحت قدمه وأهل الجنة عن يمينه ، وأهل النار عن شماله ، فيشفق على الناس، ويرغب فى يقظتهم وينادى الناس هلموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ،فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهو يحب لهم هذه الجنة ، ويخشى عليهم من عذاب يوم أليم .

ألم تَر ما قاله كل رسول ونبى لقومه : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٥] فهو الأخ الخائف عليهم ﴿وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ والأخ دائما يشفق على إخوته من عذاب يوم عظيم حريص على نجاتهم ، فرح بهدايتهم لأنه أخوهم ، وهو واحد منهم فكيف لا يخشى عليهم فى يومهم وغدهم ؟

● مع مؤمن يس :

وياله من حرص واضح يبرزه القرآن ليؤكد لأصحاب الدعوات فى هذه الآيات البينات ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ .اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ .وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ .إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ. قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[يس: ٢٠ــ ٢٧].

فهذا رجل سمع الدعوة واستجاب لها بعد ما رأى فيها دلائل الحق والمنطق ما يتحدث

= رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ آية ٤٤ النمل .

عنه فى مقالته لقومه ، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة فى ضميره فلم يطق عليها سكوتا ، ولم يقبع فى داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ، ولكنه سعى بالحق الذى استقر فى ضميره وتحرك فى شعوره ، سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويتوعدون ويهددون وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه فى دعوة قومه إلى الحق ، وفى كفهم عن البغى ، وفى مقاومة اعتدائهم الأثيم الذى يوشكون أن يصبوه على المرسلين .

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان ، ولم يكن فى عزوة من قومه أو منعة من عشيرته ولكنها العقيدة الحية فى ضميره تدفعه وتجىء به من أقصى المدينة إلى أقصاها ، وهو لا يطلب أجرا ، ولا يبتغى مغنما ، إنه لصادق وإلا فما الذى يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبى تكليفا من الله ؟ ما الذى يدفعه إلى حمل هم الدعوة ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ؟ والتعرض لأذاهم وشرهم ، واستهزائهم وتنكيلهم ، وهو لا يجنى من ذلك كسبا، ولا يطلب منهم أجرا»(١) إنه حرص الداعى على الناس، ورغبته فى إنقاذهم من العذاب، وحبه للناس ما يحبه لنفسه . . . يا له من حرص ما رأينا مثله إلا فى دعوة الله، وتأمل حال الداعى بعد ما قتلوه ،ينقل لنا القرآن مشاعره، ليس فيها حب للانتقام ولا الحقد ولا الضغينة ، ونرى القرآن يبين لنا حال هذا الرجل المؤمن الداعى إلى ربه وقد اطّلع على ما آتاه الله فى الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكّر قومه طيب القلب ، ورضى النفس، ويتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ليعرفوا الحق معرفة اليقين .

قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته ، ونصحهم بعد مماته ، وقال أبو السعود : إنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر، والتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان ، جريا على سنن الأولياء فى الترحم على الأعداء (٢) .

● مع مؤمن فرعون :

أهل الباطل لا يناقشون الحجة بالحجة ولا البينة بالبينة إنما منطقهم عجيب اسمع إليهم فى قصة فرعون ماذا يقولون : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ،وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾ هذا قولهم أما قول زعيمهم فرعون : ﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثنى ، عن موسى عليه السلام : ﴿إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ أليست هى بعينها كلمة كل

(١) ظلال القرآن ج٥ ص٢٩٦٥ سورة يس . (٢) صفوة التفاسير ج٣ ص١١ سورة يس.

طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟أليست هى بعينها كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل؟أليست هى بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر فى وجه الإيمان الهادى ؟

إنه منطق واحد ،يتكرر كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والإصلاح والطغيان على توالى الزمان واختلاف المكان ،والقصة القديمة مكررة تفرض بين الحين والحين » (١).

فهذا هو منطق الباطل استهزاء ،سخرية ، افتراء ،مجادلة بالباطل ، اعتداء حتى يصل إلى الإخراج من الأرض ومع هذا فإننا نرى فى هذا الظلام الحالك النور الذى يحمله الداعى بين يديه واحرص على الناس من أن يلقوا فى النار . والرحمة التى ينشرها عليهم وهو يلوذ بحمى ربه ويعوذ به من كل متكبر بيوم الحساب ومع هذا فإنه لا يقول لهم إلا خيرا. ليت الدعاة يعون هذا الدرس ويستشعرون حرص الداعى على من يدعوه ليتهم يستمعون إلى هذا الداعى الذى وقع الحق فى قلبه وكتم إيمانه وهو يعيش فى هذا الجو الذى نقله لنا القرآن كما رأيت، اسمع إليه وهو يدافع عن موسى فما سبّ ولا لعن ، لكنه يتسلل إلى قلوبهم بالنصيحة التى تسيل رقة، ممزوجة بالتخويف والإقناع ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب﴾ وتأمل ذكاء هذا الرجل وبعد نظره، وتأمل الألفاظ التى اختارها، والكلمات التى تكلم بها ،والأسلوب الحكيم الذى يقنع به من يخاطبهم ، إنه نوع من أنواع علم البيان الذى يسميه علماؤنا استدراج المخاطب وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له ،وأنه من أتباعه ،فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال : ﴿أتقتلون رجلا﴾ ولم يذكر اسمه بل قال: رجلا ليوهم أنه لا يعرفه ثم قال: ﴿ أن يقول ربى الله﴾ ولم يقل: رجلا مؤمنا بالله أو هو نبى الله ،إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله : ﴿ وإن يك كاذبا ﴾ فقدّم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلا بقوله: ﴿ وإن يك صادقا ﴾ ولم يقل : هو صادق وكذلك قال : ﴿ يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ ولم يقل كل ما يعدكم ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له ،وأنه يزعم نبوته وأنه يصدقه، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له وهو قوله: ﴿ إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب﴾ وفيه تعريض بفرعون، إذ هو فى غاية الإسراف والكذب على الله، إذ ادعى الألوهية والربوبية ، ثم كرر النصح مع التلطف ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ﴾ أنتم غالبون عالون على بنى إسرائيل فى أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم ﴿فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ قال الإمام الرازى: إنما قال: ﴿ينصرنا﴾

---

(١) ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٧٨ سورة غافر .

و﴿جاءنا﴾ لأنه كان يظهر لهم أنه منهم وأن الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه (١) أىّ ذكاء هذا يتحلى به هذا الداعى إلى الله، وأىّ بصيرة وحكمة رزقها ، ليت الشباب يتدبر ويفقه الأسلوب الأمثل للدعوة ، إنها ليست استعراضا للقوة، ولا تطاولا على أحد، ولكن مسلك الحكمة الذى يوصلنا للغاية التى تنجى، فليست انتصارا لرأى بقدر ما هى إحقاق حق، وإظهار حجة وبيّنة وتكرار موعظة حسنة، وإشعار بالحرص الشديد على من ندعوهم .

فأنت ترى هذا الرجل المؤمن الذى كتم إيمانه لا يمل من تكرار الموعظة والمحاولة مع سفه وتكبر فرعون ، اسمع إليه وهو يقول لقومه : ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ إلى أن يقول : ﴿ ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار، لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وإن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ ماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية فى العقيدة ؟ إنه أخيرا كشف عن نفسه كموقف إشهاد ، ولكن بأسلوب حكيم ، وثبات كريم، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يفوض أمره إلى الله ليقيه سيئات ما مكروا وقد وقاه ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ هل نظرت إلى هذا المؤمن من آل فرعون كيف يخاطب فرعون ومن معه ، إنه يشعرهم بأنهم قومه ، وأنه واحد منهم ، يهمه أمرهم ، ويعنيه أن يبقى لهم ملكهم ، ويدوم لهم مجدهم ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ فبعد أن طمأنهم على ملكهم ليجد آذانا تسمعه بدأ يخوفهم مما أصاب الأمم من قبلهم حين أعرضوا عن دعوة الله تعالى وطاعة رسوله ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١] هذا ما يخافه عليهم فى الدنيا ثم انتقل إلى تخويفهم من عذاب الآخرة ، ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] ، ويستمر المؤمن المخلص فى دعوة قومه بهذا الأسلوب الذى يفيض رقة وحنوا ، مرهبا حينا ومرغبا حينا آخر . وهذا هو الأسلوب الذى ينبغى لأصحاب الدعوات أن يتبعوه فى دعوتهم للمعاندين ومخاطبتهم للمخالفين ، مع التركيز على تأليف القلوب .

*** إنكار نقره :**

فلا حرج على إنكار الدعاة الوعاة على بعض الشباب المخلصين الطريقة التى يتعاملون

(١) صفوة التفاسير ج٣ ص ١٠١ سورة غافر .

بها مع الناس فى السلوك ، أو يتحاورون بها مع المخالفين فى الفكر ، فقد غلب عليها المخاطبة بالخشونة والشدة والمواجهة بالغلظة والحدة ولم يعد جدالهم لمعارضيهم بالتى هى أحسن ، بل بالتى هى أخشن ، ولم يفرقوا بين الكبير والصغير ، ولم يميزوا بين من له حرمة خاصة كالأب والأم ومن ليس كذلك ، ولا بين من له حق التوقير والتكريم كالعالم والفقيه ، والمعلم والمربى ، ومن ليس كذلك ، ولا بين من له سابقة فى الدعوة والجهاد ، ومن لا سابقة له ولم يفصلوا بين من له عذر إلى حد ما ـ كالعوام والأميين والمخدوعين ـ من الجماهير المشغولة بمعاشها ومتاعبها اليومية ، ومن لا عذر له ومن يقاوم الإسلام من حقد أو عمالة أو خيانة ، ويقتحم النار على بصيرة [1] إن الداعى لابد وأن يُشعر المدعو بأنه لا يتعالى عليه أو يتميز دونه بل هو حريص عليه يتمنى له كل الخير لأن حرص الداعى مفتاح من مفاتيح القلوب التى يفتح بها الله قلب من يحب من عباده ، ولك فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فلقد كان ﷺ ينفطر وتذهب نفسه حسرات لما يرى من كفر الكافرين ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ ويصف ربنا حاله هذه فيقول له : ﴿فلعلك باخعٌ نفسك علىٰ آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ [الكهف : ٦] أى فلعلك قاتل نفسك يا محمد ومهلكها غما وحزنا على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان ، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم ، والآية تسلية للنبى ﷺ [2] وهكذا كان الرسول ﷺ يعتصر قلبه الشريف وهو يرى الكافرين يركضون ويتسابقون إلى النار بينما الجنة أقرب إليهم من شراك نعلهم إن هم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ﷺ . . . فما بالك بالساهين اللاهين من المسلمين ألا تشفق عليهم وتكون أشد حرصا عليهم وتتمنى لهم الخير الذى أنعم الله به عليك وتقول لهم : « أنتم تلقون بأنفسكم فى النار وأنا آخذ بحجزكم » فكن حريصا على من تدعوه يلين قلبه لك .

● ثالثا : عدم تعنيفه ولو بالكلمة مع الرفق به :

ملاطفة من يرجى إسلامه لتأليف قلبه أمر مرغوب فيه فهذا بالنسبة للكافر فما بالك بمن يرجى توبته وهو المسلم الذى شهد شهادة الحق أليس أحق بالملاطفة من الذى يرجى إسلامه وهو كافر ؟ إنه نوع من الرقة فى المعاملة عليها تفتح قلبه ، وهذا أصل من أصول الدعوة ذلك لأن القرآن الكريم لم يذكر الغلظة والشدة إلا فى موضعين :

أولا : فى قلب المعركة ومواجهة الأعداء حيث توجب العسكرية الناجحة ، الصلابة عند اللقاء وعزل مشاعر اللين حتى تضع الحرب أوزارها وفى هذا يقول تعالى : ﴿يأيها

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف الدكتور يوسف القرضاوى ص ٤٨، ٤٩ .

(٢) صفوة التفاسير ج٢ ص ١٨٣ الكهف .

الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] .

ثانيا : فى تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها حيث لا مجال لعواطف الرحمة فى إقامة حدود الله فى أرضه ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ .

ولا تظن أن الشفقة على الظالم والامتناع عن الاقتصاص منه نوع من الرحمة إنها ليست من الرحمة فى شىء لأنها تخفى فى ثناياها قسوة على المظلوم قال ﷺ : « من لا يرحم لا يُرحم » وقال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض...﴾ فإذا كان من الرحمة أن تقطع بعض أجزاء الجسم الفاسدة رحمة بالمريض فإن من الرحمة بالناس أن تقطع عناصر الفساد .

وأيضا بالرغم من أن الباعث على الحرب فى الإسلام هو رد الاعتداء . . . إلا أننا نرى أدب الإسلام ولطفه فى وصية رسول الله ﷺ لمعاذ وقد أرسله إلى اليمن فاسمع إليه ﷺ يقول له :

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك ، وقولوا لهم : هل إلى خير من سبيل فلئن يهدى الله على يديك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت » إنه نبى الملحمة كما أنه نبى المرحمة ، يدعو دائما إلى الخير وتأليف قلوب الناس ؛ لأنه واثق من نصر الله فعلام الغلظة فى الدعوة وهى دعوة الله لا دعوة حزب من الأحزاب ولا هيئة من الهيئات، لذلك فإن رسول الله ﷺ يقول : تألفوا الناس ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل مدر ولا وبر إلا تأتونى بهم مسلمين أحب إلىّ من أن تأتونى بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم »(١) .

إنها حرب ليس فيها إهلاك حرث ونسل وإفساد زرع وإلقاء سم لتسميم الأحياء كما فعلت الروس بالأفغان ، وكما فعلت إسرائيل بالفلسطينيين ولكنها حرب لله وباسم الله وعلى بركة الله وصلوات ربى وسلامه عليه حين كان يقول لسراياه : « انطلقوا على بركة الله وعلى بركة رسول الله ﷺ لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

ويوم غضب رسول الله ﷺ لمقتل عمه حمزة يوم أحد يوم بقر وحشى بطنه ولاكت هند بنت عتبة كبده وقال ﷺ : « لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين منهم » نزل قوله

---

(١) حياة الصحابة محمد يوسف الكاندهلوى ج١ ص ١٥٢ والترمذى ج ١ ص ١٩٥ .

تعالى : ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (١) .

● العنف لا يأتى بخير :

إن العنف فى الدعوة لا يأتى بخير ، فلا شىء يشين الدعوة أكثر من العنف لأن الدعوة إلى الله تحاول أن تدخل إلى أعماق الإنسان ؛ لتجعل منه شخصا ربانيا فى مفاهيمه ومشاعره وسلوكه ، وتبدل كيانه كله وتنشئ منه خلقا آخر ، فكرا وشعورا وإرادة ، كما أنها تهز كيان الجماعة هزا ؛لتغير عقائدها المتوارثة وتقاليدها الراسخة ، وأخلاقها المعكوفة، وأنظمتها السائدة . . .

وهذا كله لا يمكن أن يتم إلا بالحكمة وحسن التأنى فى الأمور،والمعرفة بطبيعة الإنسان وعناده ، وجموده على القديم ، وأنه أكثر شىء جدلا فلابد من الترفق فى الدخول إلى عقله والتسلل إلى قلبه حتى نلين من شدته ، ونكفكف من جموده ،ونطامن من كبريائه(٢) .

إن المولى سبحانه وتعالى لم يكره أحدا على الإيمان به ، والدخول فى دينه ، إنما بسط الأدلة ، وأقام الحجة وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ فكيف تكره أنت الناس على دعوة الله وقد جعل الله الخيار للناس فى الإيمان فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وسأكتفى بعرض مثالين من قصص الأنبياء عليهم السلام لتتدبرهما ــ فقهنى الله وإياك ــ فإبراهيم عليه السلام راغ إلى أصنام المشركين ضربا باليمين ، وهذا عمل طيب فى حد ذاته ؛ لأن صاحبه ينبعث إليه بباعث شريف ، ويقصد به غاية كريمة ، ولكن هل ترى هذا المنهج كفيلا بقطع دابر الأصنام ،وإقناع الناس بالعدول عن عبادتها ؟

إنه عمل العاطفة الطيبة بلا نزاع ، ولكنك ترى فيه الملاحظات الآتية :

١ ــ إن تكسير الأصنام شبيه بالعمل الفردى كلاهما لا يبطل الفساد ، ولا يستأصل عبادة الأصنام لأن سبيل استئصالها بث العقيدة الصالحة فى القلب ، وتمكينها من قراءة النفوس بالوسائل الخالية من الاستفزاز .

---

(١) صفوة التفاسير ج٢ ص ١٢٩ سورة النحل .

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف للدكتور يوسف القرضاوى ص ٤٧ .

٢ ـ إن القوم لا يبعد أن يكونوا قد يصنعون أصناما غير التى كسرت ، وقد تكون جديدة أبهى وأجمل من القديمة ، فعمله إذاً لم يعقب ثمرة .

٣ ـ إن القوم غضبوا لآلهتهم ، وعاجلوا هذا الفتى بالنار التى تحسم أمره وتريحهم منه ، لولا أن أدركه الله فى آخر لحظة ، فنجاه من النار وجعلها بردا وسلاما .

ونحن نلاحظ فى سيرة سيدنا محمد ﷺ أن الله ثبت فؤاده بهذا القصص ، فلم يعجل عليه السلام بعلاج فردى بل كان يصلى فى الكعبة فى جوف الليل ، والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة فلم يرفع إليها يدا ، ولم يحرك نحوها ساكنا ، ولو أنه صنع ما صنع إبراهيم عليه السلام بأصنام قومه لما رآه أحد ، ولكن ماذا كانت تكون العاقبة ؟ تعود الأصنام لماكانت بل التى أحسن مما كانت ويُعاجل رسول الله ﷺ بالأذى كما عوجل مَنْ سبقه ، ولكنه ﷺ علم أن سبيل العلاج شىء غير هذا ، هو الصبر والاستمرار على الدعوة وتجميع الأنصار ،وتعبئة القوى ، فلما أن أتى الله باليوم الموعود كان عليه السلام يشير إلى الصنم بقضيب فى يده قائلا : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فينكفئ على وجهه إلى حيث لا رجعة ، وإنا لنعلم أن شباب الدعوة المحمدية الأولين كانوا كثيرا ما يعرضون على رسول الله ﷺ أن يثوروا بأسلحتهم وأن يهبوا فى وجوه أعدائهم وكان عليه السلام يسكّن ثورتهم ، ويطلب إليهم أن ينتظروا . فلم يعجل بعجلة هؤلاء الشباب ، ولم يخف لخفتهم بل كان يطلب إليهم أن يكفوا أيديهم الآن ، ويكتفوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حتى تكتمل القوى ، وتنضج الثمرة ، وتطلع الأقدار بأيام الله. ونحن نأثم أشد الإثم إذا نصحنا الداعية أن ينهج بغير المنهج الذى سنه الله لرسوله ، والتزمه ﷺ فى حكمة وأناة وقوة (١).

● مع موسى عليه السلام :

وأما الثانى ففى موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى ، راعته مظاهر الظلم التى ينزلها المصريون بالشعب الإسرائيلى ، وموسى شاب يهيئه الله سبحانه للرسالة ،فهو ذو نفس حساسة تكره الظلم ، وتثور على مظاهره ، ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين فأصبح فى المدينة خائفا يترقب ، فإذا الذى استنصره

---

(١) تذكرة الدعاة الشيخ البهى الخولى ص ٢٥ .

بالأمس يستصرخه ، قال له موسى إنك لغوى مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ (١) .

إن الظلم جريمة يجب استئصالها بدون نزاع ، وموسى إنما كانت رسالته تخليص بنى إسرائيل مما كان يقع بهم ، فهل سلك موسى بهذا العمل سبيلا سديدا فى علاج هذا الفساد؟ ماذا عاد على الإسرائيليين من قتل المصرى المعتدى ؟ هل استؤصل الظلم وامتنع الأذى؟ إن هذا المصرى قد يكون له بعض العذر فى ضرب الإسرائيلى وظلمه لأنه إنما يجرى فى ذلك على عادة شائعة موروثة ، وسنة مرعية ، يرعاها ويباركها فرعون مصر الأكبر ، فإذا أردنا العلاج الصحيح ، فلن يكون بعلاج الحوادث الفردية ، وإنما بتغيير العادة الشائعة وإبطال السنة أو القانون الذى يرعاه فرعون ، أما قتل فرد أو عدة أفراد كما حدث من موسى عليه السلام فهو عمل لا يقرب من الإصلاح خطوة واحدة وقد نعته موسى عليه السلام بأنه من عمل الشيطان . والجدير بالذكر أن علاج الفساد بعلاج حوادثه الفردية ، كثيرا ما يوقع تحت طائلة القانون الوضعى ، ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة فى استمراه على ما هو عليه ، وحينئذ يعرض الداعية نفسه لحكم القانون ، ولبطش الجبارين فى غير نفع يعود على الرسالة فإذا بالدعوة تصد وتعاق عن الانتشار ، وإذا بجهد الداعية يبدد دون فائدة ، ونحن لا نقصد بذلك أن يكون الداعية جبانا مستكينا ، ولكن نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلى والنفسى ، فيعالج مبعث العلة وأصلها بالحكمة والروية وحسن النظر فى مبادئ الأمور ونهايتها ، فذلك السبيل الطبيعى للعلاج ، أما الوثوب على الحوادث الفردية ومظاهر الفساد المتفرقة ، فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة دون تقيد بالنظر فى عواقب الأمور ، وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجل . إن هذا الخطأ يقع فيه الكثير بحسن نية كما وقع من موسى وهو شاب يميد به عنف الشباب . فكانت العاقبة الحتمية أن تنبه الملأ من قوم فرعون إلى خطر هذا الشاب فأتمروا به ليقتلوه ، ولكن الله بالغ أمره وقد أعد موسى ليقوم فى الوقت المناسب برسالته الإصلاحية الخطيرة وقد رأى سبحانه وتعالى أن هذا من شأنه أن يقطع الطريق على الداعى بالقبض عليه أو بقتله وكان من تدبيره جلت حكمته أن أراد له أن ينضج على مهل فى بادية بعيدة فى رعاية نبى صالح ، فقيض له من نصحه بالخروج من المدينة لأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه فخرج منها خائفا يترقب ، فلما تم نضجه عليه السلام وبلغ سن النبوة عاد إلى رأس الفساد يعالجه بالقول اللين وبالبرهان المبين ، دون أن يلتفت إلى مظاهر الفساد التى كانت من قبل تدفعه إلى الخطأ (٢) فأين ذلك من رسولنا

---

(١) سورة القصص .

(٢) تذكرة الدعاة البهى الخولى ص٢٢٣ ، ٢٢٤ بتصرف .

محمد ﷺ الذى كانت الأصنام تحيط بالكعبة وحانات الخمر لا يخلو منها طريق، وبيوت الدعارة بجوار الكعبة ترفع عليها الرايات ليعرفها القاصد ، والنساء يطفن عرايا وهو فى جوف الكعبةما امتدت يده إلى شىء منها تحطمه أو تزيله حتى حطم أصنام القلوب وتعامل معهم وهو الصادق الأمين الرءوف الرحيم ، فإذا بالأيدى التى كانت آثمة بالأمس هى نفسها التى تزيل وتكسر ما كانت تعبد،وهكذا يكون دور الداعية أن يجعل من الشخصيات التى كانت تعبد الصنم والوثن وتشرب الخمر وتلعب الميسر وتئد البنات وتأكل الربا وتسجد لكسرى وقيصر تقول : « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله،ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ».

● مع عمر رضوان الله عليه :

واسمع إلى الإمام مالك والشافعى والبيهقى عن عبد الرحمن القارئ قال : قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل من قبل أبى موسى رضي الله عنه فسأله عن الناس فأخبره ، ثم قال : هل كان فيكم من مغربة خبر ؟ (١) فقال نعم: رجل كفر بعد إسلامه، قال: فما فعلتم به؟ قال : قربناه فضربنا عنقه . قال عمر : فهل حبستموه ثلاثا، وأطعمتموه كل يوم رغيفا ، واستتبتموه ، لعله يتوب ويراجع أمر الله ؟ اللهم إنى لم أحضر ، ولم آمر ، ولم أرض إذ بلغنى .

لقد فقه ذلك الشهيد حسن البنا رضوان الله عليه وعلّم ذلك لأتباعه من الإخوان المسلمين وجعله منهاجا لحركته وأسلوبا لدعوته واسمع إلى ما يقوله الأستاذ: أحمد حسين:

لقد عنّ لى فى شبابى ، وقد كان يحيط بى شباب متدين وكانت الخمارات ومحلات بيع الخمور منتشرة فى كل مكان « أمام المدارس وبجوار المساجد » فعّن لنا أن نقاوم بعمل مادى انتشار الخمر بأسلوب القوة نزولا على قول الرسول ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده . . . الحديث » . فعمد بعض الشباب المحيطين بى فهاجموا متجرين أو ثلاثة لبيع الخمور وحطموا بعض زجاجات الخمر وأراقوا براميله وهاجت الدنيا وماجت واعتبر ما حدث عدوانا على نظام الدولة ، وتصدت لنا حكومة ذلك الزمان بكل قوة وعنف ، ولم يدهشنى ذلك بطبيعة الحال ، فقد كان الإنجليز هم الذين يحكمون مصر ولكن الذى روعنى حقا وأصابنى بخيبة أمل شديدة مقال كتبه الشهيد حسن البنا ، يعترض فيه على الأسلوب الذى انتهجناه وأنا أعلم الآن أنه كان يتحدث بما يمليه الإسلام ، روحا ونصا . كما ظهر لى بعد الدراسة ــ ولكن فى ذلك الوقت غضبت أشد الغضب واعتبرت الأمر مناورة

---

(١) أى هل جاء خبر جديد من بلد بعيد

حزبية ورحت أطالع وأنا فى السجن كل ما قاله فقهاء المسلمين عن حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومدى حق المسلم العادى فى التغيير باليد فإذا بى أفاجأ بإجماع الفقهاء الأربعة على أن تغيير المنكر باليد هو من حق ولى الأمر وحده وليس للأفراد تغيير المنكر باليد وذهلت لهذا الاتفاق وعبثا حاولت أن أجد مخرجا من المأزق الذى وجدت نفسى فيه إذ رحت أتحدث باسم الدين وها هو حكم الدين على عكس ما كنت أتصور وأشهد أننى اقتنعت بذلك إلى الحد الذى جعلنى أكره العنف بقية حياتى بل وأحذر الشباب مما وقعت فيه ، وهكذا كان فقه البنا رضوان الله عليه فهل يفقه الشباب المخلص الغيور على دينه (١) المتحمس على غير فقه أن تفجير حانات الخمر أو محلات الفيديو أو المراقص أو المسارح ليس هو الطريق إلى إقامة دولة الإسلام ، ولذلك فإن الإسلام اعتبر أن منهج الحركة منهج قويم يحتاج إلى الصبر الجميل والنفس الطويل .

● خلط بين البر والمودة :

إن المولى سبحانه وتعالى أمرنا بالبر بالذين لم يحاربونا لأجل الدين ، ولم يخرجونا من أوطاننا أن نبرهم ونحسن إليهم فقال : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩] .

روى عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : قدمت أمى ـ وهى مشركة ـ فى عهد قريش حين عاهدوا رسول الله ﷺ ـ تعنى فى صلح الحديبية ـ فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أمى قدمت راغبة أفأصلها ، قال : نعم صلى أمك ، (٢) فأنزل الله لا ينهاكم الله . . . الآية .

فأنت تلاحظ أن البر حركة جارحة وليست حركة قلبية فنحن نبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم، فالبر والقسط يتصلان بعمل الجوارح دون أن يتغير القلب ويتأثر لأننا لا نحب إلا لله ولا نكره إلا لله فلا يتحرك القلب حركته حبا أو بغضا إلا لله سبحانه وتعالى ولذلك فإن البر والقسط لا يتصلان بالاعتقاد إنما يتصلان بحركات الجوارح «والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى » .

أما المودة فهى حركة تتصل بالقلب فى المقام الأول وحركة القلب تتصل بالاعتقاد

---

(١) مجلة الأزهر ج٤ السنة الخمسون شعبان ١٣٩٨ هـ من مقال للأستاذ أحمد حسين

(٢) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٣٦٤ سورة الممتحنة .

والإيمان، ولذلك فإن المولى هو الذى يجعل للذين آمنوا وعملوا الصالحات ودا، وهو سبحانه الذى جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، ولذلك كان تأليف القلوب من الله سبحانه وتعالى فألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ».

من أجل ذلك فإن المولى سبحانه وتعالى يقول : ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إن من أحب الله عادى أعداءه، ولا يجتمع فى قلب واحد حب الله وحب أعدائه كما لا يجتمع النور والظلام وقال المفسرون : غرض الآية النهى عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين ولكنها جاءت بصورة إخبار مبالغة فى النهى والتحذير قال الإمام الفخر : إنه لا يجتمع الإيمان مع حب أعداء الله ؛ وذلك لأن من أحب أحدا امتنع أن يحب عدوه، لأنهما لا يجتمعان فى القلب، فإذا حصل فى القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان. ولذلك فإن قضية الإيمان بالله تقتضى معاداة أعداء الله قال فى البحر : بدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء ؛ لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد، ثم بالعشيرة لأن بها التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء.

قال ابن كثير : نزلت ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ فى أبى عبيدة بن الجراح قتل أباه يوم بدر ﴿أو أبناءهم﴾ فى الصديق هم بقتل ابنه عبدالرحمن بن أبى بكر ﴿أو إخوانهم﴾ فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أو عشيرتهم﴾ فى حمزة، وعلى، وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة يوم بدر (١) وهكذا يتبين لك الفرق الدقيق بين البر والمودة أولاهما حركة جارحة والثانية حركة قلبية ولذلك أمر الله بالأولى ونهى عن الثانية.

والبر إن كان حركة جارحة إلا أنه لون من ألوان تأليف القلوب، فأمر به المولى حتى مع الكفار الذين لم يقاتلونا أو يخرجونا من ديارنا علّ القلب يلين بهذا التأليف ويكون سببا فى الهداية والعودة إلى الله..

● رابعا : أن تدنيه منك وتلاطفه وتهش فى وجهه ولا تتبع عوراته :

هناك بعض أنواع من السلوك أو الحركات التى إذا فعلها الداعى مع المدعو أدخل السرور على نفسه وهيأه للسماع بنفس راضية، كأن يهش فى وجهه حين يلقاه أو يربت

(١) صفوة التفاسير ج٣ ص ٣٤٤ سورة المجادلة

على ركبتيه أو كتفه أو يدنيه منه وهو يتحدث إليه أو يعطيه وجهه حين الحديث معه والإنصات إليه ؛ حتى يشعر بقرب الداعى منه وقربه منه .

وكلنا يقرأ هذا الحديث الذى فيه من التعلم الكثير فاسمع إليه :

عن ابن عمر حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال: صدقت ، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقت ، قال : أخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : أخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة الضالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان ، قال : ثم انطلق فلبث مليا ثم قال لى : يا عمر أتدرى مَنْ السائل قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » (١)

قال الإمام النووى: « ينبغى للعالم أن يرفق بالسائل ويدنيه منه ليتمكن من سؤاله غير هائب ولا منقبض » ولا شك أن الداعى يجب عليه أن يتحلى بأخلاق العلماء متخذ رسوله ﷺ أسوة حسنة ، ولا يستنكر على المدعو ما يسأل عنه مهما كان السؤال ، وعلى الداعية إذا سئل عما لا يعلم أن يصرح بأنه لا يعلم ولا يكون فى ذلك نقص من مرتبته ، بل يكون دليلا على مزيد ورعه.

إن الداعى يسىء إلى نفسه ودعوته حين ينظر إلى الناس النظرة الدونية أو نظر المستعلى المترفع كأنه يقول لهم بلسان الحال : أنا العالم وأنتم الجهلة وأنا التقى الورع وأنتم الفسقة . وأنا الهادى من الضلالة وأنتم الكفرة الفجرة ، فليتذكر الداعى قول ربه: ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ﴾ ليتذكر حاله قبل هدايته ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ فلا يرمى أهل المعاصى بما يكرهون ولا يكونون فى نظره الفسقة فى أعمالهم ، الكفرة فى اعتقادهم أهل البدع فى عاداتهم وتقاليدهم وشتى سلوكهم فهو بذلك يفرق وينفر ويبغض فإذا هم فرّار لا أذن لهم تسمع ولا قلب يعى . ولذا وجب على الداعى أن يتلطف بهم وأن يربت على أكتافهم ويبتسم فى وجوههم ويناديهم بأحب الأسماء والكنى إليهم قال «حماد بن

(١) صحيح مسلم ج١ ص ١٦٠ كتاب الإيمان .

مسلمة » : إن صلة بن أشيم مر عليه رجل قد أسبل إزاره (إشارة إلى الكبر) فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال : دعونى أنا أكفيكم ، فقال أشيم للرجل : يابن أخى إنى لى إليك حاجة، قال :وما حاجتك يا عم ؟ قال: أحب أن ترفع إزارك فقال :نعم وكرامة ، فرفع إزاره، فقال لأصحابه : لو قرعتموه لقال : لا . ولا كرامة وشتمكم .

وقال محمد بن زكريا الغلابى : شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله ، وإذا فى طريقه غلام من قريش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت ، فاجتمع الناس يضربونه ، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه ، فقال للناس : تنحوا عن ابن أخى ، ثم قال : إلىّ ابن أخى ، فاستحى الغلام ، فجاء إليه فضمه إليه ثم قال له : امض معى ، فمضى معه حتى صار إلى منزله ، فأدخله الدار ، فقال لبعض غلمانه : بيتّه عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ، ولا تتركه ينصرف حتى تأتينى به . فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى ، وهم بالانصراف، فقال الغلام : قد أمر أن تأتيه ، فأدخله عليه فقال له ابن عائشة : أما استحيت لنفسك ؟ أما استحيت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فاتق الله وانزع مما أنت فيه ، فبكى الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال : عاهدت الله عهدا يسألنى عنه يوم القيامة أنى لا أعود للشرب ولا لشىء مما كنت فيه وأنا تائب ، فقال ابن عائشة : ادن منى ، فقبل رأسه ، وقال : أحسنت يا بنى . فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث وكان ذلك ببركة الرفق[1] وجاء غلام (رقيق) لأبى ذر رضي الله عنه ، وقد كسر رجل شاة له ، فقال له: من كسر رجل هذه ؟ قال الغلام : أنا فعلته عمدا لأغيظك فتضربنى فتأثم فقال أبو ذر: لأغيظن من حرضك على غيظى ، فأعتقه فى سبيل الله[2] .

واسمع إلى ما أخرجه المروزى قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين ؟ قال : « حسن الخلق » ، ثم أتاه من قبل شماله فقال : ما الدين ؟ فقال : « حسن الخلق » ثم أتاه من وراءه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه عليه الصلاة والسلام وقال : « أما تفقه هو أن لا تغضب » .

فهل فقه الداعى أنه لابد له من التحلى بأمرين :

١ ــ الترفق بالناس حين يدعوهم .

٢ ــ والامتناع عن الغضب حين يخالطهم .

---

(١) كتاب السلوك الاجتماعى للشيخ حسن أيوب ص٤٧٨ .

(٢) من كتاب منهاج القاصدين المقدسى ص١٩٠

ذلك لأن النفس الإنسانية ألهمها خالقها الفجور والتقوى ولما كانت أهواء الناس تغلب على أحوالهم ، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين فإن نقلهم من الفجور إلى التقى ، ومن العصيان إلى الطاعة ومن الخطأ إلى الصواب وتثبيتهم عليه يحتاج إلى جهد موصول بالحكمة ، ودعوة مستمرة تحتاج إلى وجه لا تفارقه البسمة حين الدعوة والملاطفة حين التحدث وستر العورات وإبراز الحسنات ؛ لأن الدعوة ليست صيحة مبهمة أو صرخة غامضة إنها خطوات مرسومة ، وبرنامج يتعامل مع طبيعة النفس الإنسانية التى من طبيعتها الإقبال والإحجام والانقباض والانبساط ولكى نحسن استخدام مفاتيح القلوب ـ بتوفيق الله ـ لابد وأن نحسن إليها ونرفق بها ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ فتقبل النفس بعد إدبار ، وتستقيم بعد عصيان . روى مسلم أن معاوية بن الحكم السلمى حدث يوما فقال : بينا أنا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله ، فرمانى القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمّياه ، ما شأنكم تنظرون إلىّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمّتوننى سكت ، فلما صلى عليه الصلاة والسلام ، فبأبى هو وأمى ، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فو الله ما نهرنى ، ولا ضربنى ولا شتمنى وإنما قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن (١) واسمع إلى البخارى وهو يقول :

● **الملاطفة بمن يرجى إسلامه إذا كان فى ذلك مصلحة للإسلام :**

فيروى عن سعيد بن أبى سعيد أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال : بعث النبى ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له : ثمامة بن أثال ؟ فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج النبى ﷺ إليه فقال : ماذا عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندى خير ، يا محمد إن تقتلنى تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل ما شئت ، فتركه حتى كان بعد الغد فقال : ما عندك يا ثمامة ، فقال : عندى ما قلت لك ، فقال : أطلقوا ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، يا محمد والله ما كان على وجه الأرض أبغض إلىّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلىّ ، والله ما كان بلد أبغض إلىّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ، فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ؟ قال : لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ (٢) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) البخاري ج٨ ص ٨٧ حديث ٤٣٧٢ .

أرأيت إلى الخير العميم الذى يأتى من وراء الرفق والملاطفة ، كم من أناس يرمون الناس بالكفر والإلحاد ويلهبون ظهورهم بالألفاظ الغليظة ، والكلمات الخشنة والأحكام المتعسفة الجائرة التى لا تستند إلى فقه ويعوزها الدليل ، وكم من كلمة خشنة وأسلوب فظ أبعد كثيرا من الناس عن طريق الإسلام ألا فاسمع إلى الإمام أحمد يروى لنا فى مسنده عن عامر بن واثلة أن رجلا مرّ على قوم فى حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله تعالى ، فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت والله لننبئنه ،ثم قالوا: يا فلان ــ لرجل منهم ــ قم فأدركه وأخبره بما قال، فأدركه رسولهم فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قاله وسأله ــ أى الرسول ــ أن يدعوه فدعاه له ، وسأله الرسول فقال: قد قلت ذلك فقال رسول الله ﷺ: لم تبغضه؟فقال: أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة.

فقال : فاسأله يا رسول الله ، هل رآنى أخرتها عن وقتها ؟ أو أسأت الوضوء لها ؟ أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال : لا ــ ثم استطرد ــ والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر .

قال : فاسأله يا رسول الله ، هل رآنى أفطرت فيه ؟ أو نقصت من حقه شيئا ؟ قال: لا . قال : والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر .

قال : فاسأله هل رآنى نقصت فيها أو ما كست فيها طالبها الذى يسألها فسأله فقال : لا فقال رسول الله ﷺ : قم فلعله خير منك (١) .

● لا تتألى على الله :

إن بعض الناس وهم يدعون الناس للخير يسمح لنفسه أن يتألى على الله فيحكم بحرمان مسلم من مغفرة ربه ، وهو إن فعل ذلك فإنه يصبح وهو لا يدرى أسوأ حالا وأشقى مآلا من المذنب نفسه ، الذى يتفضل الله سبحانه عليه بالمغفرة حين يقف ذليلا بسبب معصيته بين يدى ربه بينما نأت بالمعجب تزكيه نفسه بعيدا .

واسمع إلى الإمام مسلم وهو يقول : قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عز وجل : من ذا الذى يتألى علىّ ألا أغفر لفلان ، إنى غفرت وأحبطت عملك (٢) .

إن قسوة الداعى تضاعف العبء على كاهل المدعو ، وبدل أن يكون الداعية مع أخيه

---

(١) الفتح الرباني لترتب مسند الإمام أحمد من كتاب من الذي يغير المنكر ص ٥٣ .

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب .

المسلم على الشيطان يصبح عونا للشيطان على أخيه فلا يستطيع أن يؤوب إلى الله ، ولذلك فإن ابن القيم فى مدارج السالكين يقول : وكل معصية عيّرت بها أخاك فهى إليك. ومعنى ذلك أنه يحتمل أن يريد به أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها ،وهذا مأخوذ من الحديث الذى رواه الترمذى فى جامعه عن النبى ﷺ : « من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » قال الإمام أحمد فى تفسير هذا الحديث : من ذنب قد تاب عنه ، وأيضا ففى التعبير ضرب خفى من الشماتة بالمعير ، وفى الترمذى أيضا مرفوعا « لا تظهر الشماتة ، بأخيك فيرحمه الله ويبتليك » ويحتمل أن يريد أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثما من ذنبه وأشد من معصيته إنك إن تبيت نائما وتصبح نادما ، خير من أن تبيت قائما وتصبح معجبا» فإن المعجب لا يصعد له عمل ، وإنك إن تضحك وأنت معترف ،خير من أن تبكى وأنت مدل، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين ، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلا هو منك ولا تشعر فلله فى أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو ولا يطالعها إلا أهل البصائر فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر ، ووراء ذلك مالا يطلع عليه إلا الكرام الكاتبون (١) .

● ليكن قلبك وعاء للحب :

إن مهمة الداعى الأساسية تطهير نفسه من الغيظ وشهوة الانتقام من مخالفيه فى دعوته فليكن قلبه وعاءً للحب وإرادة التوفيق لهم وبدون ذلك لا تكون دعوة ولا دعاة .

ما أطيب النفس حين تنصاع لتوجيه ربها فتلين وتطمئن وتفعل ما أمرك الله به ، وهنا يخرج الداعى من حظ نفسه ويقول: لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . الله الله على الداعى وهو يقرأ قول ربه : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم ﴾

روى عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : قدمت أمى ــ وهى مشركة ــ فى عهد قريش حين عاهدوا رسول الله ﷺ ــ تعنى فى صلح الحديبية ــ فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها قال : نعم صلى أمك (٢) فأنزل الله هذه الآية الكريمة .

ولقد أنكر رسول الله ﷺ على أبى بكر قسوته على أبيه كما روى لنا ابن جرير قال : حدثت أن أبا قحافة سب النبى ﷺ فصكه أبو بكر ــ ابنه ــ صكة فسقط فيها على وجهه ثم أتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فقال : أفعلته لا تعد إليه ، فقال : والذى بعثك بالحق نبيا

(١) مدارج السالكين لابن القيم ج١ ص ١٧٦، ١٧٧ بتصرف . (٢) ابن كثير .

لو كان السيف منى قريب لقتلته .

● **ستر العاصى :**

إن الداعى مطالب بأن يستر العاصى ولا يفضحه ، ويعينه على ترك المعاصى بفتح باب التوبة له . . . ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ... ﴾ (١) إن طاعة الداعى أحيانا تنسيه نعمة توفيق الله له وينسى قول ربنا: ﴿ كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم .. ﴾ فيزهو بنفسه فيقع فى ذل المعصية فإذا به نفسه فى حاجة إلى التذكير حتى يفيق من النشوة التى أنسته نفسه ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ .

واستمع إلى أدب الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فيما أخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء حبيب بن الحارث إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى مقراف للذنوب ــ أى كثيرها ــ قال ﷺ : فتب إلى الله يا حبيب ، فقال : يا رسول الله إنى أتوب ثم أعود ، فقال : كلما أذنبت فتب ، قال : إذن تكثر ذنوبى ، قال : عفو الله أكبر من ذنوبك يا حبيب بن الحارث . أجل إن عفو الله أكبر ، وتوفيقه أقرب من حبل الوريد إن أخلص العبد فى توبته ، ولقد أذنب الإمام الزهرى ذنبا ، وماذا يكون ذنب الزهرى فمهما جل من ذنوب الناس فاستعظم رضي الله عنه ذنبه ، وذهب هائما على وجهه يقول : ذنبى أكبر من السماء ، ذنبى أكبر من الهواء، ذنبى أكبر من الماء، فبلغ أمره أحد أبناء الحسن بن على رضي الله عنه فقال: لقد ارتكب الزهرى ذنبا أعظم، إذ ظن أن رحمة الله لا تتسع لغفران ذنبه، قالوا: فلما سمع الزهرى ذلك استقرت نفسه وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته. إن بعض الدعاة يجهد نفسه ويضيع عمره فى تتبع سوءات المسلمين فى محاولة مستمرة لإحصاء أعمالهم عليهم، وربما سخر لذلك كل إمكانياته، وفى الوقت الذى يعفو الخالق سبحانه عن عباده ويسترهم يأبى المخلوق الضعيف إلا التشهير والتدمير ، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ فقدم المغفرة على العقاب ليستثير همة العاصى فيسرع إلى التوبة .

عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذ بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه هلك قال :

---

(١) سورة الزمر.

فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، أما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين [١] .

ولذلك ما أفقه عمر بن الخطاب رضوان الله عليه وهو يعترف بخطئه حين شعر بأنه يتتبع عورات الآخرين : أخرج عبد الرازق بن حميد والخرائطى عن المسور بن مخرمة عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه حرس مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة المدينة ، فبينما هم يمشون شب لهم سراج فى بيت فانطلقوا يؤمونه ، فلما دنوا منه إذا باب مجاف (من أجاف الباب أى رده عليه) على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط ،فقال عمر ، وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف : أتدرى بيت من هذا ؟ قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب (بفتح الشين وسكون الراء الجماعة يشربون الخمر) فماذا ترى ؟ قال : أرى أن قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فقد تجسسنا ، فانصرف عنهم رضي الله عنه وتركهم [٢] .

وأزيدك فأقول عن الشعبى : إن رجلا أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : لى ابنة كنت وأدتها (دفنتها حية) فى الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنا الإسلام فأسلمت : فلما أسلمت أصابها حد من حدود الله [٣] تعالى فأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها (ما أحاط بالعنق من العروق التى يقطعها الذابح) فداويناها حتى برئت ، ثم أقبلت بعد توبة حسنة ، وهى تخطب إلى قوم فأخبرتهم من شأنها بالذى كان ، فقال عمر : تعمد إلى ستر الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، بل انكحها نكاح العفيفة المسلمة [٤] وها هو ذا رسول الله ﷺ بعد أن جاء عكرمة بن أبى جهل مع زوجته بعد أن استأمنت له رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ لأصحابه : يأتيكم عكرمة بن أبى جهل مؤمنا مهاجرا فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحى ولا يبلغ الميت . فكم من الدعاة يسترون الذنوب ؟ وكم من الدعاة يهدون العيوب ؟ وكم من الدعاة يشفقون على العصاة ؟ وكم من الدعاة لا ييأسون من إيمان الكافر واستقامة الفاجر ، وإخلاص المنافق ، ألا فليعلموا أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فكم من إنسان بات مؤمنا وأصبح كافرا وكم من كافر بات كافرا وأصبح مؤمنا والعبرة بالخواتيم « وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار . . . الحديث » أخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب

---

(١) تفسير سورة المجادلة لابن كثير .
(٢) حياة الصحابة ج ٢ ص ٤٠٤ .
(٣) أصابها حد أى زنت .
(٤) الكنز ج٢ ص ١٥٠ .

رضي الله عنه ففقده عمر فقال : ما فعل فلان بن فلان ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين تتابع فى هذا الشراب . قال : فدعا عمر كاتبه فقال : « اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك . فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير » ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب إلى الله ، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده ويقول : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب قد حذرنى عقوبته ، ووعدنى أن يغفر لى ، فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع ، فلما بلغ عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زل زلة فسددوه ووثقوه وادعوا لـه أن يتوب ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه (١) .

● **خامسا : أن تعطيه وجهك حين التحدث إليه ، ولا تقاطعه ولا تستهزئ بقوله :**

لاشك أن أدب الداعى يجذب المستمع إليه ، وخاصة إذا أقبل بحديثه على من يدعوه بالنظر إليه والاهتمام به حتى يشعره بأنه يهتم به ويستريح للقائه فيملك قلبه ويعمق آصرة المحبة والثقة بينه وبينه ، وله فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة إذ كان يقبل ﷺ بوجهه وحديثه على شرّ القوم يتألفه بذلك .

وهو إذ يتحدث إلى مستمعه يتكلم بتؤدة وتمهل حتى يفهم السامع ما يقول . روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسردكم هذا، يحدث حديثا لو عدّه العاد لأحصاه » وفى رواية أبى داود : كان كلام رسول الله ﷺ « فصلا يفهمه كل من سمعه » وكان ﷺ : إذا حدثه أحد التفت إليه بوجهه وجسمه، وأصغى إليه تمام الإصغاء ولا يقطع الحديث حتى يكون المتكلم هو الذى يقطعه (٢) . فحين ناقش عتبة ابن ربيعة زعيم بنى أمية رسول الله ﷺ والتى عرض فيها عروضا ظنوها مغرية لرسول الله ﷺ ــ إن كنت تريد مالا أعطيناك ،وإن كنت تريد سيادة سودناك علينا ــ إلى آخر ما قالوا صمت رسول الله ﷺ ــ ليسمع إلى عتبة ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : أو تسمع منى ؟ قال : أفعل فقال: بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (٣) . . . الآيات.

فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى ظهره معتمدا عليها يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

---

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ١٥٦ . (٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٧٠ حياة الصحابة ج٣ ص٣٣٨.
(٣) كتاب مع الله للشيخ الغزالي ص ١٧٩ .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكون لقوله الذى سمعت نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به قالوا : سحرك يا أبا الوليد ، قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم (١) .

● أدب الحوار :

وأنت ترى خلقا فاضلا ، وأدبا جما ، ومستوى عاليا فى الحوار ، إنه أدب الحوار مع الخصوم لا أقول من العصاة ، إنما أقول من المشركين ، فلقد جلس رسول الله ﷺ يسمع لهذه العروض الهزيلة السخيفة من عتبة بن ربيعة ، والتى تصورها أعداء الإسلام دائما إغراء وإغواء وجذبا لأصحاب الدعوات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ومع جهل هذا العدو يتسامى الداعى إلى الله عن الدنيا كلها التى لا تساوى فى نظره جناح بعوضة لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق .

أقول مع هذا كله ، فإن رسول الله ﷺ لم يقاطعه بالرغم من باطله وتفاهة عرضه بل لم يبد اشمئزازا من كلامه ، والأكثر من ذلك أن يفسح له المجال للمتابعة كى يفرغ كل ما فى جعبته ، ثم يسأله أو قد فرغت يا أبا الوليد ؟ وتأمل مخاطبته بكنيته « يا أبا الوليد » يناديه بكنيته المحببة إليه سماعها وهو رأس الكفر ليألف قلبه .

يا ليت الشباب يعى هذه الدروس المستفادة ، ليته يحترم خصمه كما فعل رسول الله ﷺ ويتكلم معه بأدب بالغ وتقدير جم ويكنيه بكنيته .

إن بعض الشباب بعد أن ينعم الله عليه بنعمة الإسلام يصبح فظا غليظ القلب لا يوقر كبيرا ولا يرحم صغيرا ، يحدث أستاذه بما لا يليق ، ويسخر منه ولا يعطيه حقه من الاحترام لأنه من العصاة الذين ما أطلقوا لحاهم وما ارتدوا جلبابا وما أمسكوا سواكا هؤلاء ما تعلموا أدب الحديث ولا عرفوا فقه الدعوة وأخلاق الداعية وفقهوا ما هو من صلب العقيدة وما هو خارج عنها فنفروا الناس منهم وكسبوا عداوتهم . وما علموا أن من أمر بمعروف فليكن أمره بالمعروف ، كل ذلك بسبب أن الواحد منهم قد قرأ كتابا أو حديثا وتعلم منه رأيا فظن أن الحق كله فيه ومعه فاعتبره من مسائل العقيدة أو المسائل التى لا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣١٤ .

خلاف فيها ثم خاصم وهجر وقاطع أخا له فى الدعوة وعبس فى وجهه وبنى أحكاما على فهمه هذا ،وضاق صدره بالرأى الآخر . إن أهم نقطة ينطلق منها الداعى أن يتسع صدره لاستماع وجهة نظر خصمه مهما كانت وجهة النظر هذه مرفوضة أو مقبولة لنا ، سامية أو منحطة لأننا بذلك نضمن أن يستمع خصمنا لنا ، ويتسع صدره لوجهة نظرنا ، وما لم نملك هذه الخاصية الهامة فلن نربح الحوار مع عدونا .

إن هذا الموقف علمنا أن أولى مراحل انتصارك أن تهزم عدوك من داخله ، وعتبة لم يسلم ولكنه هزم نفسيا أمام نصاعة الدعوة ، وبلاغة القرآن ، ترى ذلك من حديثه بينه وبين إخوانه بعد عودته من عند رسول الله ﷺ . وبهذا الأسلوب من الأدب الرفيع استطاع رسول الله ﷺ أى يحيّد رأسا من رؤوس الكفر ويجعله ينسحب ووراءه جمع كبير هم قبيلة بنى أمية ، وهذه سياسة حكيمة ودعوة بصيرة ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** ﴾ .

روى الإمام أحمد عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت : كان أبو الدرداء إذا حدث حديثا تبسم فقلت : لا يقول الناس إنك أحمق ؟أى بسبب تبسمك فى كلامك ــ فقال أبو الدرداء : ما رأيت أو سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثا إلا تبسم ــ فكان أبو الدرداء إذا حدث حديثا تبسم اتباعا لرسول الله ﷺ فى ذلك .

● **سادسا : أن تحاوره دون تعال عليه وتنزله منزلته :**

كان رسول الله ﷺ ينزل الناس منازلهم ، فكان يوقر الكبير ويعطف على الصغير ، ويكرم من كان له سبق فى الإسلام .

يقول ابن كثير : كان النبى ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر منهم « ثابت بن قيس » وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبى ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على النبى ﷺ فقال لمن حوله ــ من غير أهل بدر ــ : قم يا فلان ، قم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وطعن المنافقون فى ذلك وقالوا : ما عدل مع هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس مَنْ أبطأ عنه!!! فأنزل الله تعالى﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . . .** ﴾ الآية[1].

بهذا الأدب الجم يقتدى المسلم،ويسلك الداعى،فيحترم من سبقه الطريق ويسمع إلى

---

(١) تفسير ابن كثير سورة المجادلة .

من أعطاه الله علما وتقى وورعا لا تستهزئ بهم ولا تسخر منهم بل تعط كل ذى حق حقه واستمع معى إلى هذا الموقف التربوى الرائع من رسول الله ﷺ : مرّ ﷺ به يوما رجل ، فقال لرجل عنده جالس معه : ما رأيك فى هذا ؟ فقال رجل من أشراف الناس : هذا والله حرى إن خطب أن يزوج ، وإن شفع أن يشفع فسكت رسول الله ﷺ . ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ : ما رأيك فى هذا ؟ فقال يا رسول الله : هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا والله حرى إن خطب ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال لا يسمع لقوله ، فقال رسول الله ﷺ : هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا ؟ فهو هنا ﷺ يقارن بين غنى خبث باطنه وحسن ظاهره ، وبين فقير طاب باطنه وهان مظهره ، وتلك من اللفتات النبوية الدقيقة التى من شأنها أن تظهر لك المفارقة الشاسعة بين هذين الطرفين، وقال فى هذا المعنى يوما لأبى ذر: أترى كثرة المال هى الغنى ، قلت : نعم يا رسول الله. قال : فترى قلة المال هى الفقر ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب ، ثم قال أبو ذر : فسألنى عن رجل من قريش هل تعرف فلانا؟ قلت: نعم يا رسول الله . قال : فكيف تراه ؟ قلت : إذا سأل أعطى وإذا حضر أدخل . قال : ثم سألنى عن رجل من أهل الصفة فقال : هل تعرف فلانا ؟ قلت: لا والله ،فما زال يجلّيه وينعته حتى عرفته ،قال : كيف تراه ؟ قلت : هو رجل مسكين من أهل الصفة قال: فهو خير من طلاع الأرض من الآخر (١) .

وهكذا يتعلم المسلمون من دروس رسول الله ﷺ كيف ينزلون الناس منازلهم ،وربما يقول قائل : كل ما أشرت إليه يتصل بإنزال المسلمين منازلهم وهذا أمر لا يختلف فيه مسلم، لكن غير المسلم مهان ذليل لا يجب احترامه .

فنقول وبالله التوفيق : إن هذا القول مردود على صاحبه ، فإننا أمرنا أن ننزل الناس منازلهم كما روى أبو الدرداء عن ميمون بن أبى شيبة رحمه الله : أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « أنزلوا الناس منازلهم » وفى رواية . أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم .

وروى الترمذى عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أكرم شاب شيخا لسنّه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » وأنت ترى رسول الله ﷺ يقول : «أنزلوا الناس » كل الناس ولم يقل أنزلوا المسلمين أو المؤمنين ، بل كل الناس ، وكذلك إكرام الشيخ أى شيخ لأن الإسلام دين الأخلاق الفاضلة .

---

(١) الدعوة والداعية للبهى الخولى ص ١٧٥ .

واسمع إلى ما رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن شهاب بن عباد أنه سمع وفد عبد القيس وهم يقولون : قدمنا على رسول الله ﷺ فاشتد فرحهم فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا فقعدنا ، فرحب بنا النبى ﷺ ودعانا ثم نظر إلينا فقال : من سيدكم ؟ فأشرنا جميعا إلى « المنذر بن عائذ » فلما دنا منه المنذر أوسع القوم له حتى انتهى إلى النبى ﷺ فقعد عن يمين رسول الله ﷺ فرحب به وألطفه وسأله عن بلادهم . وما أوضح ما رواه الشيخان أن سعد بن معاذ سيد الأوس لما دنا من المسجد قال النبى ﷺ للأنصار : « قوموا إلى سيدكم أو خيركم » .

وأزيدك فقهنى الله وإياك ــ فعن عدى بن حاتم قال : أتينا عمر فى وفد ، فجعل يدعو رجلا رجلا ويسميهم فقلت : أما تعرفنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى أسلمت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا ، فقال عدى : فلا أبالى إذا » (١) .

أى إذا كنت تعرف قدرى يا أمير المؤمنين فلا أبالى إذا قدمت علىّ غيرى ولقد ذكر فى كتب السيرة أن رسول الله ﷺ حين طلب الجوار من الحليس بعد عودته من الطائف رفض، فطلبها من سهيل بن عمرو فرفض ، ورحب بها مطعم بن عدى فدخل رسول الله ﷺ فى جواره (حمايته) .

فلم ينس رسول الله ﷺ للمطعم هذا الموقف النبيل ، وإذا به يتذكره يوم بدر ، يوم أن وقع عدد من المشركين أسرى فى يدى رسول الله ﷺ ، وإذا برسول الله ﷺ ، يتذكر فضل المطعم يوم عودته من الطائف ، فيقول ما معناه ــ والله لو أن المطعم حيا وطلب منى فك أسرهم لأجبته .

إنه ﷺ ينزل هذا المشرك منزلته حتى بعد موته ، فأى أخلاق عالية هذه وأى قمة سامقة يُقتدى بها صلوات الله وسلامه عليه وها هو ذا العباس يجىء بأبى سفيان إلى رسول الله ﷺ ليسلم فبعد أن أسلم قال العباس لرسول الله ﷺ : إن أبا سفيان يحب هذا الفخر فاجعل له شيئا ، قال : نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ،ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن (٢) .

فهل من الدعوة فى شىء الاستخفاف بالناس ، واحتقار الكبير ، والتعالى على ذوى المركز والسلطان ونحن نخاطبهم ، هل من الإسلام ألا نحترم الرئيس ، ونسب الوزير ، ونتبجح على المدير ، ونسفه أراء من يكبرنا سنا ومركزا ، ليس هذا من الإسلام فى شىء.

---

(١) البخارى ج ٨ ص ١٠٢ حديث ٤٣٩٤ . (٢) حياة الصحابة للكاندهلوى ج ١ ص ١٤٤ .

الله ، الله على تلامذة رسول الله ﷺ الذين تعلموا على يديه ، واقتدوا به ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ ألا فاستمع إلى قصة إسلام سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فبعد وصول مصعب بن عمير إلى المدينة نزل على أسعد بن زرارة ، فكان أسعد بن زرارة يطوف به على دور الأنصار لدعوتهم إلى الدين . فخرج به يريد دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر، وكان سعد بن معاذ ، ابن خالة أسعد بن زرارة، دخل أسعد ومصعب حائطا (مزرعة) من حوائط بنى ظفر فقالا (أى أنهما قضيا وقت القيلولة) على بئر يقال له : بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا قومهما ـ لم يسلما بعد ، فقال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين الذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا. فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث علمت، كفيتك ذلك. . . هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدما.

فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك ، فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه ، فوقف عليهما متشتّما فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة قال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته ، كفّ عنك ما تكره ؟ قال : أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما . فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن ثم عرف فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله .

ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه . وسأرسله إليكما : « سعد بن معاذ» ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهو جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله ، لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ! فلما وقف على النادى ، قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما ، فقالا: نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك (ليغدروك) فقام سعد مغضبا مبادرا ، تخوفا للذى ذكر له من بنى حارثة ، فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا ، ثم خرج إليهما ، فما رآهما سعد مطمئنين ، عرف سعد أن أسيد إنما أراد أن يستدرجه إليهما ليسمع منهما .

وقف عليهما متشتما . . . ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما

بينى وبينك من قرابة ما رمت هذا منى . . . أتغشانا فى دارنا بما نكره ؟ وقال أسعد بن زرارة لمصعب ، حينما رأى سعداً مقبلا : أى مصعب ،جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان ؟ قال مصعب مخاطبا سعدا : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلت عنك ما تكره ؟ قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ،وقرأ عليه القرآن فعرف فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم . . . ثم فعل ما فعله زميله أسيد ، وتم إسلامه . فلما رجع إلى قومه ، وقف عليهم فقال : يا بنى عبد الأشهل ،كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأوصلنا ، وأفضلنا رأيا ، وأيمننا نقية . قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . فما أمسى فى دار بنى الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة وكانت دارهم أول دار من الأنصار أسلم رجالها ونساؤها ثم كانت دار سعد بن معاذ بعد إسلامه مركز الدعوة الإسلامية فى المدينة (١) .

فهل فقه الشباب الدروس المستفادة من هذه القصة ؟ وهل وقفوا على إشارة أسعد بن زرارة لمصعب بأن « هذا سيد قومه » لينزله منزلته ، ويعطيه قدره واحترامه وهو المشرك فى ذلك الوقت ، وهل تأملت ما قاله مصعب لكل منهما: « أو تجلس فتسمع » كأنه يستسمحه فى القعود ويستثير عاطفته ، ويرغبه فى مجالسته ، وهو الذى قال لمصعب : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا . . . فماذا كانت الإجابة من تلميذ رسول الله ﷺ : أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره . . . أى أدب جم هذا الذى تعلموه فى مدرسة رسول الله ﷺ . . . وما الذى يكرهه حتى يكفه عنه . . . شرح الإسلام وسماع القرآن،فإن كان هذا مما يكرهه فلن يُسْمعه ،ولن يُكْرِهَه ولن يجبره وصدق الله حين قال : ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ﴾ ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾.

بالله عليك لو كان هذا الموقف مع بعض دعاة اليوم من الشباب ، ماذا هم صانعون ؟ سيقولون له :يا كافر ،اسمع أو لا تسمع فلابد من تبليغ كلمات الله ، أو يقولون: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم . . . ﴾ أو يقولون صدقت ربنا حين قلت: ﴿وقودها الناس والحجارة . . . ﴾ فليت الشباب يعى أننا دعاة ولسنا قضاة.

● **سابعا : أن تُسرَّ إليه بالموعظة ولا تكاشفه بين الناس :**

جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها ، والنصيحة طعمها

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٣٥ .

مر وقد تنقلب إلى فضيحة إن أسيئت ، ومن واجبنا أن نجعل النصيحة خالصة لوجه الله ومهذبة تسر بها فى أذن من تريد نصيحته ، فلقد كان رسول الله ﷺ إذا أتى أحد فى مجلسه شيئا منافيا يقول : ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا .

ولأن الدعوة يقصد بها وجه الله وهى الغاية فلابد وأن يكون للوسيلة من شرف الغاية ما ينأى بها عن التشهير والتنكيل بالعصاة مدفوعين بشهوات الانتقام والاستعلاء والرغبة فى كشف المخبوء.

فليعلم الداعى إلى الله أن كسب القلوب أهم من كسب المواقف . فعليه أن يتحرى الأسلوب الأقوم ، والتعبير الأكرم فى إسداء النصح ، فيسديه على انفراد لأن ذلك أوقع فى النفس ، وأحوط من دخول الشيطان إليه ، وصدق على بن أبى طالب حيث يقول : «النصح بين الملأ تقريع » إن تخير الكلمة المناسبة ، والوقت المناسب لهو من توفيق الله بلا شك ، فكم من كلمة لم يلق لها الداعى بالا أورثت أحقادا وعداوات ، وتسببت فى انفصام العرى إلى الأبد، فليحاذر الداعى سقطات اللسان وليذكر قول نبيه ﷺ: « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » (١) .

أخرج البيهقى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنت مع عمر فى حج أو عمرة فإذا نحن براكب فقال عمر : أرى هذا يطلبنا ، فجاء الرجل فبكى ، قال : ما شأنك ؟ إن كنت غارما أعناك ، وإن كنت خائفا أمناك إلا أن تكون قتلت نفسا فتقتل بها ، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم ، قال : إنى شربت الخمر وأنا أحد بنى تميم وإن أبا موسى جلدنى وسود وجهى وطاف بى فى الناس ، وقال : لا تجالسوه ولا تؤاكلوه ، فحدثت نفسى بأحد ثلاث : إما أن أتخذ سيفا فأضرب به أبا موسى ، وإما أن آتيك فتحولنى إلى الشام ، فإنهم لا يعرفوننى ، وإما أن ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب ، فبكى عمر وقال : ما يسرنى أنك فعلت وإن لعمر كذا وكذا ، وإنى كنت لأشرب الناس لها فى الجاهلية ، وإنها ليست كالزنا وكتب إلى أبى موسى : سلام عليك أما بعد ، فإن فلانا بن فلان أخبرنى بكذا وكذا ، وأيم الله ، إنى إن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك فى الناس ، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول لك فعد فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه ، فإن تاب فاقبلوا شهادته ، وحمله وأعطاه مائة درهم » (٢) .

تأمل فقه الدعوة أيها الأخ المسلم فإن القاضى يصدر الحكم أما الداعى فإنه يعين على تنفيذه وتطبيقه ويحرص على المدعو من الشيطان حرصه على نفسه . أى فقه هذا الذى

---

(١) رواه أحمد .

(٢) الكنز ج ٣ ص ١٠٥ .

يعلمنا إياه عمر رضي الله عنه وأرضاه مع شارب خمر ووال من ولاة المسلمين بل وصحابى جليل، يهدده لأنه أساء الدعوة ،وأعان الشيطان على مسلم حتى جعله يفكر فى قتله والتخلص منه أو يلحق بأرض العدو ، نتيجة التشهير به والغلظة معه . وحق للإمام البخارى أن يقّعد قاعدة يقول فيها :

« الإسرار بالنصيحة أولى من الإعلان ، وقد يتعين إذا جر الإعلان إلى مفسدة » (١) أى قد يتعين الإسرار لا من باب أولى ولكن من باب الوجوب إذا جرّ الإعلان إلى مفسدة .

وهاك موقف تربوى عال نتعلمه من رسول الله ﷺ حين يعالج أمرا من الأمور ويأخذ بيد مسلم لمعالى الأمور ، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كان الفضل رديف رسول الله ﷺ ، فجاءت امرأة من خثعم فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل النبى ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر ، فقالت : إن فريضة الله أدركت أبى شيخا كبيرا لا يثبت على راحلة أفأحج عنه ؟ قال : نعم وذلك فى حجة الوداع . وكان الفضل رجلا وضيئا ، والمرأة وضيئة فأعجبه حسنها ، وفى رواية فالتفت النبى ﷺ والفضل ينظر إليها فأخلف بيده بذقن الفضل فدفع وجهه عن النظر إليها وفى رواية الطبرى فى حديث على « وكان الفضل غلاما جميلا ، فإذا جاءت الجارية من هذا الشق صرف رسول الله ﷺ ،وجه الفضل إلى الشق الآخر، فإذا جاءت إلى الشق الآخر صرف وجهه عنه.. وقال فى آخره ـ رأيت غلاما حدثا وجارية حدثة فخشيت أن يدخل بينهما الشيطان وفى رواية أحمد وابن خزيمة عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال للفضل حين غطى وجهه يوم عرفة : « هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له » (٢) .

آه لو رأى ذلك بعض من يتصدون للدعوة الآن لأسرعوا بالحكم عليه فهو عندهم الفاجر والعاصى ولأمطروه بوابل من النصائح أو إن شئت فقل : القذائف التى تهلكه أو تدفعه إلى طريق الغواية ولا يعينونه على طريق الهداية ،ألا فتأمل قول الرسول وفعله إشعار الفضل بالحرص عليه والخوف عليه من الشيطان الذى يجرى من ابن آدم مجرى الدم .

يا شباب هذا فقه رسولكم ومنهج نبيكم ، فهل لكم فيه أسوة حسنة ؟ صدقت يا رسول الله صلوات الله وسلامه عليك حين قلت :« أفضل الناس أعقل الناس وفيه أن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر وإنما يقرب من ربهم بالزلفى على قدر عقولهم » (٣) .

---

(١) البخارى ج ١ ص ٧٩ حديث ٢٧ . (٢) البخارى ج ٤ ص ٧٦ حديث ١٨٥ .

(٣) من كتاب مؤتمر سورة يوسف ج ١ ص ١٠٣ .

● ثامنا .. إعطاؤه بعض الهدايا والعطايا تأليفا لقلبه :

يقول ربنا عز وجل : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠].
وفى هذه الآية أخى المسلم ترى مصرفا من مصارف الزكاة للمؤلفة قلوبهم « وهم قوم من أشراف العرب أعطاهم رسول الله ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام ، روى الطبرى عن صفوان بن أمية قال : لقد أعطانى رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إلىّ فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىّ » (١) .

ويقول الشهيد سيد قطب فى ظلاله : هم طوائف ،منهم الذين دخلوا حديثا الإسلام ويراد تثبيتهم عليه ، ومنهم الذين يرجى أن تتألف قلوبهم فيسلموا ، ومنهم الذين أسلموا وثبتوا ويرجى تأليف قلوب أمثالهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزدادون وهناك خلاف فقهى حول سقوط سهمهم هؤلاء المؤلفة قلوبهم بعد غلبة الإسلام ولكن المنهج الحركى لهذا الدين سيظل يواجه فى مراحله المتعددة كثيرا من الحالات التى تحتاج إلى إعطاء جماعة من الناس على هذا الوجه ،إما إعانة لهم على الثبات على الإسلام إن كانوا يحاربون فى أرزاقهم لإسلامهم ، وإما تقريبا لهم من الإسلام كبعض الشخصيات غير المسلمة التى يرجى أن تنفع الإسلام بالدعوة له والذب عنه هنا وهناك ، ندرك هذه الحقيقة فترى مظهرا لكمال حكمة الله فى تدبيره لأمر المسلمين على اختلاف الظروف والأحوال (٢) .

وقال فى تفسير المنار : « هم الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم وجمعها على الإسلام أو تثبيتها عليه لضعف إسلامهم ، أو كف شرهم عن المسلمين ، أو جلب نفعهم فى الدفاع عنهم » وإذا كان الإسلام قد خصص نصيبا لتأليف القلوب يصرف على مستوى الدولة الإسلامية أو الجماعة إلا أنه فتح باب الهدية كذلك لتأليف القلوب على مستوى الأفراد ، وإشاعة المودة والحب بين الناس ، فقد ورد عن الرسول ﷺ « تهادوا تحابوا » وقال أيضا : « تهادوا فإن الهدية تذهب وخز الصدر (الحقد) » وقد كان النبى ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ويدعو إلى قبولها ، ويرغب فيها فقد ورد عنه أنه قال : « من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله إليه » وحث على قبول الهدية ولو كانت شيئا حقيرا فقد روى عنه ﷺ أنه قال : « لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو دعيت إليه لأجبت » (٣) .

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٦٢ . (٢) الظلال ج ٣ سورة التوبة ص ١٦٦٩ .
(٣) من فقه السنة للشيخ سيد سابق باب الهبة بتصرف .

قال الإمام البخارى بسنده : حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنا عامر بن سعد بن أبى وقاص عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى رهطا . . وسعد جالس . فترك رسول الله ﷺ رجلا هو أعجبهم إلىّ . فقلت : يا رسول الله ما لك عن فلان ؟ فوالله إنى لأراه مؤمنا ، فقال : أو مسلما ، فسكتّ قليلا ، ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقالتى فقلت : ما لك عن فلان ؟ فوالله إنى لأراه مؤمنا . فقال: أو مسلما ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقالتى ، وعاد رسول الله ﷺ ثم قال : « يا سعد إنى لأعطى الرجل ، وغيره أحب إلىّ منه خشية أن يكبّهُ الله فى النار » (١) .

ومحصل القصة أن النبى ﷺ كان يوسع العطاء لمن أظهر الإسلام تألفا فلما أعطى الرهط وهم من المؤلفة قلوبهم وترك جعيلا بن سراقة الضمرى وهو من المهاجرين مع أن الجميع سألوه خاطبه سعد فى أمره لأنه كان يرى أن جعيلا أحق منهم لما اختبره منه دونهم، ولهذا راجع فيه أكثر من مرة ، فأرشده النبى ﷺ إلى أمرين :

١ ـ إعلامه بالحكمة فى إعطاء أولئك وحرمان جعيل مع كونه أحب إليه ممن أعطى لأنه لو ترك إعطاء المؤلف لم يؤمن ارتداده فيكون من أصحاب النار .

٢ ـ إرشاده إلى التوقف عن الثناء بالأمر الباطن دون الثناء بالأمر الظاهر ، فوضح بهذا فائدة رد الرسول ﷺ على سعد ، وأنه لا يستلزم محض الإنكار عليه ، بل كان أحد الجوابين على طريق المشورة ، والآخر عن طريق الاعتذار (٢) .

وأنت ترى حكمة رسول الله ﷺ ، وتعليمنا فقه الدعوة بأن تألف القلوب ببعض العطايا والهدايا ليعم الخير ، ويسود الحب بين الجميع وكان ﷺ خبيرا بالنفوس فيعطى هذا، ويمنع ذلك ثم يبين لأصحابه حكمة العطاء والمنع .

حدثنا عمر بن تغلب أن رسول الله ﷺ أتى بمال ـ أو سبى ـ فقسمه فأعطى رجالا وترك رجالا ، فبلغه أن الذين ترك عتبوا ، فحمد الله ثم أثنى عليه ثم قال : أما بعد فوالله إنى لأعطى الرجل والذى أدع أحب إلى من الذى أعطى ، ولكن أعطى أقواما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير ، فيهم عمرو بن تغلب ، فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم (٣).

وكان عطاء رسول الله ﷺ لا ينفد فما سأله أحد إلا أعطاه فعن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى رضي الله عنهما : أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم

---

(١) البخارى ج ١ ص ٧٩ حديث ٢٧ .
(٢) البخارى ج ١ ص ٧٩ حديث ٩٢٣ .
(٣) البخارى ج ٢ ص ٤٠٣ حديث ٩٢٣ .

سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : « ما يكن من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر »(١) .

أرأيت كيف يتعامل ﷺ مع النفوس ، قوم يعطيهم المال والعطايا ، وقوم يعلمهم العفاف والغنى ، والصبر والرضى ، ألم يقل للأنصار يوم أن منع بعضهم بعض العطايا : يا معشر الأنصار ألا تحبون أن يذهب الناس بالمال ، ويبقى لكم رسول الله ﷺ ، اللهم ارحم الأنصار لو سلك الأنصار شعبا وسلك الناس شعبا آخر لأخذت شعب الأنصار أو كما قال ﷺ فأى رضى يصيب الأنصار بعد هذه الكلمات المطمئنة للنفس والمفرحة للقلب، الشارحة للصدر ، ومع منعه للأنصار فإن عطاءه لغيرهم لا حد له ، فلقد « جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وإن كان الرجل ليسلم لا يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيرا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها !! (٢) فكان هذا من هديه ﷺ : كان كما روى بلال رضي الله عنه إذا أتاه إنسان مسلما ، يراه عاريا يأمرنى فأنطلق فأشترى له البردة والكسوة وأطعمه ، وكان يوصينى قائلا : أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا (٣).

أخرج البيهقى عن جرير بن عبد الله قال : بعث إلىّ رسول الله ﷺ فقال: « يا جرير لأى شيء جئت ؟ » قلت : أسلم على يديك يا رسول الله ، قال : « فألقى علىّ كساء» ثم أقبل على أصحابه فقال : «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » ، ثم قال : « يا جرير أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وأن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وتصلى المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة » ، ففعلت ذلك ، فكان بعد ذلك لا يرانى إلا تبسم فى وجهى (٤) .

ولا يقف عطاء رسول الله ﷺ عند من يعطيهم برغبته أو أصحاب الأخلاق الفاضلة بل يتعدى عطاؤه من يعامله بغلظة ، بل ومن يتطاول عليه لا أقول باللسان بل باليد أيضا ومع هذا لا يزيده إلا حلما فيدفع بالتى هى أحسن السيئة ، فإذا الذى بينه وبينه عداوة كأنه ولى حميم . . . إنه قانون الله ، وسنته فى تأليف القلوب .

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى ، فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إلى صفحة

---

(١) متفق عليه . (٢) مسلم عن أنس رضي الله عنه .

(٣) الأشراف لابن المنذر ج ١ ص ٤٤٢ . (٤) البداية ج ٥ ص ٧٨ .

عاتقة [1] النبى ﷺ ، وقد أثرت به حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال : يا محمد مُرْ لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء » .

بالله عليك ماذا يصنع الشباب الذين يدعون إلى الإسلام لو أن هذا الموقف حدث معهم إن النتيجة الحتمية فى أحسن تقدير وحسن ظن أن يجبذه كما جبذه بل ربما يضربه وسيجد الدليل على فعله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ هكذا يقول وينسى أو يتناسى ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر ... ﴾ نعم ينسى أو يتناسى ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ هذا خلق الداعى إن أراد أن يدعو إلى الله على بصيرة ، وإلا فليتنح عن الدعوة إلى الله حتى لا يسىء إلى إسلامه .

فهل أزيدك موقفا آخر لرسول الله ﷺ حتى تحسن إلى الناس إن أساءوا إليك ولا تكن فظا غليظ القلب فينفض الناس من حولك فاسمع إلى ما جاء فى الصحيح :

« أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ يطلب منه شيئا فأعطاه ، ثم قال له : أحسنتُ إليك ؟ قال الأعرابى : لا أحسنت ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا إليه (وكادوا أن يوقعوا بالرجل) فأشار إليهم عليه الصلاة والسلام أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه ﷺ وزاده شيئا ثم قال : أأحسنت إليك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال له النبى ﷺ : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك . قال الأعرابى : نعم فلما كان الغد أو العشى جاء الأعرابى فقال صلوات الله وسلامه عليه : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، كذلك ؟ قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال النبى ﷺ . مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار [2] ألا ما أحلمك وأحكمك وأعلمك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم.

● تاسعا : أن تستثير همته بما يفتح قلبه للحق مع مداراة سفهه إن كان سفيها :

إن الداعى الماهر هو الذى لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولكن يتقبلهم على علاتهم وعلى ما هم عليه ، فلا ينفر منهم ، ولا يسخر من أفكارهم ،بل يتسع صدره لما يقول بابتسامة لا تفارق محياه ، حتى ولو كان المدعو متغطرسا ، شرس الطباع ، فإنه يستثير

---

(١) صفحة عاتقة : ما بين العنق والكتف .

(٢) الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ٩٣ .

همته ويحاول إظهار جانب الخير فيه ليفتح قلب المدعو للسماع ، ويشجعه على إنماء هذا الخير ، فيثنى على الأمر الصغير من الخير ولو كان مثقال ذرة حتى يشجعه على المعروف فيعمله ، ويشوقه إلى تقبل الحق ، ويستثير مشاعره كإنسان له شخصيته الكريمة .

وأنت إن قرأت القرآن بتدبر وجدت كثيرا من النداءات التى تستثير الهمم وتستجيش العواطف، وتدفع العقل للتفكر ، والقلب للتقبل ، والجوارح للعمل . . فاسمع إلى نداء إبراهيم لأبيه فلم يقل له يا كافر أو يا مشرك كما يقول بعض الشباب اليوم ولكنه يقول : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] فذكره برباط الأبوة التى تشعره بحرص الابن على أبيه فتدفعه إلى تقبل ما يسمع لحرصه عليه .

واسمع لقمان عليه السلام وهو يعظ ابنه فيقول : ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] . . فإن كان إبراهيم عليه السلام يستثير أباه برباط الأبوة ، فإن لقمان يستثير همة ابنه برباط البنوة التى تحرص على الولد وتتمنى له الخير .

وها هو ذا كل من هود ، وصالح ، « ينادى كل منهم قومه » ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] . يذكرهم بأنهم قومه وأنه أخوهم ؛ ليكون كلامه أحب إلى أسماعهم وأقرب إلى قلوبهم والنداءات فى القرآن من هذا النوع كثيرة لاستثارة الهمم «يأيها الذين آمنوا ، يأيها الناس».

ولنا فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة حين نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ يقول ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت صعد عليه الصلاة والسلام على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال :أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغيرعليكم أكنتم مصدقى ؟قالوا :نعم ما جربنا عليك إلاصدقا ،قال: « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » قال أبو لهب : تبا لك يا محمد ألهذا جمعتنا ، فنزلت ﴿تبت يدا أبى لهب وتب﴾(١) . . . الآية

إنه ﷺ بهذا النداء يثير حميتهم بعبارات رقيقة وكلمات جذابة،وحقائق صادقة « إن الرائد لا يكذب أهله ،والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ،ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ».أى أثر فى النفس بعد هذه الكلمات إنها دروس مستفادة لينهج الداعى نهجا.

● مع الحليس :

واستمع إلى هذه القصة لترى أسلوب رسول الله ﷺ فى الدعوة وكيف استثار همة الحليس .ففى صلح الحديبية أرسلت قريش ضمن ما أرسلت من رسلها إلى رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الشيخان .

الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحباش الذين كانوا يعينون قريش فى القتال ، فلما رآه النبى ﷺ قال عليه السلام : إنه من قوم يتألهون (١) فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى من عرض الوادى وبها القلائد شعر بأنه هدى الحج ، قد أكل أوباره من طول الحبس فى محله فاكتفى الحليس بالنظر إلى الهدى عن المحادثة مع رسول الله ﷺ ورجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى ،ثم حدثهم بما رأى ، فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك . غضب الحليس عند ذلك وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أفنصده عن بيت الله تعالى من بعد ما جاء معظما له ، والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد (٢) وهكذا بهذا التصرف الحكيم استثار رسول الله ﷺ همة الحليس وألف به قلبه حين أطلق الهدى فى وجهه فكسبه لصفه ، وانقلب الحليس على حلفائه ، فهل يدرك الداعى هذا الذكاء وكيف يتعامل مع أعداء الله بهذا الوعى .

إن الدعاة إلى الله لا يغتاظون ولا ينظرون نظرة الكراهية إلى من يدعونهم من المنابذين لهم بل يحل فى نفوسهم مكان الحنق والغضب لأنفسهم الشفقة والحزن على المخاطبين بالدعوة لأن شفقتهم على الناس أسبق من شفقتهم على أنفسهم .

إن الكلمة الطيبة الخالية من الحقد والغيظ أقطع من السيف فى تطويع نفس المدعو وإذعانه للدعوة وتأمل هذا الموقف حين جاء يهودى إلى رسول الله ﷺ وعنده عمر بن الخطاب ، يطالبه بدين فقال : أنتم آل عبد المطلب قوم مطل ، فغضب عمر رضي الله عنه لهذا الموقف العنيف وعمد إلى سيفه فأنبه رسول الله ﷺ قائلا : يا عمر كان الأجدر بك أن تأمره بحسن الطلب ، وتأمرنى بحسن الأداء وهكذا تكون الدعوة وفقه الداعية فالمواقف العملية أوقع وأعمق أثرا فى النفوس لتحبيبها ولتأليفها من المواعظ الكلامية .

● **مداراة السفهاء :**

حرى بنا إذا تكلمنا عن مداراة السفهاء أن نبين الفرق بينها وبين المداهنة فقد يختلط الأمر على الداعى فيسىء وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

فالمداراة : هى التلطف بالمدعو ، وإظهار البشاشة له ، دون إخفاء حق ، أو تحسين لباطل ، أو تغيير لحقيقة ، ولاسيما إذا كان من يُدارى ممن يخشى صولته ويتقى فى الناس شره ، وهى تكون مشروعة لمصلحة الدعوة .

أما المداهنة : هى نوع من النفاق يدخل فيها المجاملة المحرمة ، والمديح الكاذب ،

---

(١) أى يذعنون لظاهر العبادة .

(٢) خاتم النبيين الشيخ محمد أبو زهرة ج٢ ص ٢٨٣ .

وتحسين الباطل وتغيير الحقيقة ، ولاسيما إذا كان مَنْ يُداهنه من علية القوم وهذا ما أشارت إليه الآية ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩] ومن أمثلة المداراة ما رواه البخارى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رجلا استأذن النبى ﷺ فقال : « ائذنوا له فبئس أخو العشيرة » فلما دخل ألان له عليه الصلاة والسلام الكلام ، فقلت يا رسول الله : قلت ما قلت ثم ألنت له فى القول ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أى عائشة إن من شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه » وروى البخارى : كان أبو الدرداء يقول : « إنا لنكشر (أى نبتسم) فى وجوه أقوام وإن قلوبنا تلعنهم » .

وروى البخارى : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم « عيينة بن حصن » نزل على ابن أخيه «الجدّ بن قيس » وكان من النفر الذى يدنيهم عمر رضي الله عنه إذ كان من قراء أصحاب مجلس أمير المؤمنين ومشاوراته .

فقال عيينة لابن أخيه الجد : استأذن لى على أمير المؤمنين ، فاستأذن له ، فلما دخل قال : يابن الخطاب ، والله ما تعطينا الجزل (أى ما نستحقه من العطاء) ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر ، حتى همّ أن يوقع به ، فقال الجد بن قيس : يا أمير المؤمنين ، إن الله يقول : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وإن هذا من الجاهلين ، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ،وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل. فهل أزيدك — وما أحوجنا لهذه الزيادة لنفقه منهاج الدعوة — اسمع إلى هذه القصة — خرج زين العابدين ابن على بن الحسن رضي الله عنهما إلى المسجد فسبه رجل ، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه ، فنهاهم زين العابدين ، وقال لهم : كفوا أيديكم عنه ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال : يا هذا أنا أكثر مما تقول ، وما لا تعرفه منى أكثر مما عرفته ، فإن كان لك حاجة فى ذكره ذكرته لك .

فخجل الرجل واستحيا ، فخلع زين العابدين قميصه ، وأمر له بألف درهم ، فمضى الرجل وهو يقول : أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله ﷺ (١) فما أحوجنا نحن الدعاة إلى الله لمن يشهد لنا بأننا تلامذة مدرسة النبوة ، لسلوكنا وأخلاقنا واتباع المنهاج الأقوم الذى أتى به رسول الله ، وإياك أخى المسلم والمداهنة ، بأن تركن إلى العادات والتقاليد بل والاعتقادات التى تبطل الحق ، وتظهر الباطل ، فقد روى ابن جزىّ أن الكفار قالوا للنبى ﷺ : لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ (٢) .

إن الداعى لا ينزلق إلى الكذب ولا المخاتلة ولا التزلف ولا المجاراة ، روى البخارى

---

(١) مختصر منهاج القاصدين للمقدسي .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن ناسا قالوا له : إنا ندخل على سلاطيننا ، فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم ،قال ابن عمر :كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ .

ومن أجل ذلك أمر رسول الله ﷺ صحابته أن يحثوا التراب فى وجوه المداحين لكيلا يفشو النفاق ، ويصطبغ المجتمع بالمصفقين والمطبلين والهتافين والإمعات .

أخرج الشيخان وأحمد والترمذى : أن رجلا قام يثنى على أمير الأمراء ؛ فجعل المقداد رضي الله عنه يحثو فى وجهه التراب ، ويقول : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم المداحين فأحثوا فى وجوههم التراب » وليس الثناء على الإنسان بما هو أهله لا تريد منه جزاء ولا شكورا كى يزداد فى فعل الخير أو التعريف به لقوم لا يعرفونه من المدح المذموم وحتى لو حدث فقد سن لنا المصطفى ﷺ فى هذه الحالة أن نقول : « أحسبه كذلك ، ولا نزكى على الله أحدا والله حسيبه » ، وأما الإطراء والمبالغة فى المدح فهذا أمر قد نهى الرسول ﷺ عنه . فعن رجاء بن محجن الأسلمى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ومحجن كانا فى المسجد فرأى رسول الله ﷺ رجلا يصلى ويسجد ويركع ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : مَنْ هذا ؟ فأخذ محجن يُطريه (أى يبالغ فى مدحه) ويقول : يا رسول الله هذا فلان ، هذا فلان ، فقال : أمسك ، لا تسمعه فتهلكه [1] ،وفى رواية للإمام أحمد : يا نبى الله، هذا فلان من أحسن أهل المدينة ، أو قال : أكثر أهل المدينة صلاة ، قال : «لا تسمعه فتهلكه إنكم أمة أريد بكم اليسر » .

لقد سمى رسول الله ﷺ إسماع المديح المبالغ فيه إهلاكا لما له من آثار نفسية فى نفس الممدوح ، قد يشمخ بأنفه ، أو يستعلى بنظراته ، ويتطاول على الناس وفى هذا إهلاك له وأى إهلاك ؟ ومن هنا نهى الرسول ﷺ عن ذلك .

فعلى الداعى أن يلتزم هذا الاعتدال دون شطط ولا مغالاة ولا مداهنة ولا مراعاة إلا ما أباحه الشرع فى إطار المداراة والمجاملة المشروعة لمصلحة الدعوة لدفع مضرة قد يصيبها أو تآمر عليها ، أو دفع الأذى عن الداعى أما غير ذلك فلا .

● **عاشرا : أن تتجنب معه الخلافات الفقهية وتترك المراء والجدل المذموم :**

هذا موضوع جدير بالتفقه فيه ؛ لأن كثيرا من الإخوة المخلصين يفاصلون الناس من أجل خلاف فرعى :

ونود ابتداء أن نقول: إن أحكام الإسلام إما أصلية وإما فرعية . أحكام متفق عليها أو أحكام يختلف فيها الفقهاء . والخلاف الفقهى لا يعد منكرا تنكره لأن كلا من الأئمة الثقاة

---

(١) صحيح البخارى .

المتبوعين قد بذل أقصى جهده ليصل إلى الحكم الصحيح عن طريق الدليل ، وكلهم من رسول الله ملتمس ، وفى هذا المجال يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « إن ما فيه خلاف إن كان الحكم المخالف يخالف سنة أو إجماعا وجب الإنكار عليه، وكذلك يجب الإنكار على العامل بهذا الحكم . وإن كانت المسألة ليس فيها سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيه مساغ فإنه لا ينكر على المخالف لرأى المنكر ومذهبه سواء كان المخالف مجتهدا أو مقلدا».

ويقول الإمام النووى : « إن المختلف فيه لا إنكار فيه ، لكن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق » وقال المحقق المقدسى: هذا ما قاله النووى وهو التحقيق الذى عليه جماهير العلماء من جميع المذاهب ويقول «ملا على القارى » : لا إنكار فى المختلف فيه بناء على أن كل مجتهد مصيب أو المصيب واحد إلا أن المخطئ غير متعين لنا ، مع أن الإثم موضوع عنه وعمن تبعه » ويضيف قائلا: ليس للمجتهد ــ على الأصح ــ أن يحمل الناس على مذهبه سواء كان مجتهدا أو مقلدا فلم يزل الخلاف بين الصحابة والتابعين » .

ويقول الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين، فى موضوع الحسبة : « أى تغيير المنكر وشروطها » أن يكون المنكر منكرا معلوما بغير اجتهاد ، فكل ما هو محل اجتهاد فلا حسبة فيه » .

يقول الخليفة عمر بن عبد العزيز : ما سرنى لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا ، لأنهم إن لم يختلفوا لم تكن رخصة .

ويقول الإمام « يحيى بن سعيد » : أهل العلم أهل توسعة ، وما برح المفتون يختلفون فيحل هذا ، ويحرم هذا ، فلا يعيب هذا على هذا . ويقول الإمام الخطابى : والاختلاف فى الدين ثلاثة أقسام :

الأول : فى إثبات الصانع ووحدانيته ، وإنكاره كفر .

ثانيا : فى صفاته ومشيئته وإنكارهما بدعة .

ثالثا : فى أحكام الفروع المحتملة وجوها ، فهذا جعله الله رحمة وكرامة ، وهو المراد بحديث « اختلاف أمتى رحمة » الذى رواه البيهقى فى المدخل بسند منقطع (١) .

وما قصة الخليفة العباسى « هارون الرشيد » منا ببعيد حين قال للإمام مالك بن أنس: يا عبد الله تكتب هذه الكتب ــ يعنى مؤلفاته الفقهية ــ وتفرقها فى آفاق الإسلام لتحمل

(١) المحقق العجلونى فى كتاب كشف الخفا ص ٦٥،٦٦ .

الأمة عليها ؟ قال الإمام مالك : يا أمير المؤمنين إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الأمة ،كل يتبع ما صح عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله تعالى » (١) .

أين هذا الفقه من الإخوة الكرام الذين يفاصلون المسلمين ويجعلون المختلف فيه مساو للمتفق عليه حتى كاد الواحد منهم أن يجعل الفرع ركنا من الأركان ؟ . . أين هذا الفقه العظيم من الذين يختلفون مع الناس فى هيئات الصلاة ، وطريقة القيام من السجود ، ومنطوق الأذان ، وقصر الثوب ، والقنوت وقراءة القرآن فى المسجد والأذانان يوم الجمعة والشرب وقوفا ، والتبول وقوفا ، والنقاب ، والحجاب والأخذ من اللحية فضلا عن حلقها بفقهها . . . ليت الشباب يفقه هذا كله ولا يختلف فى هذه الأمور كما بين علماء السلف الصالح من هذه الأمة ورضوان الله على شهيد الإسلام الإمام حسن البنا حين جمع الأمة على هذه القاعدة « نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه » أى نتعاون على تنفيذ أحكام الله المتفق عليها . ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه من أحكام فرعية فأى فقه هذا الذى وهبه الله لهذا الإمام الشهيد .

ولقد أصاب التزمت الأمة الإسلامية فى فترة من الفترات باسم التعبد وساد المجتمع نوع من الجهل بالدين بعد أن أشاع العلمانيون فصل الدنيا عن سياسة الدين وانزوى الناس فى فهم الدين داخل دائرة ضيقة أصيبوا فيها بمرض التزمت الذى أدى إلى الاختلاف فى الفروع والتعصب لها إلى درجة هلهلت المجتمع وفككت عراه ، ولقد عاش الشيخ حسن البنا هذه الأزمة فى الإسماعيلية فقد شعر فى إحدى الليالى من ليالى درسه الذى ذاع صيته وانتشر بين الناس وأقبلوا عليه برغبة وشوق ، شعر بروح غريبة ، روح تفرقة ، فلم يكد يبدأ درسه حتى فوجئ بسؤال : ما رأى الأستاذ فى مسألة التوسل ؟ يقول الشيخ حسن البنا : فقلت له : يا أخى أظنك لا تريد أن تسألنى عن هذه المسألة وحدها ، ولكنك تريد أن تسألنى كذلك فى الصلاة والسلام بعد الأذان ؟ وفى قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ؟ وفى لفظ السيادة للرسول ﷺ فى التشهد ؟ وفى أبوى النبى ﷺ وأين مقرهما ، وفى قراءة القرآن ، وهل يصل ثوابهما إلى الميت أو لا يصل ؟ وفى هذه الحلقات التى يقيمها أهل

---

(١) يجب أن نلاحظ أن الاختلاف فى الدين منهى عنه لقوله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ﴾ وقوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ وحديث رسول الله ﷺ « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة . . . الحديث » . ولكن الخلاف فى الفروع أمر ثابت أقره الرسول ﷺ لأنه اختلاف فقه أى فهمه ، فقد أقر ﷺ فى صلاة العصر فى بنى قريظة وغيرها ، واختلاف الأئمة من بعدهم ووضع علم أصول الفقه كضابط للاختلاف والاجتهاد ، ومن هنا لا يجوز اعتبار الاختلاف الفقهى فى الفروع اختلاف تفرق وليس من الدين وهكذا كان فهم أهل السنة والجماعة لأن المجتهد مأجور سواء أصاب أم أخطأ كما بين لنا رسول الله ﷺ ذلك .

الطرق وهل هى معصية أو قربة إلى الله ؟

وأخذ الشيخ البنا يسرد له مسائل الخلاف التى أصابت الحياة الإسلامية فى ذلك الزمان، وإن كانت لا تزال ــ والتى كانت مثار فتنة وخلاف شديد . ثم قال له : يا أخى إنى لست بعالم ،ولكنى رجل مدرس مدنى أحفظ بعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية الشريفة ، وبعض الأحكام الدينية وأتطوع بتدريسها للناس فإذا خرجت بى عن هذا النطاق فقد أحرجتنى ومن قال : لا أدرى فقد أفتى ، فإذا أعجبك ما أقول ورأيت فيه خيرا فاسمع مشكورا ، وإذا أردت التوسع فى المعرفة فسل غيرى من العلماء الفضلاء المختصين، فهم يستطيعون إفتاءك فيما تريد ،وأما أنا فهذا مبلغ علمى ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

وارتاح الرجل لهذه الإجابة وارتاح الحاضرون ثم التفت إليهم قائلا : إن هذه المسائل اختلف فيها المسلمون منذ مئات السنين ولا زالوا مختلفين ، والله تبارك وتعالى يرضى منا الحب والوحدة ويكره منا الخلاف والفرقة فأرجو أن تعاهدوا الله على أن تدعوا هذه الأمور وتجتهدوا فى أن نتعلم جميعا أصول الإسلام وقواعده ، وأن نعمل بأخلاقه وفضائله العامة وإرشاداته المجمع عليها وأن نؤدى الفرائض والسنن وأن ندع التكلف والتعمق حتى تصفو النفوس ويكون غرضنا جميعا معرفة الحق لا مجرد الانتصار للرأى. وحينئذ نتدارس هذه الشئون كلها معا فى ظل الحب والثقة والوحدة والإخلاص ، وأرجو أن تتقبلوا منى هذا الرأى ويكون عهدا فيما بيننا على ذلك !! ولقد كان عهدا ، فلم يخرج واحد من درس تلك الليلة إلا وقد عاهد الله على أن تكون وجهته التعاون وخدمة الإسلام الحنيف والعمل له يدا واحدة وطرح أسباب الخلاف ــ ومن هنا يجب على الداعى إذا ابتلى بمجادل يريد أن يطعن فى كلامه ليظهر الخلل فيه بقصد [1] الإهانة والتحقير ،أو ابتلى بمن يريد أن يشوه ما تدعو إليه بقصد العلو والكبرياء والانتصار للرأى ، فعليه أن يتخذ موقفا حكيما ، ومخرجا حسنا.

عليه أن يجادل بالتى هى أحسن ، فليس الجدال كله مذموما لأن الله يقول : ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ وها هى ذا خولة بنت ثعلبة تجادل رسول الله ﷺ فيسمعها ربها من فوق سبع سموات ويقول لرسول الله ﷺ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] .

فإن كان الجدال فى الأصول والمنهج ، فلا ينشغل المسلم بهذا الجدال ، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد إلا أن يكون المجادل يبحث عن الحق فعلا ؛ لأن الجدال يجرى مع

(١) نحن لا نعلم بالطبع النيات والمقاصد وإنما نكلها إلى الله تعالى ولكن إذا ظهر من المجادل أنه يكابر ويجادل بالباطل فهنا يتحدد الموقف .

القلوب المستعدة للهدى التى تطلب المعرفة وتبحث حقيقةعن الدليل ، لا مع القلوب المصرة على الضلال المكابرة التى لا تحفل كل هذا الحشد من الدواعى والدلائل فى الأنفس والآفاق وهى كثيرة معروضة للأنظار والقلوب (١) .

ومن هنا فإن الذى يجادلنا فى فرع من الفروع ويعتبره أصلا من الأصول بينا له خطأه بالأدب الجم والحجة البالغة ، بعيدا عن الفظاظة ، والخشونة والانتصار للرأى ولا نلجأ إلى سلطان القوة بل إلى سلطان الحجة .

فإن أصر على عناده ، أصبح الكلام معه نوع من العبث لا يفيد ، فليقطع الداعى الجدال معه ، حتى لا يحدث لون من المهاترة أو الخصومة الفاجرة ، أو الشجار البغيض وهذا هو السلوك الحميد . . . فقد روى الشيخان عنه ﷺ « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » أى كثير الخصومة والانحراف عن الحق .

فاحرص أخى المسلم على أن تتجنب الخوض فى الأمور الخلافية التى توصل إلى المراء والجدل المذموم لأنهما لا يأتيان بخير وصدق رسول الله ﷺ حيث قال : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقا » وفى رواية للإمام أحمد « لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب فى مزاحه والمراء وإن كان صادقا » (٢) .

★ ★ ★

(١) راجع باب الأنفس والآفاق من كتاب منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف .
(٢) رواه أحمد .

ثالثا : التعريف قبل التكليف

كثير من الدعاة لا يولون هذا المبدأ الأهمية الكافية ، والعناية المطلوبة فلا يهتمون بتأليف القلوب تهيئة لسماع الحق وتحبيبا فى تصديقه ، وتشويقا للعمل به وإجزال الثواب عليه ثم يعرفون بعد ذلك ما يريدون توصيله للمدعو قبل أن يكلفوه ومصدر هذه المعرفة فلابد من التعرف على مصدر التكليف تثبيتا للفؤاد ، وتطمينا للقلوب وإقبالا على الطاعة.

ومرحلة التعريف من أهم المراحل وأخطرها ؛ لأنه إذا أحسن الداعى تقديم الدعوة والتعريف بها تفتحت كثير من قلوب الناس لها ، وهوت أنفسهم إليها لذلك فإن هذه المرحلة تحتاج إلى شىء من التفصيل .

فنقول وبالله التوفيق : إن الكلمة التى يحملها الداعى هى الكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله . أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . يحملها الداعى وهو يعلم أنها قذائف الحق تقذف على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ، ولثقة الداعى بهذه النتيجة فإنه يقول للناس جميعا :

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا .

ويقول للذين يخالفونه : قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

ويقول للذين يحاجونه : وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين .

وذلك لأن أعداء الدعوة يستخدمون سلاح الفتنة تارة ، وسلاح الشبهة والتشكيك تارة أخرى ، وسلاح الدعاوى الباطلة تارة ثالثة ، وسلاح الجدال العقيم تارة رابعة وهكذا . وكل ذلك بكلمات خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، منهم الذين قالوا وما زالوا يقولون لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . . . أو يقولون : آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون .

● حاجة المسلمين للفهم السليم :

وفى زماننا هذا نراهم يوحون لأوليائهم أن التمسك بالإسلام والعمل به نوع من التعصب وتجاهل لغير المسلمين ؛ ليسود القانون الوضعى بين الناس ، أو يقولون : إن الدين الإسلامى ناسب العصر الذى جاء فيه أى أنه دين محلى يعجز عن تلبية حاجات البشر زمانا ومكانا ، أو يجعلون الإسلام من الأعمال الشخصية الفردية فالدين لله والوطن للجميع كما يقولون : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، أو يقولون : إن إقامة الحدود

الشرعية فيها قسوة بالناس ووحشية ومهمة الطبيب العلاج لا القطع ، أليست هذه الفتن والشبهات فى حاجة إلى تجلية وتوضيح وتعريف بالدعوة . لذلك فلابد للمسلم أن يتعرف على حقيقة إسلامه حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها . فنفرق بين الاعتدال والتطرف والتعصب والتمسك ، والإرهاب والإسلام كل ذلك يبينه الداعى بالكلمة الطيبة تعريفا وتوضيحا وبالمجادلة بالتى هى أحسن ليقيم الحجة . إذ المعركة الآن معركة الكلمة وليست معركة قنابل فالغزو فكرى وليس عسكرى ورسولنا كان يقابل الكلمة بالكلمة والشعر بالشعر والخطبة بالخطبة ، فلابد للمسلم من طرح العنف والقهر والقتل جانبا ، فليس هذا سبيله ولا طريقه ولا وسيلته ، ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ حتى تصل الكلمة الطيبة إلى القلوب .

والداعى لا يستطيع أن يلزم الناس بما يحمل إنما يقنعهم بما يقول . والإقناع يحتاج إلى حسن العرض ،وبساطة القول ، وتوضيح الفهم ، وتعريف بالدعوة قبل أن يكلفهم بأى شىء أو يحملهم أية مسئولية .

إن أهل الباطل يستخدمون سلاح التضليل والتجهيل لصرف الناس عن الإسلام فلابد أن يستخدم أهل الحق سلاح الحق بإظهاره وتوضيحه وتجليته وتعريفه قبل أن يطالبوا الناس بالتكاليف ليقبل الناس على الإسلام بعد فهم له وحب لأوامره وتضحية لوضع تكاليفه موضع التنفيذ ؛ لأن التكليف لابد وأن يسبقه تعريف ولذلك سمعنا من ربنا يخاطب رسولنا ﷺ قائلا : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا هو واستغفر لذنبك . . . ﴾ فالعلم هنا سبق التكليف تعريف بالله أولا ثم العمل تكليفا واستغفر وهل يستغفر ربه مستغفر إلا إذا تعرف عليه من هنا كانت أول آية نزلت على رسولنا ﷺ ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ليتحدد التصور السليم ثم بعد ذلك العمل ، فنزل القرآن ليعرف الناس بأمور أربعة قبل أن يكلفهم بأى أمر يصدر إليهم هذه الأمور الأربعة هى :

١ ــ عرفهم بربهم ليعبدوه .

٢ ــ وعرفهم بأنفسهم ليبصروا حقيقة وجودهم .

٣ ــ وعرفهم بالكون ليسخروه ويعمروه .

٤ ــ عرفهم بالمصير الذى ينتظرهم فى أخراهم .

ليتضح لهم التصور الصحيح والاعتقاد السليم فيصح السلوك تبعا لذلك لأن السلوك مرتبط ارتباطا وثيقا بالتصور يصح بصحته وينحرف بانحرافه ، ولا يستقيم سلوك المسلم بعد هذا التصور السليم إلا بأمرين :

١ ـ صحة الاعتقاد . ٢ ـ وصدق الاتباع .

فإذا تحقق هذان الأمران فى إنسان ، فإنه يسلم وجهه لله وهو محسن فإذا به يوفر المصدر الذى يصدر له الأمر ؛ لأن العلاقة بين الآمر والمأمور تكون قد تحددت فإن سألت ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيرا . . ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ .

● توقير مصدر الأمر :

ومع توقير الآمر يتحقق توقير المبلغ عنه واحترامه وحبه ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . . ﴾ ، فنجد المسلم لا يجعل دعاء الرسول كدعاء بعضنا بعضا فيوقره وهو يناديه ، ولا يقدم بين يدى الله ورسوله ، بل ولا يرفع صوته فوق صوت النبى ولا يجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض .

ويا له من احترام قائم ودائم بين الصحابة رضوان الله عليهم والرسول ﷺ حتى أنه لما نزل قول ربنا : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ قال ثابت بن قيس بن شماس وكان رفيع الصوت : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى . أنا من أهل النار ، أنا حبط عملى وذهب إلى منزله ، وقال لزوجته : إذا دخلت بيت فراشى فشدى على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى إذا خرج عطفه قال : لا أخرج حتى يتوفانى الله تعالى أو يرضى عنى رسول الله ﷺ ولما تفقده رسول الله ﷺ أرسل إليه عاصم بن عدى فسمع مقالته فأخبر الرسول ﷺ بما قال ، قال الرسول ﷺ : اذهب فادعه لى ، فذهب إليه عاصم فقال له : إن رسول الله ﷺ يدعوك فقال اكسر الضبة فخرج فأتيا النبى ﷺ فقال له الرسول ﷺ حين رآه يبكى خوفا وندما . قال : ما يبكيك يا ثابت ، فأعاد عليه ثابت ما قاله عن صوته الصيت ، قال الرسول ﷺ : أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟ قال : رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتى أبدا على صوت رسول الله ﷺ ونزل قوله : ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . . . ﴾ (١) أين هؤلاء من أولئك الذين يرفعون أصواتهم فوق صوت النبى ﷺ ويقولون : إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ويرفعون أصواتهم قائلين البنوك الربوية حلال ، والخمر للسياحة مباحة ، والرقص والخلاعة جائزة وعرى المرأة حسب البيئة ، وحجابها رجعية وابتذالها تقدمية واختلاطها بالرجال حرية فهل يستوى الذين يقولون سمعنا وأطعنا مع الذين يقولون سمعنا وعصينا . . . إن القضية مع

(١) صفوة التفاسير سورة الحجرات .

هؤلاء قضية تعريف وإقناع وإقامة حجة ودحض باطل وإظهار حق وكل ذلك يحتاج إلى الصبر الجميل والنفس الطويل . . . يحتاج إلى تعريف بمصدر الأمر والمبلغ له والثقة فيه .

ألا ترى أن القوم يستفتون خبيرا عالميا فى الاقتصاد ويأخذون بما يقول ثقة فيه ويستفتون عالما فى الاجتماع وينفذون تخطيطه لأنه ذائع الصيت ، ويستفتون خبيرا فى التعليم وينفذون ما يأمر به وما أكثر ما يستدعون من خبراء فى مناحى الحياة المختلفة .

إنك ترى عجبا إذا مرض إنسان بالقلب ، قالوا له : اذهب إلى الطبيب العالمى فلان فإذا بالطبيب يقول له : لا تأكل الطعام الحلو واشرب الدواء المر أو يقطع جزءاً من جسده لأن فى القطع حياته والعجيب أنهم يستسلمون لطبيب الأجساد أما خالق الأجساد والأرواح فيناقشونه ويراجعون أوامره وتعاليمه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وصدق نبى الله نوح حين وصف لقومه داءهم فقال لهم بعد أن جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . . . ﴿ **مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ،وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . . .** ﴾ إلى آخر ما قال ليعرفهم بربهم فيقدروه حق قدره فإذا بهم بعد ذلك يقولون سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

● **من فقه تلقى التكليف :**

إنه التلقى أولا من الله وأن تقرأ باسمه هو سبحانه ولذلك حين رأى رسول الله ﷺ مع عمر بن الخطاب رضوان الله عليه جوامع من التوراة كتبها له يهودى قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل ، أو تكذبوا بحق وإنه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى ، وفى بعض الأحاديث لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى ، وحين سمع عمر مقالة رسول الله ﷺ قال : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا فسرى عن رسول الله ﷺ (١) .

أرأيت كيف أن التعريف بالدعوة والصبر عليها فى غاية الأهمية ليصبح عندنا الفرد المسلم الذى يرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ويتيقن من قول الله ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ فيتحلى بأخلاق لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ صدقا وأمانة وإيمانا وعملا .

وسل التاريخ عن طاعة رسل الله الكرام لربهم لأنهم تعرفوا عليه فقدروه حق قدره ألا ترى أن نوحا عليه السلام صنع الفلك فى أرض صحراوية وهو يعلم أن الله مجريها ومرسيها . .

(١) الحافظ ابن كثير ج ١ ص ٣٧٣ : ٣٧٨ .

وأن إبراهيم عليه السلام أسكن ذريته بواد غير ذى زرع عند بيته المحرم فما زادت زوجته عن هذا السؤال المحدد آلله أمرك بهذا يا إبراهيم ؟ .. وهل تأملت قول ابنه إسماعيل حين رأى أبوه فى المنام أنه يذبحه فقال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . إنه علم أن هذا الأمر أمر الله وليس أمر أبيه .

وهل عشت مع أم موسى وهى تلقى بفلذة كبدها فى اليم حين خافت عليه انصياعا لأمر خالقها وهو يقول لها : إن خفت عليه فألقيه فى اليم فما ترددت ... وهل تدبرت قول أصحاب موسى حين قالوا : إنا لمدركون قال : كلا إن معى ربى سيهدين ... والبحر أمامه والعدو خلفه فهداه الله وأنجاه .

إنه التعرف على مصدر الأمر أولا قبل التكليف ولذلك كان القرآن المكى يركز على التعرف على الخالق جل وعلا ﴿الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾.

● الطاعة ثمرة المعرفة :

حين عرف أتباع رسول الله ﷺ ذلك إذا بنا نراهم حين حرمت الخمر قالوا : انتهينا ربنا، وحين أمرهم بأن يذروا الربا ما ترددوا ، وحين أمر النساء بالحجاب إذا بهن كالغرابيب السود فى لحظتها .

يروى لنا البخارى أن رسول الله ﷺ صلى بنعليه فصلى المسلمون خلفه بنعالهم فإذا به ﷺ يخلع نعليه وهو فى الصلاة ويلقى بهما عن شماله فإذا بالمسلمين يخلعون نعالهم ويلقون بها عن شمالهم ، فلما انتهى الرسول ﷺ قال لهم : ما لى أراكم تلقون بنعالكم عن شمالكم ؟ قالوا : يا رسول الله رأيناك تلقى بنعليك عن شمالك فألقينا بنعالنا عن شمالنا ، قال : إن جبريل أتانى وأخبرنى أن بهما قذرا » .

فأى طاعة هذه وأى اتباع صادق ؟ وما أكثر المواقف التى رأيناها من الصحابة طاعة لله ورسوله : وانظر إلى موقفهم يوم بدر ، فهذا المقداد بن عمرو الذى يقول لرسول الله ﷺ: والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون وهذا سعد بن معاذ يقول فى نفس الموقف : والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد .

إنه التعريف بحقيقة الدعوة وطريقها والإيمان بها ، والثقة فى نتيجتها هو الذى جعل المسلمين يوم حمراء الأسد بعد أن عادوا من أحد مهزومين ويأمرهم رسول الله ﷺ بمعاودة

القتال فما استغربوا هذا الأمر وما جادلوا فيه ولا توانوا لحظة بل إن القرآن يبين لنا مشاعرهم فى هذا الموقف العصيب وهم المهزومون بالأمس فيقول : ﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ .

وسل عن حالهم يوم الأحزاب ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ فى هذا الموقف العصيب انقسم الناس إلى قسمين : فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة وانعكس تصرف كل فريق وسلوكه تبعا لتصوره واعتقاده فأما الذين فى قلوبهم مرض فإنهم قالوا ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . . . وأما الذين عرفوا ربهم حق المعرفة وقدروه حق قدره قالوا : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ وما زادهم إلا إيمانا وتسليما فمتى قالوا ذلك ؟ ما قالوه إلا بعد تعرفهم على ربهم وإيمانهم به واستسلامهم لأمره . واسمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقول لجنده موصيا إياهم وقد أرسلهم للقتال : تألفوا الناس ، وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل مدر أو وبر أن تأتونى بهم مسلمين أحب إلىّ من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم (١) . أرأيت ما هو محبب لرسول الله ﷺ إنها دعوة الناس إلى الإسلام وتعريفهم به وليس سبى النساء والأبناء وقتل الرجال ؟ فالدعوة تحتاج أول ما تحتاج إلى صبر عليها فلا يستطيل الداعى مرحلة التعريف بمراحلها ويعطى كل مرحلة حقها ويبين لهم ما نزل إليهم قبل أن يكلفهم فما أشق التكليف على النفس الإنسانية إذا لم يتحل صاحبها بالإيمان ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ ولذلك فإنك ترى لقمان يعظ ابنه يقول له : « يا بنى إن الإيمان قائد ، والعمل سائق ، والنفس حرون ، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق ، وإن فتر قائدها حرنت ، فإذا اجتمعا استقامت » .

● **دعوة للإيمان قبل العمل والتكليف :**

وأنت ترى رب العزة قبل أن يكلف العباد بصلاة أو زكاة أو حج أو صوم أو ينهاهم عن ربا أو زنا أو خمر أو غير ذلك فإنه يناديهم أولا بهذا النداء المحبب إلى قلوبهم « يأيها الذين آمنوا » افعلوا كذا أو انتهوا عن كذا . . أى يامن عرفتم ربكم وآمنتم به أطيعوا أمره فهو الذى يأمر وينهى . أو يقول : قل يا عبادى . . . أو « وعباد الرحمن » يسندهم إلى نفسه تشريفا لهم . والغريب فى الأمر أن بعض الإخوة يستعجلون الناس ويكلفونهم ما لا

---

(١) خاتم النبيين الشيخ محمد أبو زهرة ج ١ ص ٥٨ .

يطيقون قبل أن يعرفوهم بدعوتهم أو يتعرفوا علي ربهم ألا ترى يوسف عليه السلام حين قال له صاحبه فى السجن : إنى أرانى أعصر خمرا ، لم يقل له : هذا حرام ولكن ترك هذه القضية وتحدث معه فى الأصل الذى يستقيم به الأمر طاعة لله فقال : ﴿ **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

واقرأ سورة الأنعام كمثال يوضح لك ما نقول تجد : أن السورة تعرفنا أولاً وقبل كل شىء سر وجودنا ووجود هذا الكون من حولنا ، من نحن ؟ ومن أين جئنا ، وكيف ؟ وإلى أين نذهب ؟ ومن الذى أوجدنا من العدم ، وما هذا الوجود الذى نحسه ونراه ، من أنشأه بهذه الدقة وهذا النظام المحكم ؟ ومن الذى يديره ويدبره ؟ وكيف نتعامل مع هذا الكون ــ والإنسان ــ والحياة ــ وخالق الكون كله .

ولم يتجاوز القرآن المكى هذه القضية الأساسية للتعريف بالخالق جل وعلا حتى تطهر النفوس والأخلاق ــ وتزكو القلوب والأرواح بعد أن تتعرف على حقيقة الألوهية لتصل من هذا التعريف إلى تعبيد الناس لربهم الحق وتعبيد ضمائرهم وأرواحهم ، وتعبيد سعيهم وحركتهم ، وتعبيد تقاليدهم وشعائرهم ، فالله هو الخالق ، والله هو الرازق ، وهو المالك والله هو العليم بالغيوب والأسرار ، يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار .

وتعيش فى هذا الجو الربانى من التعريف من أول السورة إلى ما يقرب من جزء منها ثم بعد ذلك وقرب نهايتها وفى الربع الأخير منها ترى التكاليف بعد التعريف فى قوله تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ ويتكرر بعد ذلك لفظ « قل » « قل » . وهكذا عرفنا ربنا بنفسه وقدرته وصفاته وأفعاله قبل أن يكلفنا بأوامره ، هذا مثال واحد من منهج القرآن فى التعريف قبل التكليف ، والقرآن ملىء بكثير من هذه المعانى فليتنا نتدبرها ونهتدى بهديه ، ونقتدى بمنهجه .

● **ماذا بعد التعريف :**

إن التعريف بالحق أولا ، والاهتداء إليه نعمة جزيلة ، وانشراح الصدر به خير غزير .

وأول ما يجب على أصحاب الحق ــ وقد عرفوه ــ أن يفتحوا عيون الآخرين على ضوئه ، وأن يعرفوا الجاهلين به ، وأن يجعلوه فى الحياة واضحا كشعاع الشمس ، شاسعا كأمواج الهواء .

ذاك ما يفرضه الحق على أصحابه ، ألا يجعلوه عليهم حكرا ، وألا يحرموا من نفعه أحدا وألا يدعوا نفسا تعيش بعيدة عن هداه .

وليس ذلك ـ بداهة ـ عن طريق القسر ، بل عن طريق لفت الأنظار ، وإيضاح الخفى وشرح المبهم ، فإن فتك الجهل بالناس ذريع ، وغلبة الأوهام على أفكارهم تذهب بهم بددا فى كل فج ، وتخيل إليهم أنهم على صواب ، والواقع أنهم موغلون فى الضلال والسر هو الجهل ، الجهل بأقسامه كلها من بسيط إلى مركب ، إلى جهالة الطيش والهوى.

والناس فى حاجة ملحة إلى أن ينشط أهل الإيمان الصحيح لشرح أصوله ، وإبداء صفحته ، ودحض الشبه المثارة حوله ، واستخراج الجهال من الكهوف المطروحين بها تمتلئ صدورهم بأنفاس الحقيقة الرحبة (١) .

إن بعض الدعاة يعتبرون أن الإسلام قد بُلِّغ ، وأنه لا يعذر أحد لأن المسلمين عرفوا دينهم ويقولون : وهاهى ذا الدعوة انتشرت فى كل مكان فهل هناك من هو فى حاجة إلى بيان ، وهذا جهل بطبيعة الناس وحقيقة فهمهم للإسلام .

يقول سهل رحمه الله تعالى : ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ، قيل : يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال : نعم الجهل بالجهل » وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعليم ، فمن يظن بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل (٢) وقد قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] نعم نسأل لكى نتعلم ويتضح لنا الطريق .

● التعريف بمراحل الدعوة :

إن كل دعوة لابد لها من مراحل ثلاث : مرحلة التعريف والتبشير بالفكرة ، ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتربيتهم من بين هؤلاء المدعوين ، بعد ذلك مرحلة التنفيذ والعمل .

وإذا لم يتعرف الداعى على المرحلة التى يمر بها ويتعامل معها يحدث الخلط والخطأ . لأن لكل مرحلة سماتها ومتطلباتها وأسلوب الدعوة فيها وإن كانت هذه المراحل الثلاث تسير جنبا إلى جنب وهى متداخلة ، فالداعى يعرّف وهو فى نفس الوقت يتخيّر ويكوّن فى الوقت نفسه يعمل وينفذ. ومرحلة التعريف من أهم هذه المراحل لأنها المنطلق الأول فى السير على الطريق ،فأى خطأ أو انحراف فى الفهم والمعرفة يوصل إلى نتائج سيئة ، ويسير بالدعوة بعيدا عن خطها ، ومن هنا وجب على الداعى ألا يتعجل بالتكليف من قبل أن يستوفى التعريف .

---

(١) مع الله : دراسات فى الدعوة والدعاة الشيخ محمد الغزالى ص ٣٠١ .

(٢) من كتاب موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للشيخ محمد جمال الدين القاسمى ج ٢ ص ٤٤٠ .

فما أمسنا إلى داع واع يعرّف الناس بالغاية ، ويبصرهم بالهدف ، ويحدد لهم الوسائل، ويوضح معالم الطريق حتى يكونوا على بينة من أمر دينهم فتبيّنوا سياسة النفس الطويل والصبر الجميل .

إن معرفة الطريق تحدد طبيعة الخطى فلا نستعجل قطف الثمرة قبل نضجها فكثير من الناس لعدم وضوح المرحلة التى يمرون بها ، ولعدم استكمال ركن الفهم لديهم يودون أن تنبت البذرة قبل وقتها أو تنضج الثمرة قبل أوانها ، وما أجمل ما قاله الإمام الشهيد حسن البنا مخاطبا الذين يستعجلون الثمرة قبل نضجها فيقول :

« أيها الإخوان المسلمون . وبخاصة المتحمسين المتعجلين منكم : اسمعوها منى كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر فى مؤتمركم هذا الجامع ، إن طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده ، ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ، أجل قد تكون طريقا طويلة ، ولكن ليس هناك غيرها » .

إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة ، والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها ، أو يقطف زهرة قبل أوانها ، فلست معه فى ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة ، إلى غيرها من الدعوات ومن صبر معى حتى تنمو البذرة ، وتنبت الشجرة ، وتصلح الثمرة ، ويحين القطاف ، فأجره فى ذلك على الله ولن يفوتنا وإياه إحدى الحسنيين إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة (١) .

ألا يستحق هذا الفهم الدقيق ،صبرا على الناس فى مرحلة التعريف حتى يصير إيمانا عميقا يحيطه سياج من الحب الوثيق بين رفقاء الطريق ، فإذا بالتكاليف مهما كانت شاقة على النفس استعذبتها فإذا حملت فى طياتها الشهادة قال صاحبها : ﴿ وعجلت إليك ربى لترضى ﴾ .

● الثقة فى طريق الله :

كما يجب على الداعى أن يوضح للمدعو وقبل أن يكلفه بتبعات الطريق ، أن طريق الله وإن كانت محفوفة بالمكاره إلا أن نهايتها النصر لا محالة ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ .

فعلى الداعى أن يعرّف السائرين فى هذا الطريق الثقة فيه وأنه الموصل إلى الغاية التى يقصدونها حتى لا يتعرضوا للتيه والضياع .

فهل لنا أن نثق فى طريق الله فغايتنا مرضاته سبحانه ودستورنا قرآنه وجهادنا السبيل ،

---

(١) طريق الدعوة الأستاذ مصطفى مشهور ص ١٩ .

والموت فى سبيله أسمى الأمانى .

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾

وبذلك يكون قد عرف المدعو طبيعة هذا الطريق ، وحدد معالمه ، واقتنع بالسير فيه فهل يرفض أمرا أو يتقاعس عن واجب ، لقد بذل الإمام البنا جهدا مضنيا ليعرف الإخوان أمر دينهم قبل أن يكلفهم بشىء واسمعه وهو يعرّف الشباب معالم طريقه والثقة فيه يقول:

« أيها الشباب على هذه القواعد الثابتة وإلى هذه التعاليم السامية ندعوكم جميعا فإن آمنتم بفكرتنا ، واتبعتم خطواتنا ، وسلكتم معنا سبيل الإسلام الحنيف ، وتجردتم من كل فكر سوى ذلك ، ووقفتم لعقيدتكم كل جهودكم ، هو الخير لكم فى الدنيا والآخرة ، وسيحقق الله بكم إن شاء الله ما حققه بأسلافكم فى العصر الأول ، وسيجد كل عامل صادق منكم فى ميدان الإسلام ، ما يرضى همته ، ويستغرق نشاطه إن كان من الصادقين، وإن أبيتم إلا التذبذب والاضطراب والتردد ، بين الدعوات الحائرة ، والمناهج الفاشلة ، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا بكثرة [1] ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ ولقد كان لرسول الله ﷺ بعض المواقف التعليمية التى يريد بها تعريف الصحابة بأمر من أمور الإسلام لينطلقوا راشدين فى طريق الدعوة ، وها هو ذا معاذ بن جبل فى موقف من هذه المواقف يقول : كنت ردف النبى ﷺ على حمار ، ليس بينى وبينه إلا مؤخرة الرحل فقال يا معاذ : هل تدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله؟ قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركون به شيئا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا .

فقلت : يا رسول الله أفلا أبشر به الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا . وأخيرا فإن بعض الدعاة ينصبون أنفسهم قضاة لا هم لهم إلا إصدار الحكم على الناس ، هذا فاسق وذاك كافر والآخر منافق ولو صبروا حتى يتبين للمدعو القدر من الفهم الذى عليه هذا الإنسان الذى رماه لعذره بجهله ، ولاتهم نفسه هو بالتقصير فى التبليغ أو التعريف بدعوة الإسلام . ولذلك يجب أن يوضع فى الاعتبار ونحن نعرّف الناس بدعوتنا :

١ ــ أن خير النفوس تلك النفوس التى ترى سعادتها فى إسعاد الناس وإرشادهم إلى الفضيلة وإدخال السرور عليهم .

٢ ــ أن العمل الجليل هو الذى يتجاوز بنتائجه الإنسان وأسرته إلى أمته وبنى جنسه .

---

(١) طريق الدعوة الأستاذ مصطفى مشهور ص ١١٣ .

٣ ـ أن أعظم الغايات التى يجب أن يسعى إليها المرء العاقل هى الحصول على رضوان الله .

٤ ـ إن الأمة العربية والإسلامية قد تأثرت بالحضارة المادية الوافدة من الغرب فى شئونها السياسية والاجتماعية . . . فحجبها ذلك عن مقاصد الدين وأمجاد الآباء فما أحوج الأبناء إلى التعرف على حقيقة الإسلام .

٥ ـ لابد من وسائل خلقية وأخرى عملية لإعادة الأمة الإسلامية إلى وضعها الأول وتجديد أمجادها السابقة . أليس ذلك كله فى حاجة إلى أن يتعرف عليه المسلمون ؟ ليبدءوا الخطوة الأولى على طريق الدعوة .

● أخيرا :

فإن الداعى لابد له من تحديد الأهداف التى من أجلها يعمل ، كما يحدد مراحل العمل لتكون خطواته محددة تبعا لهذه المراحل وليصنع منهاجه وفقا لذلك ليكون أمام المدعو تعريف للأهداف والمراحل وتحديد لمعالم الشخصية التى يدعو الناس لتحقيقها فى أنفسهم والتى تتحلى : بالفهم ، والإخلاص ، والعمل ، والجهاد ، والتضحية ، والطاعة ، والثبات والتجرد ، والأخوة ، والثقة وهو لا يترك قضية التعريف أو الفهم بالذات نهبا للأفكار والتصورات التى تنأى بها عن مسارها وطريقها فتضل ، ولكنه يحدد الأصول التى تضبط هذا الفهم وبالتالى تنضبط العلاقات فلا غلو ولا إفراط ولا تفريط ولا اندفاع ولا تعطيل لسنن .

ذلك لأن نقطة البداية هى التعريف الجيد توجد صفا مسلما قادرا على تحقيق الأهداف إذ أن كل فرد لو وضحت عنده الفكرة ومراحل الدعوة ووضحت لديه وسائل تحقيقها . فإنه يتجاوز بذلك الفهم أخطاء الماضى وتتبين له معالم المستقبل فيضع بذلك قدمه على بداية الطريق الصحيح ويقول : ﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾ فيتحلى بقوة نفسية تعينه على السير فى طريق الله حتى يحقق الأهداف المنشودة .

● وصدق البنا إذ يقول :

إن تكوين الأمم وتربية الشعوب ، وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التى تحاول هذا ، أو من الفئة التى تدعو إليه على الأقل إلى قوة نفسية تتمثل فى إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف ، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر ، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل ، ومعرفة بالمبدأ ، وإيمان به ، وتقدير له ، يعصم من الخطأ فيه ، والانحراف عنه ، والمساومة عليه ، والخديعة بغيره .

وهكذا تأخذ مرحلة التعريف حقها ويومها ما أيسر التكاليف على الأتباع .

رابعا : التدرج فى التكاليف

إن من أشق الأشياء وأصعبها العملية التربوية ، وما ذاك إلا أنها تعامل مع نفوس لا يحكمها قانون محدد يسير عليه الإنسان وتنتهى القضية . لا فكل نفس لها تشكيلها الخاص، ومن ثم الوسيلة الخاصة لمعالجتها ولذلك وجدنا رسول الله ﷺ يعطى كل إنسان ويوجهه على حسب قدراته وميوله .

لأن نفوس البشر تألف الاعوجاج والتمرد ، فإذا باشرتها بالإصلاح دفعة واحدة فإن ذلك يعتبر مصادمة لها ، فعليك بالتلطف والتدرج والتعرف على مداخلها وهذه سنة الله فى طريق دعوة الناس .

وتأمل نزول الرسالات وتدرجها ففى عصر التوراة ـ مثلا ـ كانت النصائح التى نزلت على موسى بحسب الناس يومئذ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] وعندما صعدت الإنسانية فى مدارج النضج الفكرى واتسعت آفاقها العامة جاء القرآن الكريم فى أسلوب أعمق وأرحب، واتخذ فيه الحديث عن الله وعن الدار الآخرة صورا من البيان العالى والإقناع العلمى ، وتضمن من القواعد والأحكام مالا حاجة للناس بعده إلى إضافة أخرى تصلح بها النفوس أو المجتمعات أو الدول (١) .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] .

وإذا كانت هذه سنة الله مع خلقه فى التدرج فى الرسالات فإن القرآن نفسه نزل مفرقا كما قال ربنا : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] .

وذلك لاستدراج العرب وتعريفهم أنفسهم بأوامره ونواهيه على حسب النوازل والحوادث ـ فمن الحكمة أن الدواء عند حدوث البلاء ـ ليكون تحولهم عن أخلاقهم وعاداتهم بسهولة ويسر ، فالعرب كانوا قبل الإسلام فى إباحة مطلقة ، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم التكاليف ، ولنفرت قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهى (٢) وصدق الله حيث يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢] .

---

(١) مع الله دراسات فى الدعوة والدعاة للشيخ محمد الغزالى ص ١٩ .

(٢) روح الدين الإسلامى عفيف عبد الفتاح طباره ص ٢٤ .

ويا لها من فقيهة أمنا الرءوم السيدة عائشة رضوان الله عليها إذ تقول : « أول ما نزل من القرآن سور المفصّل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبدا »(١) .

لابد إذن من تغيير النفوس شيئا فشيئا ، وإعدادها لتقبل أوضاع جديدة ، وتهيئة النفوس التائهة لتقبل الحق ، كما نهيئ الطفل للفطام بعد الرضاع. فإن أنت منعته مرة واحدة أصبته بضرر بالغ قد يهلكه. وإن أنت أخذته بالتدريج أعنته على الاعتماد على نفسه.

إن الخطوة الأولى على طريق الإصلاح تبدأ من الداعية نفسه حين يتأكد من سلامة القاعدة التى ينطلق منها للإرشاد والتوجيه وإلا أصبح كحاطب ليل لا يدرى أى شيء يمسك. وصدق الرسول الكريم ﷺ حين قال : « نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »(٢).

● خاطبوا الناس على قدر عقولهم :

أنت أيها الأخ المسلم تتعامل مع بشر يعيش فى دنيا لها جواذب ، ونفس لها شهوات فإن لم تعرف المداخل والأبواب التى تدخل منها إلى النفس فإن الفشل سيصيبك لا محالة.

وأكبر خطأ يرتكبه الداعى مع من يدعو أن يبدأ معه حيث انتهى هو فهما وقولا وعملا، وينسى أولى الخطوات التى بدأها هو نفسه فقد يكون حاله وقت ذاك أسوأ من حال الذى يدعوه الآن ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤] ولذلك فإن الداعى لابد أن يبدأ مع من يدعو من حيث النقطة التى انتهى إليها فهم المدعو وليس من النقطة التى انتهى إليها فهم الداعى . واستمع إلى فقه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول : «والله لا أستطيع أن أخرج لهم شيئا من أمر الدين إلا ومعه طرف من الدنيا أستلين به قلوبهم خوفا من أن ينخرق علىّ من لا طاقة لى به »(٣) قال ابن عقيل فى الفنون : «حرام على عالم قوى الجوهر أدرك بجوهريته وصفاء تحيزته علما أطاقه فحمله ، أن يرشح به إلى ضعيف لا يحمله ولا يحتمله فإنه يفسده » ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » .

وقال ابن الجوزى : لا ينبغى لعالم أن يملى ما لا يحتمله عقول العوام .

---

(١) البخارى ج ٦ حديث ٢٢٨ .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد .

(٣) أصول الدعوة عبد الكريم زيدان ص ٤٦٦ .

وقال البخارى : قال على رضي الله عنه : « حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله » .

وقال ابن مسعود : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم »(١) .

فبالله عليك أى فقه هذا الذى تعلمه خريجو مدرسة محمد ﷺ وكم كان السلف الصالح حكيما ، فقيها، واعيا يخاطب الناس على قدر عقولهم ولا يحملهم مالا يطيقون .

ونحن نرى اليوم بعض الإخوة المخلصين لا يلتفت إلى هذا المبدأ وكل ما يهمه أن يصحح عقائد الناس بطريقة ينفر منها أكثر الناس ، وتراهم يخاطبون الناس جميعا لا فرق عندهم بين عالم وجاهل ، أمى ومتعلم ، حضرى أو ريفى ، الكل عندهم سواء فى الخطاب، ويناقشون معهم مسائل لو عرضت على أئمة كبار لتحرج أن يتكلم فيها .

فإذا عرضوا التوحيد عرضوه بصورة أكاديمية علمية عقلية بصرف النظر عن مستوى المدعو من الثقافة الإسلامية أو التعليم العام والأدهى والأمرُّ فإن الذى لا يفقه هذا التوحيد الذى يعرضون يصبح صاحب عقيدة بها من الدخن والدخل ما يفسدها هكذا يقولون له. وليتهم يقرءون ما رواه البخارى عن المقداد بن معدى كرب مرفوعا : « إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم ما يعزب عنهم ويشق عليهم » .

ولقد روى الحاكم فى تاريخه عن النضر بن شميل قال : « سُئل الخليل عن مسألة فأبطأ بالجواب فيها ، قال فقلت : ما فى هذه المسألة كل هذا النظر ، قال : فرغت من المسألة وجوابها ولكنى أريد أن أجيبك جوابا يكون أسرع إلى فهمك » . واسمع إلى ما قاله الشافعى : « لو أن محمد بن الحسن كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا عنه ولكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا فنفهمه »(٢) .

إنها دروس مستفادة من سلفنا الصالح ومن علمائنا الأجلاء الذين تعلموا منهج الدعوة من رسولهم ﷺ وهاك درس منها فاسمعه ـ إن شئت ـ روى البخارى عن أبى معبد مولى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: « إنك ستأتى قوما من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس

---

(١) رواه مسلم فى المقدمة وعزاه بعضهم إلى البخارى هذه الروايات وردت فى كتاب الآداب الشرعية والمنح المرعية لشمس الدين بن عبد الله المقدسى الحنبلى ص ١٦١ .

(٢) الآداب المرعية ص ١٦١ .

صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »(١) .

أرأيت إلى المنهج القويم ، والأسلوب الحكيم فى دعوة الناس ، إنه ﷺ يعلم معاذ أسلوبا من أساليب التدرج فى الدعوة خطوة خطوة تخفيفا على العقل فى القبول وتوطئته للتنقل من شىء إلى شىء عن طريق الرغبة والاشتياق ، فهل يعى الشباب الداعى إلى الله هذه الدروس المستفادة ؟

● تأخير البيان :

هناك حكمة تقول : « لا كل ما يعرف يقال ، ولا كل ما جاز قوله جاء زمانه ، ولا كل ما جاء زمانه جاء أهله ورجاله » .

يقول كثير من العلماء بجواز تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة والعمل . فقد جاء الخطاب بكثير من الفرائض ولكن لم يبينها الرسول ﷺ إلا عند الحاجة والعمل ، فقد فرضت الصلاة ثم لم يبينها الرسول ﷺ إلا عندما تعلمها من جبريل عليه السلام وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وكذلك الحج فرض ثم بينه عندما حج وقال : «خذوا عنى مناسككم » .

وقول ربنا : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٧ : ١٩] فاتبع أى فاستمع وأنصت ، وبيانه أى علينا أن تقرأه ، ويحتمل أن يراد بالبيان بيان مجملاته وتوضيح مشكلاته فيستدل به على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب كما هو الصحيح فى الأصول »(٢) فالبيان هنا متأخر عن الإتباع (الإنزال) .

« وفى كلام الناس قد يقول الرجل : لى إليك حاجة مهمة ولا يبين هذه الحاجة ،وقد يقول : وليتك ولاية كذا وسأبعث إليك مذكرة بتفصيل ما تفعل »(٣) كل ذلك حتى يستوعب العقل ما يعرض عليه وإلا أصبح فتنة كما أخبرنا ابن عباس مرفوعا إلى رسول الله ﷺ يقول : « لا تحدثوا أمتى من أحاديثى إلا ما تحمله عقولهم فيكون فتنة عليهم » .

واسمع إلى ما كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن عدى : « إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان،فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها،وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص».

---

(١) البخارى ج ٨ ص ٦٤ . (٢) البخارى ج ١ ص ٣٠ كتاب بدء الوحى .

(٣) بيان النصوص التشريعية للشيخ بدران أبو العينين بتصرف .

وهو يقصد بالفرائض الأعمال المفروضة ، والشرائع أى العقائد الدينية ، وحدودا يعنى المنهيات ، وسننا أى المندوبات ، سأبينها لكم لا يقصد الأصول فهى معروفة وسأبين تعاريفها ،وهنا كما رأيت نكتة لطيفة تبين تأخير البيان أيضا .

● **الرحيم بنا يعلمنا :**

واسمع إلى فقه الإمام الفخر وهو يقول عن « طلاق الرجعة » : إن الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدرى هل تشق عليه المفارقة أم لا ؟ فإذا فارقه عند ذلك يظهر . فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان ، إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة ، أثبت تعالى حق المراجعة بعد المفارقة مرتين ، وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده » (١).

فانظر إلى رحمات الله بعباده وكيف يسر لهم السبيل ، وأعانهم على طاعته ، وما أعظم ترجمة الإمام البخارى تحت عنوان : **كتمان بعض العلم خوفا من الجور والقتل شرط أن يكون هذا العلم ليس من الأحكام** أو قال : كتمان بعض العلم خشية أن ينكر عليه من لم يألفه أو يعترض عليه ثم ساق الحديث الآتى : حدثنا إسماعيل قال : حدثنى أخى عن ابن ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين أما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قُطِع هذا البلعوم (يعنى القتل) .

وحمل العلماء الوعاء الذى لم يبثه على الأحاديث التى فيها أسامى أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم ، وقد كان أبو هريرة يكنى عن بعضه ولا يصرح به خوفا على نفسه منهم كقوله : أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية لأنها كانت سنة ستين من الهجرة ، واستجاب الله دعاء أبى هريرة فمات قبلها بسنة .

قال ابن المنير : جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهرا وباطنا ، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين . قال : وإنما أراد أبو هريرة بقوله : « قُطِع » أى قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم وتضليله لسعيهم ، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتوبة لو كانت من الأحكام الشرعية ما وسعه كتمانها لما ذكر فى الآية الدالة على ذم من كتم علما .

وقال غيره يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم فى آخر الزمان فينكر ذلك من لم يألفه ويعترض عليه من لا شعور

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٦ ص ١٠٥ بشىء من الاختصار .

له به » (١).

● مع الرسول المعلم ﷺ :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » (٢) أما الحديث الآخر الذى رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول : « إن رجلا سأل النبى ﷺ أى الإسلام خير؟ قال : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (٣) .

فهل تأملت إجابة رسول الله ﷺ لتتعلم فقه الدعوة ، فهذا رجل يسأل الرسول ﷺ أى الإسلام أفضل فيقول له : من سلم المسلمون من لسانه ويده . ويسأله آخر أى الإسلام خير ؟ فيقول : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف . فالأول تحذير لمن خشى منه الإيذاء بيد أو لسان فأرشده إلى الكف ، وفى الثانى ترغيب من رجى فيه النفع العام بالفعل والقول فأرشد إلى ذلك .

وخص الرسول ﷺ هاتين الخصلتين لمسيس الحاجة إليهما فى ذلك الوقت لما كانوا فيه من الجهد ولمصلحة التأليف ويدل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام حث عليهما أول ما دخل الناس كما رواه الترمذى وغيره مصححا من حديث عبد الله بن سلام ولفظه « أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » وهنا نكتة يجب أن ينتبه إليها الدعاة وهى مقتضى الحال ، وهكذا يكون الداعى مع المدعو يعرف متى يقدم شيئا ؟ ومتى يؤخره ؟ فلقد قدم ﷺ إطعام الطعام على الصلاة بالليل والناس نيام .

فتأمل ــ فقهك الله وإياى ــ كيف يكون الداعى مراعيا ظروف المدعو ، والحال الذى عليه ، حتى يخاطب القلوب فتتأثر بما يقول وتترجم الجوارح هذ القول عملا خالصا .

إن بعض الدعاة يريدون للمرضى أن يشربوا الدواء دفعة واحدة لا كما حدده الطبيب تدرجا ، ولو فعل المرضى ذلك لهلكوا ولكن الحكمة تقتضى التدرج فى الدواء حتى يكون الشفاء بإذن الله.

فلو أن إنسانا كان من المبتدئين فى قراءة القرآن مثلا وتعتع فيه فلا تشعره بجرم ارتكبه أو تشق عليه فى تصحيح كل كلمة يقولها فيستحى من قراءته ولكن تدرج معه وقل : والذى يتعتع بالقرآن تعتعة وهو عليه شاق له أجران أجر قراءته وأجر تعتعته فتأخذ بيده ،

---

(١) البخارى ج ١ ص ٢١٦ كتاب العلم . (٢) البخارى ج ١ ص ٥٣ .
(٣) نفس المصدر السابق .

وتشعره بأنك كنت فى يوم مثله بدأت هذه البداية ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ﴿كذلك كنتم من قبل ﴾ فيسهل عليه الإقبال على كتاب الله ويزول حرجه .

● ترك بعض الاختيار مخافة أن تقصُر فهم بعض الناس عنه فيقعوا فى أشد منه :

هكذا ترجم البخارى هذه الترجمة . استمع إلى هذه الأحاديث النبوية الشريفة فى قصة بناء الكعبة على يدى رسول الله ﷺ فقه الدعوة ولتأخذ الدرس المستفاد من الرسول القدوة ﷺ .

فعن عبد الله بن عمر عن عائشة رضي الله عنها زوج النبى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لها : «تَرىْ أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم ، قلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » . فقال عبد الله رضي الله عنه : لئن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أُرَى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحِجْر إلا أن البيت لم يُتمم على قواعد إبراهيم » (١) وعن عائشة ـ أيضا ـ رضي الله عنها قالت : « سألت النبى ﷺ عن الجدْر أمن البيت هو ؟ قال : نعم قلت : فما لهم لم يُدخلوه فى البيت ؟ قال : إن قومك قصَّرت بهم النفقة . قلت : فما شأن بابه مرتفعا ؟ قال : فعل ذلك قومك ليُدْخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبهم أن أدخل الجَدْر فى البيت وأن ألصق بابه بالأرض » .

وعنها رضي الله عنها قالت : « قال رسول الله ﷺ لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام فإن قريشا استقصرت بناءه ، وجعلن له خَلْفا » قال أبو معاوية : « خلفا يعنى بابا » (٢) .

وعنها أيضاً رضي الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهُدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه ، وألزقته بالأرض ، وجعلت له بابين ، بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم » .

فذلك الذى حمل ابن الزبير رضي الله عنهما على هدمه ، قال يزيد : « وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحجر وقد رأيت أساس إبراهيم كأسنمة الإبل ، قال جرير : فقلت له : أين موضعه ؟ قال : أريكه الآن ، فدخلت معه الحجر فأشار إلى مكان فقال: هاهنا ، قال جرير : فحزرتُ من الحجر ستة أذرع أو نحوها » (٣) .

---

(١) البخارى كتاب الحج ج ١ ص ٤٣٩ . (٢) البخارى كتاب الحج ج ١ ص ٤٣٩ .
(٣) البخارى كتاب الحج ج ١ ص ٤٤٠ .

وعن أبى إسحاق عن الأسود قال : « قال لى ابن الزبير : كانت عائشة تُسرُّ إليك كثيرا ، فما حدثتك فى الكعبة ؟ قلت : قالت لى : قال النبى ﷺ : يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم ــ قال ابن الزبير : ــ بكفر ــ لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل الناس ، وباب يخرجون » . ففعله ابن الزبير ، وفى الحديث معنى ما ترجم له البخارى أن قريشا كانت تعظم أمر الكعبة جدا فخشى ﷺ أن يظنوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام أنه غير بناءها لينفرد بالفخر عليهم فى ذلك ، ويستفاد منه .

● **ترك المصلحة لأمن الوقوع فى المفسدة** :ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع فى أنكر منه،وإن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم وإن كان مفضولا ما لم يكن محرما (١) .

وأزيدك عن أبى وائل قال : « جلست مع شيبة على الكرسى فى الكعبة فقال له: جلس هذا المجلس عمر رضي الله عنه فقال : لقد هممت أن لا أدع (يقصد الكعبة) صفراء ولا بيضاء إلا قسمته ، قلت : إن صاحبيك لم يفعلا ــ يقصد رسول الله ﷺ ــ وأبا بكر الصديق قال : هما المرآن أقتدى بهما ــ يعنى هما الرجلان أقتدى بهما » (٢) .

والحديث يبين أن عمر رضي الله عنه أراد أن يجمع الذهب والفضة التى أهديت للكعبة فيقسمها على منافع المسلمين فقيل له : إن رسول الله ﷺ وأبا بكر لم يفعلا ما تريد فلما ذكر له ذلك أمسك . وفى هذا الأمر أقول منها : إن النبى ﷺ يحتمل ترك ذلك رعاية لقلوب قريش كما ترك بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ، ويزيده ما وقع عند مسلم فى بعض طرق حديث عائشة فى بناء الكعبة « لأنفقت كنزا الكعبة » .

واسمع إلى ما ترجمه البخارى تحت هذا الباب :

● **باب من خصّ بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا :**

قال على كرم الله وجهه : « حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله » والمراد بما يعرفون أى يفهمون ــ وزاد فى رواية « ودعوا ما ينكرون » أى يشتبه عليهم فهمه، وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغى أن يذكر عند العامة ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » (٣) .

واسمع إلى ما رواه البخارى عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ ــ ومعاذ رديفه على الرحل ــ قال : « يا معاذ بن جبل ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : يا معاذ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك (ثلاثا) .

---

(١) البخارى ج ١ ص ٢٢٤ .
(٢) البخارى كتاب الحج ج ٣ ص ٤٥٦ .
(٣) رواه مسلم .

قال : ما مِنْ أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار . قال : يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذا يتكلون» (١) وأخبر بها معاذ قبل موته تأثما » .

ويؤخذ من هذا الحديث أنه من كان فى مثل فهم معاذ لا يمنع من إخباره ــ إنما يمنع من إخباره الذين يتكلون على مثل هذه الأحاديث فلا يعملون ويفهمون غير معناها .

وفى رواية مسلم أن النبى ﷺ أمر أبا هريرة أن يبشر بذلك الناس ، فلقيه عمر فدفعه وقال : ارجع يا أبا هريرة ، ودخل على أثره فقال : يا رسول الله لا تفعل ، فإنى أخشى أن يتكل الناس فخلّهم يعملون ، فقال : فخلهم » . فكان قوله ﷺ لمعاذ : أخاف أن يتكلوا بعد قصة أبى هريرة فكان النهى للمصلحة لا للتحريم » (٢) .

● ويستفاد من هذه الأحاديث عدة فوائد منها :

١ ــ ترك بعض الاختيار (٣) مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا فى أشد منه .

٢ ــ اجتناب ما يتسرع الناس إلى إنكاره .

٣ ــ اجتناب ما يخشى منه تولد الضرر عليهم .

٤ ــ تألف قلوبهم بما لا يترك فيه أمر واجب .

٥ ــ تقديم الأهم فالأهم من دفع المفسدة وجلب المصلحة .

● القاعدة فى ذلك :

عندما يتعلق الأمر والنهى بقاعدة من قواعد التصور الإيمانى أى مسألة اعتقادية فإن الإسلام يقضى فيها قضاءً حاسما منذ اللحظة الأولى .

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهى بعادة أو تقليد أو وضع اجتماعى معقد فإن الإسلام يتريث فيه ويأخذ المسألة باليسر والتدرج ويهيئ الظروف التى تيسر التنفيذ والطاعة كتحريم الخمر والميسر والرق وغير ذلك (٤) .

فأنت ترى مبدأ التدرج مبدأ أساسيا فى دعوة الناس لدين الله حتى يفهموه على قدر عقولهم ويقبلوا علية بقلوبهم فضع هذا المبدأ نصب عينيك وأنت تدعو الناس إلى دين الله . .

---

(١) البخارى ج ١ ص ٢٢٦ . (٢) نفس المصدر السابق .

(٣) المقصود ببعض الاختيار أى المستحب .

(٤) روائع البيان فى تفسير الأحكام ج ٢ ص ٢٥٠ للشيخ محمد على الصابونى .

إن الخطة القرآنية فى تغيير واقع الجاهلية الأولى كانت تعتمد على المنهج المتدرج كعنصر أساسى فى خطة التغيير ، وما أحوجنا لهذه الخطة فى وقتنا وظرفنا الراهن ، وذلك لأن الحياة الإسلامية هى اليوم أشد تشابكا وأكثر تعقيدا من أى وقت مضى فلا يمكن بحال أن يمس جانب من جوانبها دون أن يكون لذلك انعكاس على سائر الجوانب الأخرى وهو ما يقتضى أن يكون لذلك التغيير فى صورة من صوره مستلزما لعمل تمهيدى فى جوانب أخرى حتى تتوافر عوامل النجاح فى التغيير .

فهل يمكن مثلا أن يستبدل اليوم هذا النظام الربوى المستفحل فى المجتمع الإسلامى بنظام لا ربوى دون تمهيد بسلسلة من الإجراءات الاقتصادية توفر المناخ الصالح لحصول هذا الاستبدال ؟ وهل يمكن أن نطبق حد السرقة دون أن نمهد لذلك بضمان اجتماعى يحول دون تفشى السرقة بدافع الحاجة ؟ إن التغيير المفاجئ يحدث فى الجسم الحى اضطرابا ، قد تكون له آثار سيئة على صحة الجسم ، والتدرج من الداء إلى العافية فى مراتب متعاقبة هو سنة الله فى خلقه .

« على أن هذا التدرج لا ينبغى أن يكون متروكا للصدفة ـ سواء أكان على مستوى الفرد أو المجتمع ـ بل ينبغى أن ينتظم فى خطة مدروسة بالنسبة للدعوة الفردية من الداعى أو فى خطة مدروسة على مستوى المجتمع وهذا من أكبر مهمات الفكر الواقعى الذى يتعامل مع واقع المجتمع ليأخذ بيده إلى الكمال الإنسانى . وتكون هذه الخطة ذات محورين متكاملين : تدرج فى استبدال الصورة الواحدة بالانتقال فيها من الأدنى إلى الأعلى حتى تبلغ التمام ، وتدرج فى استبدال مجموعة الصور بتقديم ما هو أصل على ما هو فرع تأسيا برسول الله ﷺ ـ كما بينا من قبل ـ وكما رأيناه ﷺ حين أنفق ثلاث عشرة سنة فى معالجة العقيدة ثم انتقل إلى ما هو فرع لها من السلوك العملى » (١) .

أولا ترى ـ بعد هذا كله ـ أننا فى حاجة ماسة إلى تطبيق هذا المبدأ الهام فى زماننا هذا كى نحقق الإصلاح المرجو لنصل إلى الغاية المنشودة موغلين برفق داعين بحكمة متبعين وسائل استخدامها السلف الصالح فسادوا وارتفعت راية الإسلام على أيديهم » .

★ ★ ★

(١) من كتاب الدعوة الإسلامية ـ بحث مقدم إلى الندوة العالمية للشباب الإسلامى تحت عنوان « الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية » د . عبد المجيد النجار ص ٢٢١ .

خامسا : التيسير لا التعسير ـ والتبسيط لا التعقيد

على الداعى الصادق أن ينظر إلى المدعو بروح الناصح الشفيق ، المتواضع السمح ، الرحيم به ، الذى يتمنى الخير له ، لا نظرة المتعالم الذى يشعر من يخاطبه بأنه أعلم من فى الأرض إذا تكلم فليسكت الناس ، وإذا أمر فليطيعوا .

إن نبى الله موسى عليه السلام كما ورد فى الصحيحين عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟، فقال : أنا، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرُدّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن لى عبدا بمجمع البحرين من هو أعلم منك» فكانت قصته مع الخضر عليه السلام(١)والذى اتضح منها العلم الذى آتاه الله للخضر عليه السلام والذى صعب على موسى عليه السلام فهمه وإدراكه .

ومن هنا يجب على الداعى أن يخاطب الناس على قدر عقولهم فييسر لهم ما صعب عليهم، ويشرح لهم ما غم عليهم ولا يظهر بمظهر العالم الجهبذ ليقول الناس : إنه عالم فيحبط عمله ، بل ييسر على الناس ومن التيسير الابتعاد عن التفاصح والتنطع فى الكلام، والتشدق بالحديث وهذا أمر مرغوب فيه ومطلوب .

واسمع إلى ما رواه الترمذى ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبغضكم إلىّ ، وأبعدكم يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون (٢) والمتفيهقون »(٣) .

فليحذر الداعى من مزالق الشيطان ، ودبيب الرياء ، وتزيين النفس الأمارة حتى لا يحبط عمله ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .

وأهم ما يراعيه الداعى ليجذب السامع إليه ، وهو يتحدث معه بيسر ، أن يربط موضوعه الذى يتحدث فيه بالواقع الذى يعيشه المدعو مع ضرب الأمثال التى يعرفها ، وتنوع الأساليب التى تثير الانتباه ، واستخدام المقابلة بين الأضداد ، فإذا تحدث عن الصدق يقارن بينه وبين الكذب وبين سلوك رجلين أحدهما كاذب لا يقول الحق وآخر صادق لا يعرف الكذب فيدرك السامع الفرق بين الحسن والقبيح فيتيسر له الفهم .

وأيضا من الأمور التى تيسر للمدعو الفهم ، بل وتبين القدر الذى فهمه أن يشركه الداعى فى الحديث ليعرف دخيلته ، ويطلع على أفكاره فيعطيه ما يتناسب مع فهمه ، وما

---

(١) قصة موسى والخضر ، صفوة التفاسير ج ٢ ص ٢٠٢ محمد على الصابونى .

(٢) المتشدق : المتطاول على الناس بكلامه والمتكلم بملء فيه تفاصحا .

(٣) المتفيهق : الذى يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه تكبرا وإظهارا لنفسه على غيره .

يتفق وثقافته ، فيخاطبه بتواضع باللغة التى يفهمها وبالأسلوب الذى يجذبه إليه ؛ لأن الناس يكرهون مَنْ يتعالم عليهم أو من يتظاهر بالامتياز عنهم أو من يشعرون منه أنه فى الفضل فوقهم .

وفى نفس الوقت عليه أن لا يتورط فى طرح أى سؤال على المدعو قبل أن يأنس من نفسه أنه متمكن منه، وقادر على الإجابة عليه ، ومستوعب بكل أفكاره ، ومعظم شواهده، وإلا فإنه يقع فى الارتباك والحرج فيفقد المدعو الثقة فيه .

● مع الله فى كتابه :

إنك لو قرأت كتاب الله بتدبر ، لرأيت كثيرا من الآيات المتعلقة بالأحكام والتكاليف يعرضها ربنا على عباده بيسر ﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ ففى عرض العقيدة يبسطها ويعرضها بأسلوب ميسر يفهمه العالم وغير العالم ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ ﴿ إذا لاتخذوا إلى ذى العرش سبيلا﴾ ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ . ويتنوع العرض فيخاطب الفطرة تارة ويخاطب العقول تارة أخرى، ويتحدى تارة ثالثة ، ويناديهم للتفكر والتدبر مرة رابعة كل ذلك بأسلوب سلس ليصل إلى العقول والقلوب (١) .

وما أيسر عرضه للعبادات من صلاة ، وزكاة ، وحج ، وصيام وجهاد . . . إلخ .

ففى الصلاة : ييسر الأمر ويرفع الحرج فى الأمر بالوضوء فى حالة عدم وجود الماء مثلا فبالصعيد الطيب تيمما . فإن لم يجد ففاقد الطهورين يصلى ، وإذا صلى فى سفر خفف عنه تكليف إتمام الصلاة فيصلى قاعدا ، وكذلك إن كان مريضا يصلى جالسا فإن لم يستطع فعلى جنبه ، فإن لم يستطع فبإيماء عينيه . . . إلخ ، يشكو أحد المسلمين ضعفه عن الصلاة قائما فيقول له رسول الله ﷺ : « صل قائما فإن لم تستطع فجالسا فإن لم تستطع فعلى جنبك » .

فى الصيام : ﴿ يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤] .

---

(١) راجع كتاب منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام للمؤلف .

فبعد النداء الشفيف الندى الرطب ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ وهى صيغة فريدة محببة إلى النفس تشعر الإنسان وهو يؤدى هذه الفريضة أنه ليس بدعا من الناس ولكن هذا الصيام الذى تصومه سبقك به الناس قبلك فتشعر بخفة التكليف ، واستطاعة التنفيذ فلقد حمله قبلك من هم مثلك فهلا أقبلت عليه كما أقبلوا عليه ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ ويا له من تعبير مريح للنفس فأنت تصوم شهرا ، ولكنه حين التكليف لم يقل شهرا ، إنما قال لك: ﴿ أياما معدودات ﴾ وقف أمام ﴿ أياما معدودات ﴾ تشعر ببساطة التكليف ويسره وسهولته فهو أيام فلم لا تنجزها ولم لا تصومها إنها أيام معدودات.

ومع أنها أيام فإن اليسر يزداد ورفع الحرج يتضح حين يكون المسلم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر. فأى يسر هذا ، إنه منهاج ربى يعلمنا كيف نيسر للناس حين ندعوهم.

فى الحج : وكم تدور معارك كلامية فى أيام الحج عن مناسكه ويكثر المتفيقهة والمتعالمة وكم من شدة فى الأحكام نراها فى أيامه وكأن التعسير على المسلمين أمر مطلوب ، واسمع إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رجل للنبى ﷺ : « رميت قبل أن أرمى قال : لا حرج. قال : حلقت قبل أن أذبح . قال : لا حرج ، قال : ذبحت قبل أن أرمى ، قال: لا حرج ،وفى رواية أخرى سئل النبى ﷺ فقال : رميت بعدما أمسيت فقال : لا حرج ، قال : حلقت قبل أن أنحر ، قال : لا حرج » وفى رواية أخرى فما سئل يومئذ عن شىء قال : « افعل ولا حرج » (١) .

قال بعض العلماء : مخالفة الترتيب مخالفة للسنة ، وقال ابن حزم : ما أخطأوا السنة ولا خالفوها لأن ما أباحه رسول الله ﷺ ولم ير فيه حرجا فهو سنة لكن تركوا الأفضل فقط (٢) .

فأنت ترى أخى الداعى أن المسألة خلافية بين السنة والمباح لا بين الواجب والمباح والأفضلية فى الفعل فعلى الداعى الفقيه ألا يحرج الناس إذا قدموا أو أخروا ، ولا يعسر وله فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

فى الجهاد : اقرأ معى هذه الآيات ، وتدبر منهج القرآن فى الدعوة للجهاد فى سبيل الله ، بأسلوب يرسى العقيدة ، ويحبب فى بذل النفس رخيصة فى سبيل الله حتى تصبح أسمى الأمانى . يقول ربنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

---

(١) البخارى ج ٣ ص ٥٥٩ .

(٢) المحلى لابن حزم ج ٧ ص ٢٦٢ .

فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ . وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤] .

فقبل أن يأمرهم بالقتال قدم قصة تعمق العقيدة وتزيل رهبة الموت ، وتشعر المسلم بأن الأجل إذا جاء لا يؤخر ساعة ولا يستقدم ، فيطمئن أن يدا لا تستطيع مهما كانت أن تقصر عمرا أو تطيله فيقبل على الجهاد وهو واثق فى قضاء الله مستسلما لقدره . والقصة تعدّه لتقبل أمر القتال فى سبيل الله . ألم يصل إلى سمعك حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة « حذر الموت » أى خوفا وفرارا منه والغرض من الاستفهام التعجب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفا ﴿ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ أى أماتهم الله ثم أحياهم وهم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم لجهاد فهربوا خوفا من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم « حزقيل » فعاشوا بعد ذلك دهرا وقيل : هربوا من الطاعون فأماتهم الله قال ابن كثير : « وفى هذه القصة عبرة على أنه لا يغنى حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه » (١) .

فتدبر ـ فقهك الله فى الدين ـ كيف سبق الأمر بالجهاد هذه القصة المشوقة ليصبح الجهاد ميسرا سهلا تقبله النفوس ، فبالله عليك إذا كان هذا منهاج القرآن فكيف لا نقتدى به .

● يسروا ولا تنفروا :

واسمع إلى أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ يقول : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » قال النووى : لو اقتصر على يسروا لصدق على من يسّر مرة وعسر كثيرا فقال : «ولا تعسروا » لنفى التعسير فى جميع الأحوال ، وكذلك فى قوله : « ولا تنفروا » والمراد تأليف من قرب إسلامه ، وترك التشديد عليه فى الابتداء وكذلك الزجر عن المعاصى ينبغى أن يكون بتلطف ليقبل ، وكذلك تعليم العلم ينبغى أن يكون بالتدريج لأن الشىء إذا كان فى ابتدائه سهلا حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالبا الازدياد بخلاف ضده (٢) .

● التخول بالموعظة :

ومن اليسر على المدعو أن يتخول بالموعظة ، مع مراعاة الوقت المناسب لها حتى تجد الأذن المصغية .

---

(١) صفوة التفاسير ج ١ ص ١٥٦ سورة البقرة .

(٢) البخارى ج ١ ص ١٦٢ كتاب العلم .

حدثنا محمد بن يوسف قال : أخبرنا سفيان عن الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود قال : كان النبى ﷺ يتَخوّلنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا .

ويفهم من هذا الحديث مراعاة الأوقات ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل وقال الشارح فى البخارى : ويستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة فى الجد فى العمل الصالح خشية الملل ، وإن كانت المواظبة مطلوبة لكنها على قسمين : إما كل يوم مع عدم التكلف وإما يوما بعد يوم فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثانى بنشاط » (١) ولذلك يقول أبو وائل : « كان عبد الله يذكّر الناس كل خميس فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوَددْتُ أنك ذكرتنا كل يوم قال : أما إنه يمنعنى من ذلك أنى أكره أن أملّكم ، وإنى أتخولكم بالموعظة كما كان يفعل النبى ﷺ يتخولنا مخافة السآمة علينا » (٢) .

● النهى عن الإفراط :

ولقد نهى الشارع الحكيم عن تكلف مالا يطاق ؛ ليستمر السير فى الطريق بيسر ، فبعض الدعاة يكلفون المدعو ما لا يطيق مما يجعله ينفر من الدعوة أو يهرب من مشاق الطريق فتراهم يأمرونهم بالفرائض والسنن بل والنوافل والتطوع دفعة واحدة ، ويلومونهم إن هم فرطوا فى فضيلة من الفضائل وينسون أن الداعى عليه أن يأخذ بالعزيمة ويدع الناس يترخصون حتى يزدادوا إيمانا فيستعذبون العذاب فى سبيل الله ويأخذوا بالعزائم بعد ذلك.

عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ رأى شيخا يُهادى بين ابنيه قال : ما بال هذا ؟ قالوا : نذر أن يمشى ، قال : إن الله عن تعذيب هذا لنفسه لغنى ،وأمره أن يركب » وأيضا من حديث مالك عن حميد بن قيس وثور أنهما أخبراه أن رسول الله ﷺ رأى رجلا قائما فى الشمس ، فقال : « ما بال هذا ؟ قالوا : نذر أن لا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فأمره أن يستظل ويتكلم ويصوم ويفطر » (٣) .

ولقد نهى رسول الله ﷺ ، عن الوصال لما فيه من عنت ومشقة والدين يسر فلم نعسّر ما يسره الله .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إياكم والوصال ــ مرتين قال : « إنك تواصل. قال : إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين ، فاكلفوا (٤) من العمل ما تطيقون»(٥).

---

(١) نفس المرجع السابق . (٢) البخارى ج١ ص١٦٣ . (٣) البخارى ج٤ ص٧٨

(٤) اكلفوا : كلف بكذا أى ولع به كذا فى مختار الصحاح . (٥) البخارى ج٤ ص٢٠٦ .

ولذلك حينما رأى رسول الله ﷺ امرأة تتكلف فى عبادتها لربها نهاها عن ذلك فعن عائشة أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال : مَنْ هذه ؟ قالت : فلانة ـ وفى رواية لا تنام وتصلى ـ قال : « مَهْ ، عليكم بما تطيقون ، فو الله لا يملُّ الله حتى تملوا » (١) .

فهل تأملت هذه الأحاديث ؟ إنها تنبهك إلى عدم التكلف والإفراط على نفسك أنت أيها الداعى . فما بالك بمن تدعوه ، ألا ليت الشباب يسلك سبيل اليسر مع الناس ولا يكلفهم ما لا يطيقون فكم من القضايا يفاصل فيها الشباب الناس ، ويشددون بل ويعسرون عليهم حتى يجعلوها وكأنها من الأصول كقضية الشرب وقوفا . والتبول قائما فلربما يكون المدعو أول مرة يدخل فيها المسجد بل أول مرة يتوضأ فإذا بال واقفا أو شرب قائما شيع بالنظرات القاسية والتوجيه الغليظ ، ولعل ذلك يكون سببا فى تركه الصلاة أو عدم دخوله المسجد مرة أخرى من القسوة والغلظة ، والتعالى والتعالم اللذين يقابل بهما .

وهذا صحابى جليل هو أبو موسى الأشعرى يحكى عنه أبو وائل أنه كان يشدد فى البول ويقول : إن بنى إسرائيل كان إذا أصاب ثوب أحدهم قرضه ، فقال حذيفة : ليته أمسك ، أتى رسول الله ﷺ سباخه قوم فبال قائما » (٢) .

فأنت ترى قول حذيفة رضوان الله عليه : « ليته أمسك » حين شعر بشدة أبى موسى وقال : إن الأمر ليس هكذا فإن رسول الله ﷺ كان يبول قائما » . وفى رواية مسلم « إذا أصاب جلد أحدهم » وقال الإسماعيلى : لوددت أن صاحبكم لا يشدد هذا التشديد .

واحتج حذيفة بهذا الحديث لأن البائل عن قيام قد يتعرض للرشاش ،ولم يلتفت النبى ﷺ إلى هذا الاحتمال فدل على أن التشديد مخالفة للسنة (٣) .

● جواز النهى عن المستحبات إذا خشى أن ذلك يفضى إلى السآمة والملل :

وما أروع ما ترجمه الإمام البخارى تحت عنوان : جواز النهى عن المستحبات إذا خشى أن ذلك يفضى إلى السآمة والملل وتفويت الحقوق المطلوبة الواجبة أو المندوبة الراجح فعلها على فعل المستحب المذكور .

أى فقه هذا يا شباب الإسلام ـ اقرءوا زادكم الله علما وفقها ،فعن أبى جحيفة عن أبيه قال : آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء مبتذلة فقال لها : ما شأنك ، قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ،

---

(١) البخارى ج١ ص١٠١ باب أحب الدين إلى الله أدومه . (٢) سنن أبى داود والبخارى .
(٣) البخارى ج١ ص ٢٣٠ كتاب الوضوء .

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال له : كل . قال : فإنى صائم قال : ما أنا بآكل حتى تأكل . قال : فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن . فصليا ، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك . فقال له النبى ﷺ : صدق سلمان »[1] . ما أيسر هذا الدين !! إنه دين الفطرة فكل ما يصطدم بها فهو ليس من الدين لأن الذى خلق هو الذى أمر ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [تبارك: ١٤] . وانظر إلى اليسر والبساطة بل الفطرة السليمة والذوق العالى فى هذا الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال : صنعت للنبى ﷺ طعاما ، فلما وضع قال رجل: أنا صائم . فقال رسول الله ﷺ : دعاك أخوك وتكلف لك ، أفطر وصم مكانه إن شئت »[2] بهذه البساطة وهذا اليسر ورفع الحرج . . أفطر وصم مكانه طالما أنه صيام تطوع.

● إذا صلى أحدكم فليخفف :

إن الاعتدال مطلوب للتيسير على المسلم حتى ولو كنت إماما تصلى بالناس فيجب أن تفرق بين صلاتك بمفردك متنفلا وبين صلاتك وأنت تؤم المسلمين واسمع معى إلى هذا الحديث : عن ابن مسعود الأنصارى قال : «قال رجل : يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يُطول فلان فما رأيت النبى ﷺ فى موعظة أشد غضبا من يومئذ فقال : أيها الناس إنكم منفرون ، فمن صلى بالناس فليخفف ، فإن منهم المريض والضعيف وذا الحاجة»[3].

وكم رأيت بعينى وشاركت بنفسى فى صلاة قيام رمضان ، فكم من شاب من الذين يؤمون كان يطيل القراءة حتى يصل إلى أكثر من جزء ، يطيل السجود والركوع حتى يصرف المصلى عن الخشوع وبدل أن يتدبر المأموم فى الآيات يسأل نفسه متى يفرغ الإمام من الصلاة . . وكم من إنسان ترك مثل هذه المساجد من طول الوقوف والسجود والركوع . . ألا رفقا بالناس . . ألا يسروا ولا تنفروا ، فإن أبا هريرة رضي الله عنه روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف ، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير ، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء »[4] .

وعن أبى قتادة عن النبى ﷺ قال : « إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه » . وفى رواية ـ مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه[5] .

(١) البخارى ج ٤ ص ٢٠٩ . (٢) البخارى ج٤ ص٢٠٩ . (٣) البخارى ج١ ص١٨٦ .
(٤) البخارى ج١ ص ١٩٩ كتاب الأذان . (٥) المصدر السابق .

● معالجة للنفس عجيبة :

بالله عليك كم من إنسان يرمى بالجبن حين يذكر الجهاد ؟ وكم من إنسان يرمى بالخوف حين يذكر الحكام ؟ فما أسهل أن تصف الناس بهذه الصفات . . أما أن تتعامل مع النفوس لتأخذ بيدها حتى ولو كانت كذلك ، فهذا أمر شاق ؛ لأنه ليس كل الناس يقولون التى هى أحسن ، وليس كل الناس يستطيعون أن يصنعوا من العداوة محبة ولا من البغضاء ولاية حميمة لأن هذا وقف على كل ذى حظ عظيم .

واسمع إلى الحسن بن على رضي الله عنهما قال : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى جبان ، إنى ضعيف ، فقال : هلّم إلى جهاد لا شوكة فيه الحج » (١) .

فإذا تأملت هذا الحديث رأيت الفطرة السليمة تنطق ،رجل من المسلمين يعترف لرسول الله ﷺ بأنه جبان ضعيف،صدق مع النفس،وصدق مع القيادة وطلب صادق لمعالجة النفس لدى من أرسله الله رحمة للعالمين فكان الجواب لا سخرية فيه ولا تعال، ولا تهكم ولا لوم،ولكن دعوة لتهذيب النفس وإرشادها إلى طريق تقوية ومعالجة هذين الداءين يذكره بالجهاد الذى هو ذروة سنام الأمر ولكن لا شوكة فيه إنه الحج فهو جهاد كل ضعيف كما روت أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الحج جهاد كل ضعيف» (٢) .

فبالله عليك لو اعترف إنسان بضعفه بل بجبن اليوم أمام بعض الدعاة من الشباب فهل تتصور القذائف التى ستنهال عليه ؟ وهل تتصور السب والشتم واللعن الذى سيلحق به ؟ وهل تستطيع أن تستحضر الأوصاف التى سيوصف بها ؟ كم من شباب رموا شيوخا شاب شعرهم فى سبيل الله وقضوا السنوات الطوال خلف القضبان لأنهم كانوا حكماء فى مخاطبة الزعماء ، مؤدبين فى مخاطبة الحكام ينتقون الألفاظ ، ويختارون الكلمات لأنهم تأسوا برسولهم القدوة ﷺ . فهل آن للشباب أن يفقه دعوته ؟

● مع مَنْ بال فى المسجد :

وتعال معى لتشاهد هذا الموقف وحاول أن تتصوره . .

رسول الله ﷺ فى المسجد وحوله بعض من أصحابه يعلمهم أمر دينهم فيدخل رجل وهم جلوس فيبول فى المسجد الذى يجلس فيه رسول الله ﷺ . . لو حدث هذا فى أيامنا هذه لرأيت العجب . . . نعم لرأيت فى أبسط الأمور وأحسن التقدير من يحمله ليلقى به خارج المسجد . . أو من يهشم رأسه أو يسبه ويلعنه أو يقتله جهادا فى سبيل الله أما آن لهم أن يتعلموا فقه رسول الله ﷺ وهو يُعنِّف من عنّف الرجل ويقول له ما معناه ــ دعه

---

(١) رواه الطبرانى ورواته ثقات . (٢) رواه ابن ماجة .

ولا تقطع على الرجل بولته.

كما روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : بال أعرابى فى المسجد ، فقام الناس ليقعوا فيه ، فقال النبى ﷺ : « دعوه وأريقوا على بوله سجلا (دلوا) من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » .

لقد رأيت بعض الشباب الذين يتشددون فى الأمور ويبحثون عن كل دليل ليؤكدوا به ميلهم للتشديد، ويعسروا على أنفسهم كأصحاب البقرة الذين قال لهم نبيهم موسى عليه السلام : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فليتهم ذبحوا أية بقرة ونفذوا أمر الله وانتهوا ، لكنهم أخذوا يتساءلون فمرة يقولون: أتتخذنا هزوا ، وأخرى يقولون : ما لونها ؟ وثالثة يقولون: إن البقر تشابه علينا، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وينسون أن رسول الله ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما .

● كره التشديد فى العبادة :

إن القلوب كمعدن الحديد تصدأ من كثرة الاستعمال ، وتمل وتكل فتترك العمل وهذا ما علمنا إياه رسولنا ﷺ حين قال :«إن القلوب إذا كلت ملت ، ولكن ساعة وساعة » . فالتعب المتواصل يراكم الملل .

وقف خاشعا أمام قول الرحيم العليم : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ فهذه هى القاعدة الكبرى فى تكاليف عقيدة الإسلام كلها فهى ميسرة لا عسر فيها وهى توحى للقلب الذى يتذوقها بالسهولة واليسر فى أخذ الحياة كلها وتطبع نفس المسلم بطابع خاص بين السماحة التى لا تكلف فيها ولا تعقيد سماحة تؤدى معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاط الحياة الجادة وكأنما هى سيل الماء الجارى ونمو الشجرة الصاعدة فى طمأنينة وثقة ورضاء ، مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر بعبادة المؤمنين(١) .

فأين هذه المعانى من بعض الذين يبحثون عن كل صعب ليقدموه للناس على أنه الإسلام أو هو من الإسلام إنه الهوى المتبع وليس الإسلام لأن العسر الذى ينادى به بعضهم إنما نخشى أن يكون هذا السلوك صدر من أعماق النفس الأمارة بالسوء ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض . . . ﴾ ولذلك كانت العصمة من ذلك هى الاقتداء برسول الله ﷺ فى صغير الأمر وكبيره .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخل النبى ﷺ المسجد فإذا بحبل ممدود بين الساريتين

(١) ظلال القرآن ج١ ص ١٧٢ سورة البقرة .

فقال : « ما هذا الحبل ؟ » قالوا : هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت ، فقال النبى ﷺ : « لا حلُّوه ، ليصلِّ أحدكم نشاطه ، فإذا فتر فليقعد » (١) .

إنها الفطرة التى نطق بها رسول الله ﷺ وهو يبين لنا طبيعة النفس الإنسانية ويقول الحديث الصحيح : « لكل عمل شرة (٢) ، ولكل شرة فترة (٣) فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى » ، وفى لفظ آخر صحيح « فمن كانت شرته إلى سنتى فقد اهتدى »(٤) .

ويترجم ذلك توجيه رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه ابن عباس يقول : سمعت عبد الله بن عمرو ﷺ قال : قال لى النبى ﷺ : « ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟» قلت : إنى أفعل ذلك . قال : « إنك إذا فعلت ذلك هجمت عينك(٥)، ونقهت نفسك (٦) ، وإن لنفسك حقا ، ولأهلك حقا ، فصم وأفطر وقم ونم » (٧) .

وهكذا علم رسول الله ﷺ ذلك الصحابى الجليل ما يصلح لأن الأولى تقديم الواجبات على المندوبات،وأن من تكلف الزيادة على ما طبع عليه يقع له الخلل فى الغالب.

وكذلك فإن الوفد الذى جاء يسأل عن عبادة النبى ﷺ وأخبرتهم السيدة عائشة بكيفية عبادته فكأنهم تقالّوها وإذا بأحدهم يقول : أما أنا فأقوم الليل كله ، وقال الثانى : أما أنا فأصوم الدهر كله وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء فإذا برسول الله ﷺ يردهم ليسر الشريعة ويسر العبادة فيقول ــ أو كما قال ــ ﷺ : أما أنا فأقوم وأنام ، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، وهذه سنتى ومن رغب عن سنتى فليس منى .

إن السيدة عائشة رضوان الله عليها وأرضاها تقول لنا : كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال ما يطيقون ، قالوا : إنا لسنا كهيئتك (٨) يا رسول الله . إن الله غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فغضب حتى يعرف الغضب فى وجهه ثم يقول : « إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا » (٩) .

---

(١) البخارى ج ٣ ص ٢٦ .

(٢) الشرة هى بلوغ أقصى الجد والاجتهاد والحرص على الإتقان .

(٣) الفترة هى الفتور أى التراخى من بعد الجد والجنوح للكسل وإيثار الدعة والراحة .

(٤) كتاب العوائق محمد أحمد الراشد ص ٩ .

(٥) حارت أو ضعفت لكثرة السهر .

(٦) كلّت .

(٧) البخارى ج ٣ ص ٣٨ .

(٨) أى لسنا مثلك يا رسول الله فكأنهم طلبوا منه ﷺ ما يشق عليهم .

(٩) البخارى ج ١ ص ٧٠ كتاب الإيمان .

● **قاعدة هامة :**

من ذلك كله تستخلص قاعدة هامة وهى وجوب الوقوف عند حد الشارع من عزيمة ورخصة ، واعتقاد أن الأخذ بالأرفق للشرع أولى من الأشق المخالف له ، فهل يعى المتشددون هذا الفهم الدقيق ؟ إن المجتمع الأول كانت الصفة المميزة له هذا التيسير على الناس حتى أصبح سلوكهم لا أقول فى العبادات فحسب بل وفى المعاملات التيسير على الناس ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « كان تاجر يداين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه : تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فتجاوز الله عنه » (١).

إن الخلط عند الشباب بين أن تأخذ أنت ـ أيها الداعى ـ بالعزيمة وتربى نفسك على مكارم الأخلاق وتضع نصب عينيك بيعة بينك وبين الله لا تتحقق إلا بصفات ثمان ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾ . فتحاول الوصول إليها فتجتهد وتجاهد نفسك وتحاسبها على الهفوة وبين أن تدعو الناس لدين الله فتتركهم يترخصون وترفق بهم ولا تحملهم مالا طاقة لهم به ولا تنس قول الله : ﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم﴾ فيسروا يا دعاة ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا .

★ ★ ★

(١) البخارى ج ٤ ص ٣٠٩ .

سادسا : الأصول قبل الفروع

على الداعى أن يحاول فى بداية دعوته أن ينقل المدعو إلى آفاق الإسلام ، فيهدى إليه نفسه ـ بتوفيق من الله وحده ـ ويدعوه فى قوة وإيمان إلى الربانية الشاملة التى تهيئ للإنسان حياة صالحة سعيدة تعطى للقلب حقه ، وللبدن حقه ، وللنفس حقها ، وبالتالى فهو يحاول أن يغير ما بنفوس المدعوين حتى يغير الله ما بهم من فساد ، وكل دعوة لا تبلغ هذا الهدف أولا وقبل كل شىء أو ترى هذه الغاية التى هى بداية كل خير ، فجهدها ضائع وعملها لا طائل منه .

ولذلك فالداعى وهو يتعامل مع النفوس أولا ليغيرها محتاج أن يدخل على مشاعر المدعوين فى حكمة ، فيحرك وجدانهم ، ويستثير عواطفهم إلى الله ، فإذا تأتى له ذلك ، ولانت نفوسهم لقوله سيصنع منهم بعد ذلك ما يشاء صنعه ، ويستجيبون له بفضل الله وحده .

ومن هنا وجب على الداعى أن يبدأ بالأصول يخاطب بها المدعو بأسلوب سهل سلس يصل به إلى قلبه فيرويه بعد ظمأ ويطمئنه بعد تقلب وإلى النفس فيسكنها بعد جنوح ويقومها بعد اعوجاج .

وهذا هو منهاج القرآن مع الإنسان بدأ بالأصول واهتم بإبراز التصور الإسلامى لحقيقة الألوهية والذى يقوم ابتداء على تعريف الناس بربهم تعريفا دقيقا شاملا يعرفهم بذاته سبحانه ، ويعرفهم بصفاته ويعرفهم بخصائص الألوهية المتفردة التى تفرقها عن خصائص العبودية كما يعرفهم بأثر هذه الألوهية فى الكون وفى الناس ، وفى جميع العوالم والأمم الحية .

ويتم هذا التعريف على نطاق واسع جدا فى القرآن بمنهج فريد يصبح معه الوجود الإلهى فى النفس البشرية وجودا أكيدا ، واضحا مؤثرا يأخذ النفس من أقطارها وتعيش معه النفس مشدودة إليه لا تملك التفلت منه ، ولا نسيانه ولا إغفاله لأنه من القوة والوضوح ، بحيث يواجه النفس دائما ، ويتراءى لها دائما ، ويؤثر فيها دائما .

هذا التأثير تنوعت أساليبه ليصل إلى العالم والجاهل ، والبدوى والحضرى ، والمثقف والأمى على حد سواء فتزداد به القلوب إيمانا والنفوس اطمئنانا ، والعقول اقتناعا ، فيقبل الناس على دين الله إقبالا ، ولذلك بدأ كل رسول ونبى أول ما بدأ دعوته بالأصل الثابت ﴿ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ثم جاءت التكاليف بعد ذلك .

● دعوة المسلمين للإسلام :

وهذا الذى أقول من قبل حين نبدأ بالعقيدة أولا وقبل كل شىء قبل التكاليف لا نقصد به أن المسلمين قد ارتدوا عن دينهم أو إنهم ينكرون وجود إلههم فهذه قضية أخرى حسمها الفقه الإسلامى بأحكامه الدقيقة التى تكلم عنها العلماء بشىء من التفصيل إنما نقصد بإبراز الجانب العقيدى أن نصحح العقائد ونحرك العواطف ونستثير الوجدان، ونذكر الناس ، فنوقظ الغافل ونذكره ــ فلا عجب ــ فلقد نسى أبو البشر آدم واحتاج إلى التذكرة فما أحوجنا نحن إليها اليوم .

لذلك فإننا نذكر المسلمين بالغاية التى لأجلها خلقوا ونقول لهم :لقد خلقنا الله رضينا أم لم نرض ، راجعون إليه لا محالة أطعنا أم عصينا ، وخير للإنسان أن يمضى إلى ما لا بد منه فى كرامته ، من أن يُكره عليه فى هوان وذلة ، فما خلقنا عبثا وما تركنا سدى ، فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل فلينظر المرء ما قدمت يداه .

فإذا عرف المدعو غايته ، فقد عرف واجبه ، وهذا هو المحور الذى دارت حوله الرسالات . ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ﴾ .

ولذلك فإن الإسلام وحد المسلمين أولا على :

أ ــ المشاعر الواحدة : فتوجهوا إلى إله واحد فامتلأ القلب بالإيمان فتآلفت القلوب باتجاهها إلى رب واحد ؛ لأن الإيمان يوحد المشاعر ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ . فلا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد .

ب ــ الشعائر الواحدة : ثم تأتى بعد ذلك الشعائر لتعمق هذا الإيمان وتزداد الألفة بينهم بصلاة الجماعة ، وزكاة المال ، وصيام رمضان ،وحج البيت كل هذه الشعائر تبرز الأخلاق الإسلامية وتعمق رابطة الأخوة فلا إيمان بدون أخوة ولا أخوة بدون إيمان فهما كوجهى العملة لا غنى لأحدهما عن الآخر ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ولذلك يقول ابن عمر رضي الله عنهما : « لو صمت النهار لا أفطره ، وقمت الليل لا أنامه ، وأنفقت مالى غلقا غلقا فى سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعته وبغض لأهل معصيته ما نفعنى ذلك شيئا » . ثم تأتى بعد ذلك الشرائع الواحدة .

جـ ــ الشرائع الواحدة : فما أسهل أن تقام بعد ذلك فى مجتمع تآلفت مشاعره ، وتوحدت شعائره فإذا بهم يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون فيصبحون بذلك خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ينادى ربهم : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ واحدة فى مشاعرها ، واحدة فى شعائرها واحدة

فى شرائعها، ربها واحد ، ورسولها واحد ، وكتابها واحد .

ولذا فلابد أن نبدأ مع الناس بالأصول أولا ؛ لأن بعض الناس يصرون على أن مناط الأمر فى التفاصيل الدقيقة للألوهية ، فيطلبون ممن يدعونهم تحديد معنى الألوهية ، ومعنى الربوبية ، والأسماء والصفات بل ومعرفة كل صفة من الصفات وكل فعل من الأفعال ، بينما المطلوب معرفة الإيمان معرفة واضحة لا غموض فيها ولا إبهام أما تفاصيل الأحكام فهى فرض كفاية كما قال ربنا : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] .

فعامة المسلمين مطلوب منهم أن يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وأن كل مسلم عليه صلاة يجب أن يؤديها وزكاة يدفعها وحجا يقصده إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، وشهرا يصومه ، وأن يتحلى بالفضائل ويتخلى عن الرذائل . . . إلخ ، فنبدأ معه بالإيمان ليفقهه إن كان يجهله ثم نبين له الفرائض ثم نتدرج معه إلى الفضائل ، فإن سأل عن الصلاة أجبناه عن الفروض الخمس ، فإن أقسم ألا يزيد ولا ينقص قلنا : أفلح إن صدق ، وهكذا حتى يتذوق للإيمان طعما فيحب لله ويبغض لله، ويعطى لله ويمنع لله ويستكمل الإيمان ﴿ ليزداد الذين آمنوا إيمانا ﴾ فنكون بذلك قد وصلنا معه إلى الغاية المنشودة والشخصية الإسلامية المطلوبة .

واسمع إلى طلحة بن عبيد الله يقول : « إن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال : يا رسول الله أخبرنى بما فرض الله علىّ من الصلاة ؟ فقال : الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئا ، فقال: أخبرنى بما فرض الله علىّ من الصيام ؟ فقال : شهر رمضان إلا أن تطوع شيئا ، فقال : أخبرنى بما فرض الله علىّ من الزكاة ؟ قال : فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام . قال : والذى أكرمك بالحق ، لا أتطوع شيئا ولا أنقص مما فرض الله علىّ شيئا ، فقال رسول الله ﷺ :أفلح إن صدق،أو دخل الجنة إن صدق»(١).

● البعد عن مواطن الخلاف :

ويجب أن نعلم أن الخلاف الفقهى فى الفرعيات أمر ضرورى لابد منه إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف فى فهمها وتصورها العقول والأفهام ، لهذا كان الخلاف واقعا بين الصحابة أنفسهم ، وما زال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة ، وما أحكم لإمام مالك رضي الله عنه ، حين قال لأبى جعفر وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ : « إن أصحاب محمد ﷺ تفرقوا فى الأمصار ، وعند كل قوم علم ، فإذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة » .

---

(١) البخارى ج ٤ ص ١٠٢ كتاب الصيام .

وليس العيب فى الخلاف ولكن العيب فى التعصب للرأى والحجر على عقول الناس وآرائهم ، هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة «وحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلما» كما قال زيد رضي الله عنه(١).

أين هذا الفهم ؟ وهذا الفقه من الذين يختلفون مع الناس فى هيئات الصلاة أو عدد درجات المنبر ، أو وقت القنوت فى الفجر أو بعد الوتر أو عند النوازل فقط وما أكثر الأمور الفرعية التى تثار فتفرق الصف ولا تجمعهم فأحرى بالداعى أن يبدأ مع الناس بالأصول التى تجمع فإن كان هناك خلاف فى فرع استخدمنا القاعدة الذهبية التى قالها الإمام البنا رضوان الله عليه : « نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه » وهنا تتلاقى القلوب وتتوحد الصفوف إن خلصت النوايا .

ولذلك وجب علينا أن نراعى حين البدء بالدعوة أن نبدأ :

بالأصول قبل الفروع

والكليات قبل الجزئيات

والإجمال قبل التفصيل

إن بعض الشباب لا همّ له إلا إثارة الخلاف والتشبث به حتى أصبح الخلاف عندهم أصلا يجتمعون عليه ويفترقون من أجله : « يقول الأستاذ محمد الغزالى : لاحظت شابا يتكلم بحقد عن أحد الدعاة قلت : ما تنقم منه ؟ قال : ما يعرف السنة ؟ ألا ترى إسباله لثوبه ؟ وما يحسن الصلاة !! يقعد وقدماه على هيئة كذا ، قلت : تكره مسلما وتتمنى له الشر لهذه الصغائر ؟ إن تضخيم هذه الأمور دليل مرض نفسى ومعصية قلبك أبعد عن المغفرة من اضطراب مظهره ،ولعله أقرب إلى الله منك .

وعلى هذا النحو ترى رجلا يتبع مذهبا فى العقيدة أو فى فقه الفروع فيحسب أن اهتداءه إلى هذا المعنى ، أو إلى هذا المسلك ، قد جمع له المجد من أطرافه فلا حرج عليه أن يتصرف كيف يشاء وكأنما قال الله له : « افعل ما شئت فقد غفرت لك » (٢) .

- **البدء بالكليات :**

عن أنس بن مالك قال : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء فكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك قال : صدق ، قال : فمن خلق السماء ؟ قال: الله ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله ، قال : فمن نصب الجبال

---

(١) مجموعة الرسائل الأستاذ / حسن البنا المؤتمر الخامس ص ١٥٨ .

(٢) مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية محمد الغزالى ص ٤ .

وجعل فيها ما جعل ؟ قال ﷺ : الله ، قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال : نعم . قال : زعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا قال : صدق ، قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان فى سنتنا قال : صدق . قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : صدق . قال : ثم ولىّ وقال : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليك ولا أنقص قال النبى ﷺ : لئن صدق ليدخلن الجنة » (١) .

فأنت ترى رسول الله ﷺ يبلغ الفرائض فقط ويكتفى بكليات الإسلام بالرغم من أن هذا التبليغ بعد هجرة رسول الله ﷺ وبعد فرض الحج على المسلمين وهو آخر ما فرض من الشعائر أى بعد إقامة دولة الإسلام ، واكتمال الدين وإتمام النعمة ومع هذا ما فصل رسول الله ﷺ وما زاد عن الفرائض التى سأله الرجل عنها إذ أن على الداعى أن يراعى حال المخاطب فيخص بعض الأعمال بالحض عليها حسب حال المدعو وافتقاره إليها فينبه عليها أكثر مما سواها إما لمشقتها عليه وإما لتسهيله فى أمرها .

« وفى مثل هذه الأحاديث فائدة عظيمة فلعل أصحابها الذين يسألون هذه الأسئلة كانوا حديثى عهد بالإسلام فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم فى تلك الحال لئلا يثقل عليهم فيملوا ، حتى إذا انشرحت صدورهم للفهم والحرص على تحصيل ثواب المندوبات سهلت عليهم» .

ولقد كان صدر الصحابة ومن تبعهم يواظبون على السنن مواظبتهم على الفرائض ولا يفرقون بينهما فى اغتنام ثوابهما وإنما احتاج الفقهاء إلى التفرقة لما يترتب عليه من وجوب الإعادة أو تركها ووجوب العقاب على الترك ونفيه (٢) .

واسمع إلى تعليق الإمام النووى حيث يقول : « قال الشيخ أبو عمر بن الصلاح رحمه الله : فى هذا الحديث ــ السابق ــ دلالة لصحة ما ذهب إليه أئمة العلماء من أن العوام المقلدين مؤمنون وأنه يكتفى منهم بمجرد اعتقاد الحق جزما من غير شك خلافا لمن أنكر ذلك من المعتزلة وذلك أنه ﷺ أقر رسوله على ما اعتمد عليه من تعرف رسالته وصدقه ومجرد إخباره إياه بذلك ولم ينكر عليه ذلك ولا قال : يجب عليك معرفة ذلك بالنظر فى معجزاتى والاستدلال بالأدلة القطعية » وهذا أمر يشق على العامة من المسلمين ووقف على مَن فقه منهم خاصة .

وأنت ترى أن الرسول ﷺ أقر له بالفلاح بمجرد الإتيان بالفرائض دون السنن والنوافل ففى هذا الحديث كما قال الإمام النووى : احتمال أنه أراد أنه لا يصلى النافلة مع أنه لا

(١) مسلم ج ١ ص ١٧١ باب السؤال عن أركان الإسلام .

(٢) البخاري ج ٣ ص ٢٦٥ .

يخل بشيء من الفرائض وهذا مفلح بلا شك وإن كانت مواظبته على ترك السنن مذمومة وترد بها الشهادة إلا أنه ليس بعاص بل هو مفلح ناج والله أعلم (١) .

● الاشتغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى :

يقول فضيلة الدكتور القرضاوى : « ومما أنكر على الشباب المسلم اشتغالهم بكثير من المسائل الجزئية والأمور الفرعية ،عن القضايا الكبرى التى تتعلق بكينونة الأمة وهويتها ومصيرها فترى كثيرا كثيرا منهم يقيم الدنيا ويقعدها من أجل حلق اللحية أو الأخذ منها أو إسبال الثياب ، أو تحريك الإصبع فى التشهد أو اقتناء الصور الفوتوغرافية أو نحو ذلك من المسائل التى طال فيها الجدال وكثر فيها القيل والقال .

هذا فى الوقت الذى تزحف فيه العلمانية اللادينية،وتنتشر الماركسية الإلحادية، وترسخ الصهيونية أقدامها،وتكيد الصليبية كيدها ،وتعمل الفرق المنشقة عملها فى جسم الأمة الكبرى وتتعرض الأقطار الإسلامية العريقة فى آسيا وأفريقيا لغارات تبشيرية جديدة يراد بها محو شخصيتها التاريخية وسلخها من ذاتيتها الإسلامية ، وفى نفس الوقت يذبح المسلمون فى أنحاء متفرقة من الأرض ، ويضطهد الدعاة الصادقون إلى الإسلام فى بقاع شتى.

والعجيب أنى وجدت الذين هاجروا أو سافروا إلى ما وراء البحار فى أمريكا وكندا وأوروبا ، لطلب العلم أو طلب الرزق قد نقلوا هذه المعارك الجانبية إلى هناك .

وكثيرا ما رأيت بعينى وسمعت بأذنى ، آثار هذا الجدل العنيف وهذا الانقسام المخيف بين فئات المسلمين حول تلك المسائل التى أشرنا إلى بعضها وما يشبهها من قضايا اجتهادية ستظل المذاهب والآراء تختلف فيها ، وهيهات أن يتفق الناس عليها .

وكان الأولى بهؤلاء أن يصرفوا جهودهم إلى ما يحفظ على المسلمين وناشئتهم أصل عقيدتهم ويربطهم بأداء الفرائض ، ويجنبهم اقتراف الكبائر ، ولو نجح المسلمون فى تلك الأقطار الأجنبية فى هذه الثلاث :

حفظ العقيدة ــ وأداء الفريضة ــ واجتناب الكبائر

لحققوا بذلك أملا كبيرا وكسبا عظيما .

ومن المؤسف حقا أن من هؤلاء الذين يثيرون الجدال فى هذه المسائل الجزئية ويؤججون نارها باستمرار أناسا يعرف عنهم الكثيرون ممن حولهم ، التفريط فى واجبات أساسية مثل بر الوالدين أو تحرى الحلال أو أداء العمل بإتقان، أو رعاية حق الزوجة أوحق الأولاد ، أوحق الجوار ولكنهم غضوا الطرف عن هذا كله ، وسبحوا بل وغرقوا فى دوامة الجدل الذى أصبح لهم هوية ولذة وانتهى بهم إلى اللجج والخصومة والمماراة المذمومة ، وهذا

(١) مسلم ج ١ ص ١٧١ باب السؤال عن أركان الإسلام .

النوع من الجدل هو الذى أشار إليه الحديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » .

ومثل هذا الموقف المتناقض ـ الاجتراء على الكبائر والوسوسة فى التوافه ـ هو ماأثار الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما حين سأل رجل من أهل العراق عن دم البعوضة ونحوه بعد قتل السبط الشهيد سيد الشباب الحسين بن على رضي الله عنهما » (١) .

فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن أبى نعيم قال : « جاء رجل إلى ابن عمرو وأنا جالس، فسأله عن دم البعوض؟ ـ وفى طريق آخر للحديث أنه سأله عن محرم قتل ذبابا ـ فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق ، قال : انظروا إلى هذا ، يسأل عن دم البعوض وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ ـ يعنى الحسين ـ وقد سمعت بنت رسول الله ﷺ تقول : هما ريحانتان من الدنيا » (٢) .

فالمطلوب من الداعى أن يعرّف المدعو : فعل المأمور ـ وترك المحظور ـ والصبر على المقدور ،وليس معنى هذا أن يكون كلامه مقصورا على الجنة والنار ، والبعث والحساب ، والقلب والبدن فحسب بل لابد أن يربط أصول دعوته بشذوذ الأوضاع التى يراها ، وبلايا المطامع التى يعايشها ، وفساد الأخلاق التى تحيط به ، وضحايا الطغيان فى شتى البقاع حتى يحيى دعوته بامتزاجها بآلام الناس وآمالهم قلوب المدعوين رابطا الحديث بالقديم ليوضح سنن الله فى الكون والإنسان والحياة .

كل ذلك بأسلوب رقيق مقنع وأدلة لا يختلف فيها أحد بعيدا عن الاعتداد بالرأى والسسطة والدخول فى الخلافات التى تؤدى إلى المراء بل والعنف والشدة والحدة والمسارعة إلى الرد الغليظ والكلام الجافى ، وكل ذلك لا تقوم به رسالة ولا يحقق أملا وإنما الذى يحقق الأمل أن تصنع عقلية تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتنظر إلى حقائق الوجود وإلى الغاية من الحياة على ضوء هذا الإيمان فإذا ما تحققت هذه العقلية توحدت المشاعر ، والشعائر والتصور والسلوك وحينئذ لو عرضت على المدعو ما عرضت من أوامر لله من فروع وأصول ما سمعت منه إلا قوله لربه : ﴿ **سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ .

★ ★ ★

---

(١) نحو وعى إسلامى رشيد (صحوة الشباب الإسلامى ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها) أ . د يوسف القرضاوى ص ٧ بتصرف .

(٢) أخرجه أحمد فى ثلاثة مواقع من المسند ٥٥٦٨ ، ٥٥٧٥ ، ٦٤٠٦ وقال الشيخ أحمد: إسناده صحيح .

سابعا : الترغيب قبل الترهيب أو البشارة قبل النذارة

الحث على فعل الخير وأداء الطاعات والاستقامة على أمر الله جاء فى الكتاب والسنة مقرونا ببشريات كثيرة فى الدنيا والآخرة معا ، ولذلك وجب على الداعى أن يقدم البشارة قبل النذارة والترغيب قبل الترهيب .

فالداعى يقدم الترغيب فى الإخلاص قبل الترهيب من الرياء ، والترغيب فى نشر العلم على الترهيب من كتمانه ، والترغيب فى الصلاة فى وقتها قبل الترهيب من تركها وهكذا لأن أسلوب الترغيب قد يكون أجدى وأنفع من تقديم الترهيب دائما فى كل حديث فليست طبيعة الناس واحدة .

صحيح أن المسلم لا يستطيع تجاهل الترهيب لاختلاف طبائع النفوس ولكنه يبشر أولا قبل أن ينذر علّ القلب يستجيب والنفس تستقيم وهذا أسلوب القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ كمنهج واضح فى التعامل مع نفوس البشر ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ وها هو ذا القرآن يبين لنا ما قاله إبراهيم عليه السلام عن ربه فيقول : ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ فيحبب المدعو على التعرف على ربه مستبشرا بهذه النعم التى أسبغها عليه .

ويدعو القرآن الناس للإيمان فيشعرهم بالجائزة التى تنتظرهم فيقول : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم** ﴾ وقد نرغب فى الإيمان والعمل الصالح وما يجلبان من خير للمسلم فى دنياه ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾ لأن من طبيعة النفس الإنسانية أنها تطمع فى سعة العيش ويسر الرزق فلم لا ندله على هذا الباب ، والذى يجلب له هذه المنفعة الدنيوية قبل الأخروية وذلك بالاستغفار ، مثلا كما قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿**فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾ .

وكذلك البشارة للمنفقين ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ...** ﴾ .

وعش مع القرآن ملاحظا هذا المنهج ستجد البشارة وإن كانت مقرونة بالنذارة ، والترغيب وإن كان مقرونا بالترهيب إلا أن الصفة الغالبة لرسول الله ﷺ أنه بشير ونذير .

فهو مبشر للخير ولسعادة الدنيا والآخرة للطائعين ، منذر بعذاب شديد للعاصين .

ورضوان الله على سيدنا عليّ فلقد روى عنه أنه قال : « ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه الذى لا يُقنّط الناس من رحمة الله ، ولا يرخص للمرء فى معاصى الله ، ولا يدع القرآن رغبة إلى غيره ، إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا خير فى علم لا فقه فيه ولا خير لقراءة لا تدبر فيها »(١) .

ولذلك وجدنا رسول الله ﷺ لا يقنّط الناس من رحمة الله بل يحببهم ويرغبهم فى الطاعات واسمع إلى أبى هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمسا ما تقول أذلك يُبقى من درنه ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيئا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »(٢) .

إن الجن حين سمعوا هذا القرآن وآمن به من آمن منهم فقهوا ذلك حين رجعوا إلى قومهم فبشروهم قبل أن ينذروهم ، فهم بعد أن أنصتوا إليه وتنبهوا إلى معانيه وآمنوا بما جاء فيه شعروا أن عليهم واجب التبليغ به الذى يجب أن يؤديه كل مَنْ آمن به فقالوا : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢] .

فأنت ترى ترغيبا قبل ترهيب لتتفتح القلوب الغلف والعيون العمى والآذان الصم وتشتاق النفس إلى هذا الخير الذى ينتظرها ، فتنجذب إليه ، ولا تستثقل فعله فإذا بها تسارع إلى الخيرات حين تستشعر رحمات الله عليها .

فعلى الداعى أن يفقه حال المدعو حين يدعوه فلا يرهب أحدا قبل أن يرغبه فبعض الناس وهم يعيشون بعيدا عن طاعة الله يوسوس لهم الشيطان كأن أملاكهم ستسلب وأعمارهم ستنتهى بمجرد التزامهم بمنهج الله ، فلا ملك عريض ولا حياة طيبة فإن أطاعوا أوامر الله انتهت حرياتهم التى لا حدود لها ، وسينتقلون إلى شظف العيش ومرارة الحرمان . . هؤلاء يحتاجون إلى أن نبين لهم خزائن الله التى لا تنفد والحياة الرغدة التى تنتظرهم وتعال واسمع إلى ما قاله رسول الله ﷺ لعدى بن حاتم حين أسلم .

● **إسلام عدى :**

يروى عدى بن حاتم الطائى نفسه فيقول : ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سُمع به منى ، أما أنا فكنت امرءا شريفا ، وكنت نصرانيا ، وكنت

(١) من كتاب العلم للحافظ بن خيثمة . (٢) البخارى ج ٢ ص ١١ كتاب مواقيت الصلاة .

ملكا فى قومى لما كان يصنع بى ، ثم يسترسل فى قصة إسلامه المعروفة إلى أن يلتقى برسول الله ﷺ فإذا برسول الله ﷺ يقول له : « لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عددهم وقلة عددنا تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف أحدا إلا الله عز وجل ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض فى أرض بابل قد فتحت عليهم ، قال عدى : فلما سمعت ذلك أسلمت » (١) .

أى فقه بالقلوب هذا ، وأى دروس للمسلمين هذه فيفقهوا دعوتهم ويخاطبوا الناس بما يجذبهم نحو هذه الدعوة ، فإن للقلوب مفاتيح وفق من وهبه الله إياها ، وتلك هى الحكمة التى يؤتيها الله من يحب من عباده ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

والغريب فى الأمر أن بعض الناس تجده وكأنه يدفع العاصى دفعًا إلى النار فلا يأخذ بحجزه ولكن يسد أمامه باب التوبة ويقنطه من رحمة الله وكأنه لم يقرأ قول المولى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٥٣ـ٥٨] .

هى دعوة كما ترى لمن أسرف فى المعصية ، ولج فى الذنب ، وأبق عن الحمى ، وشرد عن الطريق ليست بينه وبين هذا كله إلا التوبة ، الأوبة إلى الباب المفتوح الذى ليس عليه بواب يمنع ، والذى لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان فمن أراد الأوبة من الشاردين فليؤب ، ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب ، ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم وليأت وليدخل فالباب مفتوح لا حاجب دونه ولا حسيب . فهيا قبل فوات الأوان هيا ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ هيا ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة وعلى التفريط فى حق الله ، وعلى السخرية بوعد الله وتقولون: ﴿ يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن

(١) الدعوة السعودية العدد (٤٩) ٩ شوال ١٤٠٤ هـ يوليو ١٩٨٤ م من مقال أسلوب نبوى فى الدعوة إلى الله للأستاذ عبد الرحمن صالح العشماوى .

الساخرين ﴾ (١) .

فأى ترغيب هذا قبل الترهيب ، وأى تشويق إلى مغفرة الله ورحماته قبل التخويف من عذابه وعقابه فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « إن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا إن لما عملنا كفارة ، فنزل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون .... ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (٢) فهذه أمثلة ونماذج قرآنية لأسلوب الدعوة وما أكثرها فى كتاب الله إن تتبعتها وصدق الله حين قال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص:٢٩] .

● مع الذى قتل المائة :

وتعال واسمع إلى رسول الله ﷺ وهو يخبرنا عن جزاء من قنط من رحمة الله ولم يبشر العاصى بالتوبة ، وسد أمامه الأبواب المفتحة وسود لياليه ، ويأسه من رحمة الله .

فعن أبى سعيد بن مالك بن سنان الخدرى رضي الله عنه أن نبى الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فأكمل به مائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال : نعم ، ومن يحول بينك وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق ، أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مُقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك على صورة آدمى فجعلوه بينهم ـ أى حكما ـ فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » (٣) وفى رواية فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر ، فجعل من أهلها .

وهكذا يكون الداعى مبشرا بالخير مشجعا عليه فإذا وجد خيرا فى المدعو فلينميه ولا يشعره بأنه هوالعاصى الذى ارتكب الآثام العظام التى لا يرى منها توبة ، بل يشعره بأن

---

(١) الظلال ج ٥ ص ٣٠٥٨ سورة الزمر بتصرف .

(٢) البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى حياة الصحابة ج ١ ص ٣٤ .

(٣) متفق عليه رياض الصالحين باب التوبة ص ٢٠ .

طبيعة النفس الإنسانية طبيعة مزدوجة فيها الخير وفيها الشر ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس٧ـ١٠] .

بل يجب على الداعى وهو يتحدث إلى من يدعوه ألا يبرئ نفسه عن الخطأ يقول الأصمعى : بلغنى أن بعض الحكماء كان يقول : « إنى لأعظكم وأنا كثير الذنوب مسرف على نفسى غير حامد لها ، ولا حاملها على المكروه فى طاعة الله عز وجل ، قد بلوتها فلم أجد لها شكرا فى الرخاء ، ولا صبرا على البلاء .

ولو أن المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه لترك الأمر بالخير والنهى عن المنكر ، ولكن محادثة الإخوان حياة للقلوب ، وجلاء للنفوس وتذكير من النسيان .

ثم قال : واعلموا أن الدنيا سرورها أحزان ، وإقبالها إدبار ، وآخر حياتها الموت ، فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ، ومنتظر غدا لا يبلغه ، ولو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره . . . (١) .

أى حكيم هذا الذى يشعر المدعو أولا بأنه بشر مثله يصيب ويخطئ . غير أن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وإلا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم بعد هذا الترغيب يبدأ فى تعريفهم بحقيقة الدنيا وجواذبها حتى يصرفهم عن التعلق بها لأنها فانية والعمل للآخرة لأنها الباقية .

وخلاصة القول: إن النفس كما تقاد عن طريق الرغبة تقاد عن طريق الرهبة فتكف عن الرذيلة خوفا مما يعقبها من منغصات،أو تندفع إلى الفضيلة خوفا من مغبة التراخى والتفريط ، قال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف الفقر لدخل الجنة .

ونحن لا نهون من الترهيب ولكن لا نحب للداعى أن يفرط فيه وعليه أن يتخير الترغيب أو الترهيب حسب ما يرى وحسب حال المدعو فهو يتخير المناسب منهما للحال التى يعالجها فإن الكلمة الرقيقة قد تجدى مع قوم ولا تجدى مع آخرين .

إن التخويف بالعقوبة والتلويح بالمكافأة أمران لا بأس بهما فى مجال التربية ولا بأس أن تبدأ بالترغيب لتوقظ العقل الغافل وتستثير الهمة أولا وتأمله فيما عند الله وتبشره بما ينتظره من مثوبة وتذكره بعد ذلك بمصير العصاة ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩] وهكذا تكون قد تعاملت مع الفطرة فلم تصطدم بها ولكن روضتها وعالجتها فتعود إلى ما جبلها الله عليه فتستقيم على نهجه فلئن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها .

---

(١) كتاب مع الله للشيخ محمد الغزالى ص ١٠ ، ١١ .

ثـامنا : التفهيم لا التلقين

لا بد أن نعود سراعا إلى إسلامنا الذى جاء به خير البشر محمد ﷺ نعود إليه بشموله وعمومه بعقائده وشعائره ، بأخلاقه ونظامه ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١٥] .

نعم ، لابد أن نعود إلى هذا الإسلام لنكون مع الله ، فيكون الله معنا ولا شك أن عبء هذا العمل ملقى على عاتق الدعاة الأذكياء الأتقياء ، الذين فهموا الإسلام على حقيقته النازلة من رب العالمين ، ثم يقدمونه للناس ليوقظهم من الغيبوبة التى يعيشون فيها ويزيلون جهل أبنائه ويغسلون ما التصق بفهمهم من خرافات ويقصون من طريقهم الحواجز التى شعبت أهله وقسمتهم طوائف ومذاهب ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ .

كل ذلك يتطلب فهمًا دقيقًا بأصول الإسلام وفروعه كما قدمه الرسول ﷺ لا نصوص تقرأ فحسب ولكن روحًا تبعث الحياة ، ونورًا يمشى به فى الناس .

ذلك « لأن الداعية روح مفعمة بالحق والنشاط والأمل واليقظة ، فهمته العظمى أن يرمق الحياة بعين ناقدة وبصر حديد حتى إذا رأى فتورًا نفخ فيه من روحه ليقوى ، وإذا رأى انحرافًا صاح به ليستقيم ، إنه فى المجتمع ناقوس الخطر يدق من تلقاء نفسه كلما عرض لتعاليم الإسلام ما يعكر صفوها ويعوق انطلاقها » (١) .

إن الأمة الإسلامية فقيرة جدًا إلى ذلكم النوع من الدعاة الأيقاظ الذين يحيون لتبليغ الرسالة بفقه دقيق ، ووعى عميق .

إذ أن الإسلام ليس نصوصًا تلقن كما يفعل بعض الشباب الذين يتصدون للدعوة فيلقنونه للناس وكأنهم يلقمونهم حجرًا لا يعنيهم أين يقع عليهم؟فالمهم عندهم النصوص والدليل والحكم كما يدعون بصرف النظر عن كيفية تطبيقه أو حتى حال المخاطب به ، بينما مراعاة الحال أمر مطلوب ولكل مقام مقال فمخاطبتك للإنسان الثائر الهائج تحتاج منك أن تنتقى الكلمات الهادئة التى تنزل عليه بردا وسلاما بعكس الإنسان الفاتر الذى يحتاج إلى عبارات تستثير بها همته ، وتحفز بها عزيمته ، وتحرك بها نفسه ، ومخاطبتك للإنسان الأمى البسيط تختلف عن مخاطبتك للمتعلم الحصيف ، وهكذا يراعى الداعى المصلحة واقتضاء الحال ولا يمكن أن يتحقق ذلك بتلقين النصوص بقدر فهم روحها ومراميها .

---

(١) كتاب مع الله ص ١٨١ .

● ففهمناها سليمان :

واسمع إلى هذه القصة القرآنية لسيدنا داود وابنه سليمان يقول ربنا: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] .

قال المفسرون : « تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئًا ، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم ، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بماحكم به أبوه فدخل عليه فقال : يا نبى الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع !! قال: وما هو ؟ قال : يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بألبانها وصوفها ونسلها ، فإذا خرج الزرع رُدت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها فقال له داود: وُفقت يا بنى وقضى بينهما ذلك فذلك قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ (١) .

يقول صاحب الظلال : كان حكم داود وحكم سليمان فى القضية اجتهادا منهما ـ وكان الله حاضرا حكمهما ـ فألهم سليمان حكمًا أحكم ، وفهمه ذلك الوجه وهو الأصوب .. لقد أوتى داود وسليمان كلاهما الحكمة والعلم ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .. وليس فى قضاء داود من خطأ ولكن كان قضاء سليمان أصوب لأنه من نبع الإلهام » (٢) .

فما أحوج الدعاة إلى الحكمة مع العلم وليس العلم المجرد فحسب ومن هنا فإن التلقين لا يفيد فضلا عن أنه قد يضر ، وما أكثر الاستشهادات بنصوص مجردة نزع منها روحها وفهمها ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾. ولذلك قال ربنا : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] . فتأمل قول ربنا: ليتفقهوا فى الدين ولم يقل ليحفظوه .. إنه الفقه الذى يفيد فى نذارة القوم لعلهم يحذرون .

● من فقه الصحابة :

ولذلك فإن رسول الله ﷺ كان يرسل رسله ليبلغوا رسالات ربهم وكانوا يمتازون :

١ ـ بجودة الحفظ ٢ ـ وعمق الفهم ٣ ـ ودقة الاستنباط

فحين نزلت سورة « التوديع » « سورة النصر » قال رسول الله ﷺ لعائشة : ما أراه إلا حضور أجلى ، وقال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى فى حجة الوداع ثم نزلت

---

(١) صفوة التفاسير ج ٢ ص ٢٧٠ سورة الأنبياء .

(٢) الظلال ج ٤ ص ٢٣٩٠ سورة الأنبياء .

﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية فعاش بعدها النبى ﷺ ثمانين يوما » (١) .

واسمع إلى ما رواه الإمام البخارى عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال: إنه مَنْ علمتم !! فدعانى ذات يوم فأدخلنى معهم ، قال : فما رأيت أنه دعانى إلا ليريهم ، فقال عمر : ما تقول فى قوله الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا بأن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذا تقول يا بن عباس ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه فقال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ فقال عمر : « والله ما أعلم منها إلا ما تقول» (٢) .

● مع الفاروق عمر :

وها هو سيدنا عمر ومعاذ بن جبل ونفر من الصحابة يقولون لسيدنا رسول الله ﷺ : أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل ومسلبة للمال فنزل ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ فشربها قوم وتركها قوم آخرون .

ولذلك رأينا عبد الرحمن بن عوف يدعو ناسا منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلى فقرأ « قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون » فنزلت ﴿ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ .

واجتمع قوم من الأنصار ومنهم سعد بن أبى وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الأشعار حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء للأنصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشج رأسه ، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزل ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ .. الآية فقال عمر : انتهينا ربنا .

فأى فقه هذا وأى إحساس مرهف عند عمر الذى سمع ما سمع من آيات الله عن الخمر لكنه سأل الله بعد ما رأى ما يحدث من مآسى من شرب الخمر فسأل الله أن يشفى صدره بنص قرآنى يجتث جذور هذا الفساد فكان ما سأل .. وكم لعمر رضي الله عنه من مواقف تجاوب فيها مع الوحى فتجاوب الوحى معه ، فعنه رضوان الله عليه قال : لما توفى عبد

(١) القرطبى ج ٢٠ ص ٢٣٣ .

(٢) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٦١٦ تفسير سورة النصر .

الله بن أبَيٍّ دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه فلما وقف يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره فقلت : يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل يوم كذا وكذا كذا وكذا ـ يعدد أيامه ـ قال : ورسول الله ﷺ يبتسم حتى إذا أكثرت عليه قال : أخر عنى يا عمر ، إنى خيرت فاخترت قد قيل لى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ . لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت . قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه قال : فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم ، قال : فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره . . . ﴾ الآية فما صلى رسول الله ﷺ بعد على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل (١) .

● مع على كرم الله وجهه :

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول. . . ﴾ الآية قال لى النبى ﷺ : ما ترى دينارا ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : فنصف دينار قلت : لا يطيقونه قال : فكم ؟ قلت : شعيرة « يقصد وزن شعيرة ذهبا » قال : إنك لزهيد ، قال : نزلت ﴿ أأشفقتم . . . ﴾ الآية فبى خفف الله عن هذه الأمة .

جيل فريد لم يقف عند منطوق النص بل تفاعل مع النصوص وعاش مجتمعه ونظر فيما يصلحه فتمنى من الله أن يؤيد ما رأى من نظم فاستجاب الرحيم لهم .

● مع أبى عبيدة :

عن أبى سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار وقال للرسول : انظر ماذا يصنع بها إذا هو أخذها ؟ فما لبث أن لبس اللين من الثياب وأكل الطيب من الطعام فجاءه الرسول فأخبره ، فقال: رحمه الله تعالى تأول هذه الآية ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ﴾ (٢) .

فأى فقه هذا إنه الفهم الجيد وليس التلقين المقلد والذى يضع النص فى غير موضعه دون فهم ولا إعمال له ولا فقه بمراميه ولا علم بمقاصد الشريعة السمحاء حتى يُعمل النص وفقًا للمصالح المعتبرة .

---

(١) رواه أحمد والترمذى وقال حسن صحيح وروى مثله الشيخان ـ حياة الصحابة ج ٣ ص ٥١٧ .

(٢) مختصر ابن كثير ج ٣ ص ٥١٧

● هل هذا من الفقه ؟ فأين الثرى من الثريا ؟

جيل فقه إسلامه ، وجيل أخذ قشوره ، واسمع إلى هذه القصة الواقعية لترى البون الشاسع بين فقه جيل رباه رسول الله ﷺ وجيل حاول أن يطبق الإسلام دون فهم ولا فقه فكان كحاطب ليل .

دعى بعض الشباب فى قرية من قرى مصر بعض إخوانه على الغداء فحضروا إليه بدراجاتهم فلما وصلوا إلى المكان المنشود وتركوا دراجاتهم أسفل منزل الداعى وصعدوا إلى شقته واستقبلهم فوجدوا الطعام قد أعد على خوان مرتفعة « ترابيزة » وأثناء غياب الداعى مع أهله لإحضار الطعام غافلوه وأخذوا فى كسر أرجل الخوان كى يكون الطعام على مستوى الأرض حسب فهمهم . . . فلما دخل الداعى فوجئ بهذا المنظر فسألهم : من فعل ذلك ؟ قالوا : كسرناها لأن وضع الطعام على الخوان مخالف لسنة رسول الله ﷺ ، فلم يراجعهم ولكنه بيَّت أمرا وتسلل إلى حيث تقف دراجاتهم وحطمها جميعًا . . حتى إذا ما انتهوا من طعامهم وهموا بالانصراف فوجئوا بدراجاتهم قد تحطمت . . فسألوا : من فعل ذلك ، قال الداعى : حطمتها بنفسى لأن الرسول ﷺ لم يركب دراجة فى حياته . . فقفلوا راجعين دون أن ينبثوا ببنت شفة وأسقط فى أيديهم ولم يجدوا إجابة فلقد أقام عليهم الحجة التى بها يفهمون تعسفهم للنصوص وفهمهم السقيم .

● وهاك مثال آخر :

هل تتصور أناسا يدخلون المقابر حفاة الأقدام يمسكون أحذيتهم بأيديهم لا يمشون على أرض رملية بل فى وحل وطين اختلط بماء آسن ، أما حين يدخلون المسجد المفروش فيدخلون بأحذيتهم دون خلعها . . ولئن سألتهم ليقولن : إنها سنة رسول الله ﷺ كان يخلع الحذاء فى المقبرة ، ويدخل به فى المسجد ويستندون إلى أقوال وأفعال فى ذلك لرسول الله لم يفقهوها ولا يفرقوا بين مسجد فرشه الحصباء والرمل والحصى ، وآخر فرشه السجاد أو الحصير أو حتى البلاط مدعين أنهم يحيون بذلك سنة رسول الله ﷺ . . فأى فقه هذا ؟ .

ولا تسل عن تحريمهم لجرس الباب والصور الفوتوغرافية وصوت المرأة لأنه عورة مع إطلاقه وليس كما قال ربنا : ﴿ ولا يخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ فهم لا يفرقون بين حديث المرأة التى تتحدث به على خلقتها للتعامل مع الزوج والأهل والعشيرة والجيران والبائع والسائل وغير ذلك وبين الخضوع بالقول كما قال ربنا .

فهل بهذا الفهم ندعو إلى الإسلام ؟ وهل بهذا الفقه نعيد خير أمة أخرجت للناس ؟

● فهم آخـر :

وآخرون يلقنون الناس نصوصًا عن تكفير المجتمع ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ويتعاملون مع النصوص وجهًا لوجه وليس معهم من أدوات الاجتهاد ما يخول لهم النظر فى النصوص فهم ليسوا أهلا لذلك ، ولو سألوا أهل الذكر لكان خيرا لهم .. لكننا نراهم يكفرون الناس بالكبيرة بل وغالى بعضهم حتى كفر بالصغيرة.. ولو استفتوا ابن عباس أو فقهاء الأمة من الصحابة أو التابعين لاستراحوا وأراحونا وما وجد المتربصون بالإسلاميين ما يرمونهم به .

فلو قرءوا ما قاله ابن عباس عن الكفر دون الكفر والفسق دون الفسق والظلم دون الظلم ، ولو اعتبروا أنفسهم تلاميذ للسلف الصالح وليسوا رجالا أندادا لهم ما حدثت هذه الأخطاء الكبار والتجاوزات فى أساليب الدعوة ولاعتبروا من يدعونهم من المسلمين عصاة أو ساهين أو لاهين أو جاهلين أو عاصين أو مفرطين ولكنهم لا يحكمون عليهم بالكفر لا بما حدده فقهاء الأمة تحديدًا دقيقًا يشعر المسلم بالورع أن يحكم بدمغ من نطق بالشهادتين لأنه كفَّر مسلمًا فقد باء بهذا الحكم ولئن تخطئ فى العفو خير من أن تخطئ فى العقوبة .

بهذا الفهم الواعى ، وهذا الحرص على الناس ، وهذه المحبة التى تشعر بها من تدعوه إلى الإسلام تتفتح القلوب وتبصر العيون وتصغى الآذان ، فيشرح الله الصدور ويعود المدعو إلى دين الله وحينئذ يفرح الداعى به فقد علا البناء به لبنة ثم سرعان ما يبحث عن لبنة أخرى ليكتمل بناء الإسلام دعوة ودولة بهذا المنهج القويم الذى تعلمه من رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

★ ★ ★

تاسعا : التربية لا التعرية

لا يختلف مسلم فى أن الأساس الذى يقوم عليه الإصلاح الشامل ، هو إصلاح النفس واستقامتها على الخير ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ ومن ثم فإن محاسبة الداعى لنفسه ونقدها والتعرف على عيوبها بقصد معالجتها من أهم ما ينبغى أن يحرص عليه الداعى .

فالداعى فى حاجة إلى مراقبة نفسه ومراجعتها لاكتشاف الخطأ أو التعرف على العيب ثم المحاسبة ليخلص نفسه من الأدران إذ أن الداعى كثيراً ما ينسى أن عليه أن يراجع نفسه ويقوِّم أخطاءه ويصلح عيوبه قبل أن يصلح عيوب الغير ؛ لأن تقصيره فى هذه المهمة قد يؤدى إلى تضخيم انتقاد الآخرين والبحث عن عيوبهم ، وتصيد هفواتهم وما أسهل تصيد أخطاء الآخرين وانتقادهم فكلنا خطاءون وخير الخطائين التوابون .

فالذى يدعى دائمًا أن رأيه هو الصواب وأن آراء غيره هى الخطأ بل هى المنكر الذى لا يمكن السكوت عليه ويعتز برأيه دائمًا وينافح عنه ، سرعان ما يلقى التهم جزافا فتختفى أخوة الإسلام باختفاء الجدال بالتى هى أحسن ويحل محلها الغمز واللمز والغرور والكبرياء وما أيسر أن تصم الآخرين بالعيب فى القول والنقص فى العلم والجهل فى الفهم والتخبط فى الحركة والدخن فى الاعتقاد والشرك فى التصور وغير ذلك من التجريح وكأننا بذلك نزكى أنفسنا ونصفها بأبلغ الصفات فنبذل الجهد فى تعرية المدعو ونجتهد فى كشف سوءاته ليظهر أمام الناس ضئيلا ويظهر الداعى كبيرا وهذه هى الحالقة التى لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين .

إن النفوس جبلت على حب من أحس إليها وبغض من أساء إليها فلابد أن ندخل للناس من باب الإحسان لا من باب الإساءة ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ ولن يكون ذلك كذلك إلا إذا فهمنا أن مهمة الداعى مهمة تربوية فى المقام الأول وليست مهمة تجارية وشهوة التعالم والظهور وشهوة القيادة والرياسة وشهوة الانتصار على الغير وغير ذلك من شهوات النفس لأن الدعاة المحكومين بشهواتهم يسخرون الدعوة لخدمة هذه الشهوات وإذا تعارضت مصالحهم الذاتية مع مصلحتها لم يترددوا فى تقديم ما يحقق منفعتهم ، بينما الداعية بحق هو من يستبعد من حياته عوامل ربحه وخسارته لا أقول المادية بل والنفسية والذاتية أيضا لأن الدعوة فى تقديره هى الأصل والدعاة خدم لها .

إن الشفقة على العاصى وستر عيوبه وعدم التشهير به بل وعدم التعالى عليه خير وأجدى من مشاعر الكبر التى توسع الهوة بين الداعى والمدعو يقول رسول الله ﷺ : « إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » (١).

واستمع إلى ما أخرجه البخارى والترمذى عن معقل بن يسار رضي الله عنه أنه زوّج أخته رجلا من المسلمين فى عهد النبى ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة حتى انقضت العدة فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له : يا لكع (٢) أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها !! والله لا ترجع إليك أبدا قال فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن .. ﴾ الآية فلما سمعها معقل قال: سمعا لربى وطاعة ثم دعاه فقال . أزوجك وأكرمك (٣) وصدق أبو بكر حين قال : «ولا يحتقرن أحد أحدا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير »

● مع من يرغب فى الزنا :

هل تتخيل ، لو أن شابا جاء إلى أحد الدعاة يعلن رغبته فى الزنا فما تظن أنه فاعل به؟ لن أدعك وتصورك ولكنى أنقل إليك هذا الموقف الذى حدث بين هذا الشاب ورسول الله ﷺ فعن أبى أمامة رضي الله عنه أن غلامًا شاباً أتى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به فقال النبى ﷺ: قربوه ، ادن فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أتحبه لأمك ؟ قال : لا . جعلنى الله فداك ، قال ﷺ : فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم . أتحبه لابنتك ؟ قال : لا . جعلنى الله فداك قال ﷺ : فكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ؟ قال : لا . جعلنى الله فداك قال ﷺ: فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم » وزاد الراوى ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحد لا جعلنى الله فداك ، والنبى ﷺ يقول : كذلك الناس لا يحبونه، ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال : « اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه وحصن فرجه فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا » (٤) .

فيا له من موقف تربوى نتعلم منه الكثير ، آه لو أن هذا الموقف مع بعض الدعاة اليوم لسبه ولعنه وطرده وشهر به واستهزأ من قوله وربما فضحه على أعين الأشهاد وعراه تماما ، بينما الإسلام يدعوك أن تقدم للناس لباس التقوى الذى يستر عوراتهم ويبرز محاسنهم ويعينهم على طاعة ربهم لأن الداعى يستر الناس ولا يعريهم لأن رسالة الداعى رسالة تربية فى المقام الأول يهتم بإبراز الشخصية الأخلاقية فيسمو بها لأن جوهر رسالة الإسلام خلق

---

(١) رواه مسلم وأبو داود .
(٢) يا لئيم .
(٣) التاج الجامع للأصول ج ٤ ص ٦٣
(٤) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد .

وإحسان ووسيلتها القدوة الحسنة وأول ميادينها النفس والقلب ولذا كانت التربية قاعدة أصيلة لهذه الدعوة .

● **ستر من اعترف بحد ولم يسمه :**

واسمع إلى ابن القيم وهو يقول : لقد روينا فى سنن النسائى من حديث الأوزاعى حدثنا أبو عمار شداد قال: حدثنى أبو أمامة أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أصبت حدا فأقمه علىّ فأعرض عنه ، ثم قال : إنى أصبت حداً فأقمه علىّ . فأعرض عنه. ثم قال : يا رسول الله أصبت حداً فأقم علىّ فأعرض عنه فأقيمت الصلاة ، فلما سلم رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله إنى أصبت حداً فأقمه علىّ ، قال : «هل توضأت حين أقبلت . قال : نعم ، قال : هل صليت معنا حين صلينا ، قال : نعم ، قال : اذهب فإن الله قد عفا عنك » ، وفى لفظ : « إن الله قد غفر لك ذنبك أو حدك » ومن تراجم النسائى على هذا الحديث « من اعترف بحد ولم يسمّه » وللناس فيه ثلاثة مسالك هذا أحدهم والثانى أنه خاصة بذلك الرجل ، والثالث سقوط الحد بالتوبة قبل القدرة عليه وهذا أصح المسالك (١) .

وهكذا يحرص الرسول ﷺ على الأخذ بيد العاصى ، يستر عورته ويقيل عثرته ويعينه على شيطان نفسه حتى أنه ﷺ إذا رأى من أحد خطأ لم يذكر اسمه ولا يشير إليه بل كان يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا » دون تحديد يرفع عنه الحرج ويحسن إليه ؛ لأن الإحسان إلى الناس يحقق المقصود ؛ ذلك لأن النفوس لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو ولهذا أمر الله بتأليف القلوب حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً فى الصدقات وقال تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقال : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ فلابد من أن يصبر ويرحم .

● **لا تثريب عليهم :**

إننا نلاحظ أن بعض الشباب الذى يتصدى للدعوة كثيرا ما يحرج المدعو أمام الناس وكم من مرة رأيت أحد المصلين يدخل المسجد فيجلس دون أن يصلى تحية المسجد فإذا بأحد الشباب بدل أن يتودد إليه ويلاحظه ويتعرف عليه ويزيل وحشته لأنه بتركه لهذه السنة دل على أنه ربما يكون من المبتدئين فى تعاليم الإسلام فهو فى حاجة إلى من يؤلف قلبه ويؤنس وحدته لا من يقول له :قم وصلِ ركعتين تحية للمسجد آمرا إياه بذلك معتقدا أنه يأمره بمعروف ناسيا أنه من كان آمرا بالمعروف فليكن أمره بمعروف ولا تسل عن كثير من

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم ج ٣ ص ١٣ .

المواقف التى يعتقد الشباب أنه يصحح فيها أخطاء العامة وهم ينفرون الناس منهم بأسلوبهم الفظ الغليظ فلا يجدون آذانا مصغية ولا قلوبا واعية .

وتأمل حسن الأدب والإرشاد فى موقف الحسن والحسين من هذا الشيخ الكبير الذى لا يحسن الوضوء فاتفقا على إرشاد الرجل إلى ذلك ، فتحاكما إليه فى أيهما يحسن الوضوء وتوضأ كل منهما أمامه ، فلما وجد الرجل كلا منهما يجيد الوضوء علم أنه هو الذى لا يحسنه ، فشكر لهما حسن إرشادهما وأعاد الوضوء بكيفية صحيحة (١) .

إن التثريب يباعد بين الداعى ومن يدعوه ويصنع لونا من الجفاء الذى يصم الآذان لأن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر يجب أن يكون متصفا بأحسن صفات الكمال والتواضع والحلم وعدم الكبر على الخلق وعدم استحقارهم والاستخفاف بهم حتى يكون ذلك سببا فى قبول أمره ومجانبة نهيه ولذلك فإن لقمان عليه السلام يأمر ابنه بما يجمع هذه الخصال فيقول: « ولا تصعر خدك للناس » أى لا تعرض عنهم بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقارا لهم واستكبارا عليهم بل ألن جانبك لهم وتواضع لصغيرهم وكبيرهم لأنك منهم كالوالد من ولده والمعلم من تلميذه والأستاذ من طالبه فدور هؤلاء جميعا التربية لا التعرية والتشجيع لا التثريب .

● مع أبى بكر :

ويا له من موقف جليل لقلب كبير هو قلب أبى بكر الصديق رضي الله عنه فلقد كان ينفق على « مسطح بن أثاثه » لمسكنته وقرابته فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال: حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه أبدا فأنزل الله ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح نفقته التى كان ينفق عليه وقال : « والله لا أنزعها منه أبدا » (٢) .

وهكذا يحثنا المولى على حسن المعاملة مع الناس بالعفو عن مذنبهم والصفح عن تائبهم لنكون الأسوة والقدوة حتى يتأثر بهذا السلوك من ندعوه إلى الخير .

شتم رجل أبا حنيفة وهو فى درسه وأكثر فما التفت إليه ولا قطع كلامه ونهى أصحابه عن مخاطبته فلما فرغ وقام تبعه إلى باب الدار فقام على بابه وقال للرجل: هذه دارى ، إن كان بقى معك شىء فأتمه حتى لا يبقى فى نفسك شىء ، فاستحيا الرجل (٣) .

---

(١) الخلق الكامل محمد أحمد جاد المولى ج ٢ ص ٢٧٦ . (٢) صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٣) الخلق الكامل محمد أحمد جاد المولى ج ١ ص ٢٩٥ .

● مع الزناة :

ويا له من خلق عال ، ومعاملة كريمة تبنى ولا تهدم وتقوّم ولا تستهزئ وتعتب ولا توبخ إنها أخلاق الدعاة إلى الله تعلموها من رسولهم ﷺ ، ألا ترى قوله ﷺ وهو يوجه الذين يجلدون الأمةَ التى زنت ألا يثربوا عليها فعن أبى هريرة رضوان الله عليه عن النبى ﷺ قال : « إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها الحد ، ولا يثرب ثم إن زنت الثانية فليجدها الحد ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر »(١) .

وعنه رضوان الله عليه قال : « أتى النبى ﷺ برجل قد شرب خمرا قال : اضربوه قال أبو هريرة : فمنا الضارب بيده والضارب بنعله والضارب بثوبه ، فلما انصرف قال بعض القوم . أخزاك الله ، قال : لا تقولوا هكذا ، لا تعينوا عليه الشيطان »(٢) .

وهكذا كان سلوك تلاميذ رسول الله ﷺ مع من يدعوهم لأن العقوبة للزجر فهى آخر الكى كأسلوب من أساليب التربية ولا يقصد منها السخرية والاستهزاء بالمخطئ والمسىء بقدر ما هى تقويم لبعض النفوس التى لا يفيد معها الترغيب فى مثوبة الله تعالى . واسمع إلى دخير بن الهيثم كاتب عقبة بن عامر قال : « قلت لعقبة بن عامر : إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنا داع لهم الشُرط (٣) ليأخذوهم ، قال : لا تفعل وعظهم وهددهم قال إنى نهيتهم فلم ينتهوا وأنا داع لهم الشرط ليأخذوهم فقال عقبة : ويحك لا تفعل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ستر عورة فكأنما استحيا موءودة فى قبرها »(٤) .

● مع يوسف عليه السلام :

ولو عشت قصة يوسف عليه السلام لرأيت الحرص على مشاعر المدعوين واختيار الكلمات التى تنفذ إلى القلب واستمع معى إلى هذا العرض البديع للدعوة : ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ . يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٧ : ٤٠] .

---

(١) متفق عليه رياض الصالحين باب التوبة ص ٢٠ والتثريب : التوبيخ .

(٢) البخارى رياض الصالحين ص ١٠٨ .

(٣) الشرط أعوان الولاة .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٧٦ .

موضعهما الذى يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهما الرؤيا لأن ربه علمه علما لدنيا خاصا جزاء تجرده لعبادته وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه ، حين يقول: ﴿ ذلكما مما علمنى ربى ﴾ ليدخل بهذه الكلمات إلى قلبيهما بدعوته إلى ربه. وليكون أسلوبا تربويا .

ثم يعلن أنه ترك « ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة كافرون » مشيرا بهذا إلى القوم الذين ربى فيهم ، وهم بيت العزيز وحاشية الملك والملأ من القوم والشعب الذى يتبعهم والفتيان على دين القوم ، ولكنه لا يواجههما بشخصيهما ، إنما يواجه القوم عامة كى لا يحرجهما ولا ينفرهما ــ وهى كياسة وحكمة ولطافةحس وحسن مدخل (١) .

فلما كان الكلام موجها لهما فإن يوسف عليه السلام قال: ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ كما قال: ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ تحسينا للجواب ما أمكن وتلطيفا للخطاب ما تيسر فلم يقل: ولكن أكثركم لا تشكرون ولا تعلمون ، فيظهر التوبيخ والتقريع وليس هذا من أسلوب الداعى إنما أسلوب الداعى التربية لا التعرية .

إنها مداخل لطيفة وخطوة خطوة فى حذر ولين ليتوغل فى قلبهما أكثر فأكثر ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحا كاملا . وفى نفس الوقت يكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما بأدب الداعى وتوجيه المربى الدقيق يبين نوعا من الارتباط بين الداعى والمدعو واحترامه لهما بكلمة « يا صاحبى السجن » ليبعد عنه فتنة الإهانة فلم يقل: أيها المسجونان مثلا وهذا أسلوب سيدنا يوسف طوال القصة فهو يقول: « ما تعبدون من دونه » فيجمع بينما هو يخاطب اثنين فقط فلم يقل: « ما تعبدان » حتى لا يحرجهما وصدق ابن المبارك حين قال : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات .

واسمع إليه عليه السلام وهم يقولون له : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » فما وبخهما ولا أهانهما ليدفع عنه ما يصفونه به بل كظم غيظه وقال بينه وبين نفسه: أنتم شر مكانا والله أعلم بسرقتى وسرقة أخى واعتبر ما قالوه لغوا مر عليه مرا كريما .

وإذا تتبعت أحداث القصة وتوالى الأحداث ابتداء من رمى إخوته له فى الجب إلى بيعه بيع الرقيق إلى دخوله السجن وكل ذلك بسببهم وسبب ما فعلوه فيه ومع ذلك لا يهينهم ولا يشتمهم حين قالوا : أإنك لأنت يوسف ؟ فلم يقل: نعم أنا الطريد أنا المحسود أنا .. أنا .. بل استغل الموقف للتربية بدل التعرية وبين لهم كيف تكون عاقبة المتقين

---

(١) الظلال ج ٢ ص ١٩٨٨ سورة يوسف بتصرف .

الصابرين ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

بل أكثر من هذا فإنه يعتبر كل ما حدث له من ابتلاء وأحداث عظام بسببهم نزغا من الشيطان . . ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ فالكيد كان من إخوته فوجهه للشيطان تلطفا منه وأدبا معهم فتوجه إلى السبب الأصلي وهو الشيطان ، فلم يقل: من بعد أن تآمر عليّ إخوتي والقوني في الجب أو حتى من بعد أن لعب الشيطان بعقولهم فيجرح مشاعرهم إنما يريد أن يأخذ بيدهم نحو الخير وهكذا يكون الداعي المربي مع المخطئ « لا تثريب عليكم اليوم » فلا مؤاخذة ولا تأنيب ، فقد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور والله يتولاكم بمغفرته .

وصدق من قال : اتَّخِذ الناس أبا وأخا وابنا ثم برّ أباك ،وصل أخاك وارحم ابنك .

● مع عمار بن ياسر :

توعد الله سبحانه الإنسان الذي آمن به وعرفه حق المعرفة ثم عاد إلى الكفر بالعذاب الأليم في الآخرة فضلا عن عقوبة ارتداده في الدنيا فالعقوبة عظيمة لأنه ذاق للإيمان طعما ثم ارتد عنه مؤثرا الحياة الدنيا على الآخرة .

لكن يستثنى من ذلك من كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مُكرَها بسبب ما ناله من ضرب أو أذى وقلبه مطمئن بالإيمان . قال ابن جرير : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى وافقهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال له النبي: « كيف تجد قلبك؟» قال : مطمئن بالإيمان ، قال النبي ﷺ : فإن عادوا فَعُدْ . . وفيه أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ونزلت الآية ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ .

وقفْ أمام معالجة هذا الموقف من رسول الله ﷺ المربي الكريم ، فهو أمام صحابي سبّه وتلفظ بالكفر ، ومع هذا فإنه ﷺ لم يبيت له أمرا في الخفاء ، ولم يحاكمه غيابيا ، ولم يأمر أحدا بالإعراض عنه بل لم يعنفه أو يؤنبه أو يوبخه ولم يخرجه من زمرة المسلمين، ولم ينشر بين الصحابة ضعف عمار وخذلانه وفتور إيمانه . ولكنه بالمكاشفة ومعرفة طبيعة النفوس بإقدامها وإحجامها فإنه قد أزال الحرج عنه ورفع عنه الإصر والأغلال التي كانت تهلكه . . . ويرسي قاعدة رحيمة في معالجة القلوب بهذا السؤال «كيف تجدك؟» . . . فلما علم منه اطمئنان قلبه بالإيمان أراح نفسه ولم يصطدم بالفطرة إنما قال : إن عادوا فعد . . . ومن هنا قعّد العلماء « استباحة فعل المحرّم عند قيام حاجة أو ضرورة ، ومنه استباحة أكل الميتة وشرب الخمر » (١) .

---

(١) راجع أصول الفقه للدكتور بدران أبو العينين (مبحث أنواع الرخص) .

وصحيح أن الرسول ﷺ كان مربيا كريما وموجها حكيما مع ياسر رضي الله عنه لكننا يجب أن نبين أمرا قاله ابن كثير يقول : « اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يفعل حين أمروه بالشرك بالله فيأبى وهو يقول : أحد أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها ، وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى حين قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ فيقول : نعم . فيقول له : أتشهد أنى رسول الله فيقول : لا أسمع فلم يزل يقطعه إربا إربا وهو ثابت على ذلك »(١) .

والأفضل أن يثبت المسلم على دينه بل الأولى ولو أفضى إلى قتله وذلك إذا احتمل العذاب والضرر وصبر ولم يقدم على الرخصة ويعلق صاحب الظلال على تلك الأفضلية فيقول : ذلك أن العقيدة أمر عظيم لا هوادة فيها ولا ترخص ، وثمن الاحتفاظ بها فادح ولكنها ترجحه فى نفس المؤمن وعند الله ، وهى أمانة لا يؤتمن عليها إلا مَنْ يفديها بحياته، وهانت عنده الحياة وهام كل ما فيها من نعيم .

● مع حاطب بن أبى بلتعة :

لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة ،كتب « حاطب بن أبى بلتعة » إلى أهل مكة يخبرهم بذلك وقال لهم : إن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم ، ثم أرسل الكتاب مع ظعينة ــ امرأة مسافرة ــ فنزل الوحى على رسول الله ﷺ يخبره بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ عليا ،والزبير ، والمقداد وقال : انطلقوا حتى تأتوا « روضة خاخ»(٢) فإن به ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتونى به » فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا لها : أخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى من كتاب ، فقلنا لها : لتخرجنّ الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها (٣) . فأتينا به النبى ﷺ فإذا فيه من حاطب بن بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ: ما هذا يا حاطب؟ فقال : يا رسول الله : لا تعجل علىّ إنى كنت امرءا ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا وارتدادا عن دينى ، فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق !! فقال ﷺ: إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم

---

(١) مختصر ابن كثير للصابونى بتصرف .

(٢) روضة خاخ على بعد قليل من المدينة .

(٣) عقاصها ضفائر شعرها .

أولياء . . . ﴾ (١) الآية .

إن الوقوف مع هذه الحادثة يبين لنا كيف كانت تربية رسول الله ﷺ من خلال الأحداث والمواقف . . إنه ﷺ القائد المربى العظيم .

وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على أحد أسراره . . لكنها النفس الإنسانية التى تتعرض للحظات الضعف البشرى مهما بلغ من كمالها وقوتها . . ولا عاصم من هذا الضعف إلا خالقه سبحانه فهو وحده المعين .

واسمع رسول الله ﷺ وهو يسأل هذا الصحابى ليقف على موطن الضعف الذى أصابه « ما حملك على ما صنعت » فى سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة فى نفس صاحبه . . ثم يكف الصحابة عنه : « صدقوا ولا تقولوا إلا خيرا » ليعينه وينهضه من عثرته ، فلا يطارده بها ولا يدع أحدا يطارده . . . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم فى شدة عمر : إنه خان الله ورسوله ، فدعنى فلأضرب عنقه ، وهى نظرة كما يقول صاحب الظلال إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه لكن المربى العظيم رسول الله ﷺ ينظر إليها من خلال إدراكه الواسع للنفس البشرية على حقيقتها . ومن كل جوانبها مع العطف الكريم الملهم الذى تنشئه المعرفة الكلية فى موقف المربى الكريم العطوف المتأنى الناظر إلى جميع الملابسات والظروف .

وهكذا كانت الآيات نفسها ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ نداء فيه مودة يجعل عدو المؤمنين هو عدو لله . . إنه منهج القرآن أيضا فى علاج النفوس . . منهج يأخذ بالأيدى إلى الصلاح بعيدا عن التوبيخ والتجريح الذى لا يأت بخير بل ربما تكون نتيجته العناد والمكابرة ، أما العفو عن المسىء ، ومعاملته بالحسنى فإنها باب من الخير كبير .

شتم هشام بن عبد الملك رجلا من أشراف الناس فقال له : أما تستحى تسبنى وأنت خليفة ؟ فقال هشام : اقتص منى قال : لا أريد أن أكون سفيها . قال: تعوض منى بمال . قال : ما كنت أبيع شرفى بالدرهم والدينار ، قال : اجعلها لله . قال : هى لله ولك فخجل هشام ونكس رأسه وعاهد الله أنه لا يشتم أحدا بعدها أبدا .

وهكذا يكون دور الداعى تربية تأخذ بيد المدعو إلى مكارم الأخلاق لا تعرية تعين الشيطان عليه ليكون لبنة صالحة فى مجتمعه المسلم .

---

(١) أخرجه الشيخان وانظر روح المعانى ٢٨ / ٥٠ .

عاشرا : تلميذ إمام لا تلميذ كتاب

من أعظم الأخطاء التى يرتكبها بعض الشباب الداعى إلى الله أنه يتعامل مباشرة ووجها لوجه مع نصوص الكتاب والسنة ويتتلمذ على الكتاب دون الرجوع إلى عالم متخصص أو داعية حصيف يبين له ما أشكل عليه من فهم وما غاب عنه من فقه وذلك بدعوى قول ربنا : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

يقول علماؤنا فى معنى هذه الآية : أى « لقد سهلنا القرآن للحفظ والتدبر والاتعاظ لما اشتمل عليه من أنواع المواعظ والعبرة ﴿ فهل من مدكر ﴾ أى فهل من متعظ بمواعظه ، معتبر بقصصه وزواجره ؟ » قال الخازن : وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به لأنه قد يسره الله وسهله على من يشاء من عباده ، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير والعربى والعجمى قال سعيد بن جبير : يسرناه للحفظ والقراءة وليس شىء من كتب الله تعالى يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن ،وبالجملة فقد جعل الله القرآن مهيئا وسهلا لمن أراد حفظه وفهمه أو الاتعاظ به فهو رأس سعادة الدنيا والآخرة (١) .

وواضح من هذا المعنى أن القرآن ميسر للحفظ والقراءة إذا أخذ بأسبابهما وبذل الجهد فى تعلم القراءة والحفظ وكذلك هو ميسر للتدبر والتعلم لمن أخذ بأسباب العلم وأعطاه حقه من تلقى العلم على يد الفقهاء والعلماء الذين يقتدى الناس بسلوكهم قبل أن يأخذوا من علمهم ، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : « العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، وسائر الناس همج لا خير فيهم » فكن عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك لأن الناس فى حجور علمائهم كالصبيان فى حجور أمهاتهم .

● مع الصحابة :

ها هم أولاء أجلة الصحابة والذين نزل القرآن بلغتهم يرجعون إلى رسول الله ﷺ ليفهموا منه ما استشكل عليهم ، كما حدث مع السيدة عائشة رضوان الله عليها حين سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حوسب عُذب » فقالت :أو ليس الله عز وجل يقول: ﴿ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ !! فقال ﷺ : « إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب عُذِّب » (٢) وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : إن الله يدنى العبد يوم القيامة حتى يضع كنفه عليه،فيقول له:فعلت كذا وكذا ــ ويعدد عليه ذنوبه ــ ثم يقول له: «سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » فهذا هو المراد من الحساب اليسير(٣).

---

(١) صفوة التفاسير ج ٣ تفسير سورة القمر .

(٢) البخارى ومسلم .

(٣) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٥٣٨ تفسير سورة الانشقاق .

وهى نفسها رضوان الله عليها التى سألت رسول الله ﷺ : عن قول الله : ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ .. فقالت : أهو الذى يزنى ،ويسرق ، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ، فقال لها ﷺ : « لا يا بنت الصديق !! ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل »(١) .

ولقد أشفق بعض الصحابة من قول الله: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ فقالوا : وأيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ : « ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿ يا بنى إن الشرك لظلم عظيم ﴾ »(٢) ففسر الظلم هنا بمعنى الشرك ولولا تصحيح رسول الله ﷺ لهم لكان الفهم الخاطئ الذى فهموه من أنفسهم وقصة عدى بن حاتم حين قرأ قول الله : ﴿ كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ فأخذ خيطين أحدهما أبيض والآخر أسود لكى يستمر فى طعامه حتى يتبين له الفرق بين الخيطين فإذا برسول الله ﷺ يعلمه أنه بياض النهار وسواد الليل .

قال ابن جرير ــ بإسناده ــ عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر »(٣) .

واستفسار الصحابة عن مثل هذه الآيات كثير فلقد بين لهم الرسول ﷺ أن الصلاة الوسطى هى العصر وأن الكوثر هو نهر أعطاه الله إياه فى الجنة ،وأن القوة هى الرمى وأن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر وأن كلمة التقوى هى لا إله إلا الله .

فأنت ترى أن الصحابة بالرغم من أنهم أصحاب اللغة وأساطينها إلا أنهم كانوا فى حاجة إلى من يفسر لهم ما فهموه خطأ باجتهادهم ورضوان الله عن ابن عباس إذ يقول : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ،ووجه لا يعذر أحد بجهله ، ووجه يعرفه العلماء ،ووجه لا يعلمه إلا الله .

ولذلك اختلفت درجات الصحابة فى الفهم بقدر ما عند كل منهم من العلم الذى فقهه من رسول الله يقول مسرور : «جالست صحابة محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ(٤) الإخاذ يروى الرجل والإخاذ يروى الرجلين والإخاذ يروى العشرة ، والإخاذ يروى المائة والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم » .

---

(١) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٣١٣ تفسير سورة المؤمنون .

(٢) صفوة التفاسير ج ١ ص ٤٠٣ تفسير سورة الأنعام .

(٣) الظلال ج ١ ص ١٧٤ سورة البقرة .

(٤) الإخاذ : غدير الماء وأصدرهم أى كفاهم من كتاب أعلام الموقعين ج ١

هكذا كان حال الصحابة رضوان الله عليهم ، فما بالنا نحن الذين بعدنا عن اللغة وأصبح لساننا أعجميا ، وثقافتنا غربية ،وتعليمنا أجنبيا ، ألسنا بعد ذلك كله فى أمس الحاجة إلى أن نجلس بين يدى عالم جليل أو داع محنك فقه إسلامه يرشدنا إلى الفهم الدقيق للإسلام حتى لا تتفرق بنا السبل ونجتمع على كلمة سواء نقولها للناس ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ ورحمة الله على البنا فلقد جمع بين علم العالم وفقه الداعى وتتلمذ رجال على يده فكانوا خير من يؤخذ عنهم ، ومنهم اليوم من يشار إليه بالبنان فى عالمنا الإسلامى المعاصر من كبار فقهاء الإسلام وعلماء المسلمين .

● احترام أهل التخصص :

إن من بركة العلم إسناده إلى قائله ، وإذا قال الداعى قال فلان مسندا قوله إلى شيخه فهذه بركة لا شك فى ذلك وما من إمام من الأئمة إلا أسند ما يقوله لشيخه فعل ذلك أبو حنيفة ،ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل بل الصحابة أنفسهم كانوا يسندون ما يرددونه من كلمات إلى قائلها وما أكثر ما يردد ابن القيم فى كتبه قال شيخنا ـ يقصد ابن تيمية ـ فما عاب أحد عليه وما وصفه بأنه يعظمه ويمجده وأنه يردد قولة شيخه أكثر مما يقول قال رسول الله ﷺ ـ وكأن ما يقوله يجافى الحق وينافى المعانى التى دعى إليها رسول الله ﷺ .

ولذلك وجب على الداعى أن يعلم المدعو كيف يحترم أهل التخصص لأن لكل علم أهله ولكل فن رجاله فلا يجوز أن يكون علم الشريعة كلاما مباحا لكل من هب ودب من الناس بدعوى أن الإسلام ليس حكرا على فئة من الناس وأنه لا يعرف طبقة « رجال الدين» التى عرفتها أديان أخرى .

« الواقع أن الإسلام لا يعرف طبقة رجال الدين ولكنه يعرف علماء الدين المتخصصين الذين أشارت إليهم الآية الكريمة ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] .

وقد علمنا القرآن والسنة أن نرجع فيما لا نعلم إلى العالمين من أهل الذكر والخبرة فى قوله تعالى: ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وفى قوله: ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ وقوله: ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ وقوله: ﴿ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

واسمع إلى جابر رضوان الله عليه يقول : خرجنا من سفرنا فأصاب رجلا منا حجر

فشجه فى رأسه ثم احتلم ، فسأل أصحابه هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال : قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ إنما شفاء العى السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويَعْصر أو يَعْصِب من جرحه ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده »(١).

إنه مما راعنى أن أجد من يجترئ على الفتوى فى أخطر القضايا وإصدار الأحكام فى أهم الأمور دون أن تكون عنده مؤهلات الفتوى ،وقد يخالف جمهور العلماء قديما أو حديثا وربما تطاول فخطأ الآخرين وجهلهم برغم أنه ليس مجتهدا ،وليس بمؤهل للاجتهاد ـ ويزيد فيقول: هم رجال ونحن رجال ، ويفتى فى مسائل لو عرضت على عمر رضي الله عنه لجمع أهل بدر ، ويتجرأ بالقول بغير علم .

ورضوان الله على الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين كانوا يتورعون من الفتيا يقول ابن أبى ليلى : « أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة ، فيردها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول وما منهم من أحد يحدث بحديث أو يُسأل عن شىء إلا ود أخاه كفاه » (٢) وقال سحنون ابن سعيد : « أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علما يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله معه » (٣) .

ورحمة الله على سعيد بن المسيب كان لا يكاد يفتى ولا يقول إلا قال: اللهم سلمنى وسلم منى ويقول مصعب : وجهنى أبى بمسألة ـ ومعى صاحبها ـ إلى مالك يقصها عليه، فقال : ما أحسن فيها جوابا ، سلوا أهل العلم .

« ولست أمنع الشباب المسلم أن يدرسوا ويتعلموا ، فطلب العلم فريضة وهو مطلوب من المهد إلى اللحد ولكنى أقول : إنهم مهما درسوا ، فسيظلون فى حاجة إلى أهل الاختصاص فإن للعلم الشرعى أدوات لم يتوفروا على تحصيلها ، وأصولا لم يتمرسوا بمعرفتها واستيعابها وفروعا ومكملات لا تسعفهم أوقاتهم ولا أعمالهم أن يتفرغوا لها ولكل وجهة هو موليها وكل ميسر لما خلق له » (٤) .

● لابد من هذا الفهم :

قد يكون من بين الدعاة من يجيد فن القول والدعوة والخطابة والقدرة على التأثير فى الجماهير ،وهز أوتار القلوب ، وليس معنى ذلك أنه من أهل التحقيق العلمى فيعطى لنفسه

---

(١) رواه أبو داود .

(٢ ، ٣) أعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ٣٤ .

(٤) رسالة صحوة الشباب الإسلامى ظاهرة صحية يجب ترشيدها لا مقاومتها ـ تحت عنوان (احترام التخصص) بتصرف ص ١٥ د . القرضاوى .

الحق فى أن يفتى بل ويتصدر الفتيا وهو يجمع بين الغث والسمين ويخلط بين الأصيل والدخيل ويمزج بين الحقيقة والخرافة بل وكثيرا ما تشتبه عليه المسائل فيفتى بغير علم فيضل ويضل وكثيرا ما تختلط عليه المراتب فيضخم الصغير ويصغر الكبير ويعظم الهين ويهون العظيم وكثيرا ما يعتقد السامعون المبهورون بحسن الأسلوب وسحر البيان أن مثله جدير أن يؤخذ عنه ويتلقى منه (١) .

والذى نريد أن نقوله أن الوعظ والخطابة فن وأن الفقه والتحقيق فن آخر وليس كل من يحسن أحدهما يحسن الآخر ولذلك فما أمس حاجة الداعى إلى ورع بجانب العلم الذى يحصله حتى لا يشعر بحرج أن يقول : لا أدرى فرسول الله ﷺ حين كان يرسل الرسل ليبلغوا دعوة الله كانوا يمتازون :

بالعلم ـ والورع والاعتدال والخشية من الله فتراهم جيدى الحفظ ، عميقى الفهم دقيقى الاستنباط يمتازون بالاعتدال فيما يفتون به ورضوان الله على الحسن البصرى إذ يقول: يضيع هذا الدين بين الغالى فيه والجافى عنه بجانب وتأمل قول ابن مسعود رضي الله عنه : ليس العلم من كثرة الحديث ولكن العلم من كثرة الخشية « وقيل: إنما العلم الخشية » إنما يخشى الله من عباده العلماء (٢) .

قال طاووس قلت : لابن عباس : ذكر أن النبى ﷺ قال : « اغتسلوا يوم الجمعة واغسلوا رءوسكم وإن لم تكونوا جنبا واطيبوا من الطيب » ، قال ابن عباس : أما الغسل فنعم وأما الطيب فلا أدرى ؟ (٣) . وأنت ترى ورع ابن عباس وهو الذى دعا له الرسول ﷺ أن يفقهه فى الدين ويعلمه التأويل ودعاء الرسول ﷺ مستجاب فأصبح حبر هذه الأمة وفقيهها ومع هذا يقول لمن سأله لا أدرى فى أمر نظنه جميعا أنه ليس ذا شأن .

قال حسان بن سنان: «ما رأيت شيئا أهون من الورع، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»(٤) والمعنى إذا شككت فى شىء فدعه ، وترك ما يشك فيه أصل عظيم فى الورع . وقد روى الترمذى من حديث عطية السعدى مرفوعا «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس » قال الخطابى: كل ما شككت فيه فالورع اجتنابه .

وها هو ذا رسول الله ﷺ يُسأل عن الساعة فى حديث جبريل المشهور فيقول : ما المسئول عنها بأعلم من السائل « قال الإمام النووى : يستنبط منه أن العالم إذا سئل عما لا يعلم يصرح بأنه لا يعلمه ولا يكون ذلك نقصا فى مرتبته، بل يكون دليلا على مزيد

---

(١) المصدر السابق صحوة الشباب المسلم ص ١٨ . (٢) راجع تفسير ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ .
(٣) البخارى ج ٢ ص ٣٧ كتاب الجمع . (٤) البخارى ج ٤ ص ٢٩١ .

ورعه»(١).

إن التربية وتبصير الناس يحتاج إلى فقه دقيق ويستحيل على الداعى أن يحصل الفقه إذا كان تلميذ كتاب فهو فى هذه الحال يجمع السطور ويحفظ المتون أما أن يكون ذا فقه فلابد من فقيه يرشده وفى المثل « من كان شيخه كتابه خطأه أكثر من صوابه » ولذلك تتلمذ تلاميذ البنا على يده فعلّم أتباعه الفقه ومرونة الحركة فهوت إليهم الأنفس وأتى إليهم الناس من كل فج عميق حتى أصبحت دعوتهم فى مشارق الأرض ومغاربها الله غايتها والرسول قدوتها والقرآن دستورها والجهاد سبيلها والموت فى سبيل الله أسمى أمانيها .

● تحديد المفاهيم :

إن تحديد المفاهيم من الأمور الهامة التى تجمع المسلمين على كلمة سواء ولا يستطيع مسلم أن يحصل هذه المفاهيم من سطور يقرأها فى كتاب بل لابد من تعلم وإمام يرشده فآيات الله لا يفقهها إلا العالمون ولذلك كانوا أحق الناس بخشية الله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس منه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة » و« من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ولذلك حرص الصحابة أن يتلقوا العلم عن رسول الله ﷺ أو ممن تفقه على يديه ﷺ .

ولقد رأينا صحابة رسول الله ﷺ وهم من السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين يحترمون العلماء فكان ابن عباس يأخذ بركاب زيد بن ثابت ويقول : هكذا أمرنا أن نفعل مع علمائنا وكان على رضي الله عنه يقول: إن من حق العالم عليك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية وأن تجلس أمامه ولا تعينه فى الجواب ولا تطلبن عثرته إن زل قبلت معذرته ولا تقولن له : سمعت فلانا يقول كذا ولا إن فلانا يقول بخلافك ولا تصفن عنده عالما فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيئا » (٢) .

ولذلك وجدنا احتراما لهم شديدا يقول سعيد سمرة بن جندب رضي الله عنه : كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاما فكنت أحفظ عنه فما يمنعنى من القول إلا أن ها هنا رجال هم أسن منى (٣) .

أليس لنا بعد ذلك أن نسأل أهل الذكر إن كنا لا نعلم ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ .

لقد تنبأ رسول الله ﷺ بزمان يتخذ الناس فيهم رؤساء جهالا فقال ﷺ فى الحديث

(١) البخارى ج ١ ص ١٢١ . (٢) أعلام الموقعين ج ١ (٣) متفق عليه .

الذى رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »(١) .

فهل هناك أجهل من الذين يتصدرون لدعوة الناس إلى دين الله على أنه عبادة دون قيادة وشعيرة دون شريعة ومنهاج دون جهاد حتى رأينا أناسا ينكرون أن الإسلام دين الجماعة ويقولون: إنه تهذيب نفس وإصلاح قلب لا دخل له بجماعة وهى التى تحمى أفرادهم من أن يأكلها الذئاب يشد الأزر ويشارك أفرادها فى كل الأمر ليقيموا جميعا شرع الله على الأرض،ومن هنا جعل ابن تيمية عقد الأخوة مساو لعقد الإيمان إذ به يقام شرع الله وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وجهل الذين جعلوا الإسلام سيفا مسلطا على رقاب العباد لا يعرفون حكمة فى الكلمة ولا موعظة فى الدعوة ولا مجادلة بالتى هى أحسن . . ويظنون أن الإسلام بدأ بالسيف ولا يفرقون بين الاستيلاء على السلطة وبين إقامة شرع الله على الأرض فالأولى ما أسهلها واستخدام القوة فيها قد يجدى ولقد رفضها رسول الله ﷺ حين عرضت عليه أول الأمر أما الثانية فهى التى اختارها وهى إقامة شرع الله على الأرض وهى التى تحتاج إلى بناء الرجال ولذلك طالت مرحلة التعريف والانتقاء والاختيار وترسيخ العقيدة لإيجاد الرجال الذين إذا رأوا الأحزاب قد تحزبوا عليهم قالوا :هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ما زادهم إلا إيمانا وتسليما . . . إنها صناعة الرجال أولا فى بيوت الله فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وغيرهم وغيرهم الكثير لذا وجب على الداعى أن يشرح للمدعو أهمية أن يتلقى المدعو علمه على يد عالم فقيه أو داع حصيف يعرف دعوته ، ويفهم منهجه إذ أن فاقد الشىء لا يعطيه . فالإسلام أخذ وعطاء يتم فى جماعة فيها علماء وتلاميذ فهى كاليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وكالبنيان يشد بعضه بعضا ، من التزم بها نجا ومن بعدُ عنها هلك إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

● التلقى من ذوى الخبرة :

ولا تنس أن التلقى من ذوى الخبرة والتجربة يعصم من الزلل ، وأن العمل بعيدا عنهم

---

(١) متفق عليه .

هو السبب فى استعجال النتائج ، وذلك أن الإنسان يولد ولا علم له بشىء فى هذه الحياة كما قال ربنا: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨] .

ثم يبدأ ــ عن طريق ما وهبه الله من السمع ، والأبصار ، والأفئدة ــ التعلم ، والتعلم لا يكون من الكتب وحدها . بل يتم أيضا بواسطة التجربة والممارسة العالم الواعى هو الذى ينتفع بخبرات وتجارب مَنْ سبقوه على الطريق ليوفر على نفسه الجهد والوقت ، والتكاليف ، أما إذا شمخ بأنفه ، ونأى بنفسه وبدأ العمل بعيدا عن ذوى الخبرة والتجربة والعلم فستكون له أخطاء وقد يكون استعجال الطريق واحدا منها .

ولعل السر فى وصية الإسلام باحترام العلماء ،وكبار السن الصالحين وذوى الفضل، حيث يقول ﷺ: « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله،فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا فى الهجرة سواء ، فأقدمهم سلْما ولا يؤمَّنّ الرجل الرجل فى سلطانه ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه »(١).

لعل السر فى ذلك إنما هو الظفر بثمار تجارب هؤلاء ، وخبرتهم بدرب الحياة الطويل نظرا لأن الإنسان غالبا ما يعطى من يعرف له حقه ، ويضنّ ويبخل على من يهدد هذا الحق ولا يرعاه (٢) .

وهكذا فإن الداعى حين يكون تلميذ إمام فى الفقه والحركة ، والخبرة والتجربة فإنه يعطى ما أخذه من أساتذته إلى الذين يدعوهم فتتحقق الدعوة السليمة بالفهم الدقيق ويرث الدعوة من فقهها حركة ودعوة .

★ ★ ★

(١) أخرجه مسلم كتاب المساجد .

(٢) آفات على الطريق الدكتور السيد محمد نوح ص ٧٢ ، ٧٣ .

خاتمة

أخطاء يجب التحرز منها وأمور يجب مراعاتها

أولا : على الداعى أن يتحرى قصده حين دعوة غيره فيقصد بدعوته وجه الله يقول الإمام الشافعى: « وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلىّ حرف منه » ويقول : « ما ناظرت أحدا قط على الغلبة ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه» وعن أبى يوسف رحمه الله تعالى قال : « يا قوم أريدوا بعلمكم الله فإنى لم أجلس مجلسًا قط أنوى فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ولم أجلس مجلسا قط أنوى فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح » (١) .

ثانيا : أن يتخلق الداعى بالمحاسن والأخلاق الكريمة ويتحلى بالحلم والصبر وطلاقة الوجه والورع واجتناب الضحك حين الدعوة والحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس وإن كانوا دونه.

ثالثا : لا يستنكف الداعى من التعلم ممن هو دونه فى سن أو نسب أو شهرة أو دين أو فى علم آخر ولا يستحى عن السؤال عما لم يعلم ولا يتعاظم على المتعلمين قال سعيد بن جبير : « لا يزال الرجل عالما بالعلم ما تعلم فإذا ترك العلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون » (٢) .

رابعا : على الداعى حين يتعامل مع الناس أن تكون قاعدته أن الأصل فى المسلم العدالة والجرح لا يكون إلا للفاسق أو الكافر ويكون أساس التعامل ظاهر السلوك ولا شأن له بالباطن ﴿ وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين ﴾ .

خامسا : أن يحترم من له سبق فى الدعوة إلى الله ، وأن ينزل الناس منازلهم مع الأخذ فى الاعتبار أن العبرة لمن ثبت على الطريق وليس لمن سبق فقيمة السبق فى الثبات ومواصلة الطريق .

سادسا : أن يعلم الداعى أن « الغاية هى الله » فالوصول لتحقيق العبودية لله سبحانه هى الهدف الأسمى ولذلك فإن الجماعة وسيلة ، والحكومة وسيلة وجميع ما يدعو إليه من تنظيم صفوف المسلمين وتحقيق وحدتهم وسائل لتحقيق الأهداف ،وليست غاية بذاتها ،فلا يجوز بحال من الأحوال أن تنقلب هذه الوسائل إلى غايات فليست غاية الدعوة إلى الله

---

(١) باب أقسام العلم الشرعى ج ١ ص ٥٤ للإمام النووى تكملة الشيخ محمد نجيب المطيعى رحمة الله عليه .
(٢) المرجع السابق ص ٥٦ .

والعمل الإسلامى الوصول إلى الحكم ولكن إقامة شرع الله أيا كان الذى يحقق ذلك . فالمهم أن تتحقق المعانى التى يريدها الإسلام وليس المهم أن يحكم أشخاص أو جماعات بأعيانهم .

سابعا : لابد أن يعى أن وسائل العمل الإسلامى وطرقه وأساليبه ليست دينا لا يتغير ولا يتبدل ويجب الحفاظ عليه بل يجب أن يتطور طبقا لظروف المكان والزمان والعصر فالأهداف الإسلامية من الثوابت والوسائل لتحقيق هذه الأهداف من المتغيرات فقد تكون لبعض الوسائل جدوى فى عصر معين أو لمواجهة مشكلات بعينها فى مجتمع له ظروفه واهتماماته، ولذا فإن الجمود على وسائل بعينها فى العمل وعدم القدرة على تجاوزها إنما هى حرب فى غير معركة وانتصار بغير عدو ويخشى أن يكون مضيعة للعمر والأجر.

ثامنا : يجب على الداعى مراجعة وإعادة النظر دائما فى وسائل الدعوة على ضوء مستجدات العصر ،ولابد من الاستمرار فى اتهام نفسه بالتقصير عن إدراك الصورة المثلى ويبقى شعار الداعى أن عدم تحقيق النتائج ربما تسبب منه ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ وإن كنا لا نقيّم الأمور بنتائجها ولكن بالأخذ بالأسباب التى توصلنا إليها .

تاسعا : يجب على الداعى ألا يستخدم التبرير ليقنع نفسه أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، ولكن يقوم بدراسة أسباب التقصير مستعينا بالحوار مع إخوانه ليستفاد من كل الطاقات ملتزما بأدب الحوار الإسلامى واضعا نصب عينيه أن المشروعية للمبادئ والأفكار ، وليست للوسائل والأشخاص لأن القناعة بالشىء هى الدافع لممارسته .

عاشرا : لابد للداعى أن يحتسب الدعوة لله فيتحمل الإيذاء والاستهزاء ولا يفكر فيرد الصاع صاعين ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ فصاحب الدعوة يدفع بالتى هى أحسن وليس بمنتقم وهو يزهد بما فى أيدى الناس ويبتعد عن مزاحمتهم على ما هم فيه ولا يحترف الإسلام ﴿ يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . . . ﴾ فمجتمع الإسلام مجتمع عطاء لا أخذ ، مجتمع واجبات قبل أن يكون مجتمع حقوق،مجتمع هداية لا جباية،مجتمع إيثار لا أثرة.

حادى عشر : على الداعى أن يفهم جيدا أن الإسلام ليس حكرا عليه ولا على جماعته، وجماعته ليست جماعة المسلمين ولكنها من جماعات المسلمين لأن الإسلام أصل والحركات الإسلامية وسائل فلا يجب أن نغلب الوسيلة على الأصل . وعلى هذا فإن الداعى ينظر إلى المسلمين جميعا على أنهم إخوة له يحترم كبيرهم ويرحم صغيرهم ويتودد إلى علمائهم ويحترمهم ولا يقلل من شأنهم ويقدر كل جهد تبذله أى جماعة من

الجماعات العاملة للإسلام .

ثانى عشر : ألا يزيد من الخلاف بين الجماعات العاملة فى حقل الدعوة الإسلامية بإظهار استعلائه بجماعته عن باقى الجماعات فالجميع على ثغرة من ثغر الإسلام وأن يكون شعاره نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه .

ثالث عشر : على الداعى أن يفرق بين الإسلام والمسلمين فالإسلام منزه لا يُدان ، والمسلمون قد يقتربون من الإسلام تطبيقا أو يبتعدون عنه فالمسلمون معرضون للإدانة وليس الإسلام فالخلط بين المبدأ والتطبيق وبين القاعدة والمثال وبين الإسلام والمسلمين قد يولد الكمال الزائف عند بعض الدعاة أو يعطى الفرصة لتشويه الإسلام بسبب واقع المسلمين فيلقى أعداء الإسلام الشبهات لتشكيك المسلمين فيجب على الداعى أن يوضح ذلك للمدعوين ليحذروا هذه الخديعة .

رابع عشر : على الداعى أن يبدأ دعوته حيث انتهى فهم المدعو وليس من حيث انتهى فهم الداعى نفسه ليأخذ بيد المدعو نحو الفهم الكامل للإسلام .

خامس عشر : ابدأ بأقرب الناس لك ومن هو لديه استعداد للاستجابة ثم الذى يليه ، ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ .

سادس عشر : ألا ينظر إلى العصاة والبغاة نظرة اليائس من إصلاحهم ، فيحكم عليهم مسبقا بعدم الاستجابة وينسى أن الله يقلب القلوب والأبصار كما يقلب الليل والنهار. ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾.

سابع عشر : ألا يضع شروطا يجب أن تتوفر فى المدعو لكى يدعوه فإذا افتقد شرطا حكم عليه بعدم الصلاح ولا يوجهه إلاحسب ما يحمل من قدرات ويستغل إمكانياته مهما كانت ضئيلة لصالح الدعوة وكل ميسر لما خلق له .

ثامن عشر : ألا يتعامل الداعى مع طبقة معينة من الطبقات ويهمل دعوة الباقين فيتعامل مع المثقفين مثلا ويهمل البسطاء أو مع المتعلمين ويهمل الجهلاء أو مع الموظفين ويترك العمال . وينسى أن دعوته للناس كافة .

تاسع عشر : ألا تستهين بدعوة الصبى والصغير وتنسى أن أطفال اليوم رجال الغد .

العشرون : ألا تهتم بالرجال وتهمل النساء فإن النساء شقائق الرجال والدعوة لهما لا يفرق بين أحدهما .

الواحد والعشرون : ألا تستهين بالكلمة الطيبة تقولها ولا تبخل بها ولا تنس أن

للقلوب مفاتيح لا يعلمها إلا الله فربما كانت كلمتك الطيبة مفتاح قلب قاس فيهديه الله على يديك فذلك خير لك من حمر النعم .

الثانى والعشرون : أن تتقبل الناس على ما هم عليه مع إبراز جانب الإحسان فيهم وترغيبهم للحق الذى تدعوهم إليه .

الثالث والعشرون : ألا تسفه عملا قام به من تدعوه ولو كان حقيرا بل تثنى عليه وتشجعه .

الرابع والعشرون : أن تكلفه ما يطيق ولا تحاول إشعاره بعجز فيما يوكل إليه من عمل بل كلفه ببعض الأعمال البسيطة حتى يشعر بأنه قد أدى عملا نافعا ثم تدرج معه فى التكاليف .

الخامس والعشرون : تشجيعه على أن يسأل عن كل ما يعتمل فى نفسه ولو كان محرجا ففى هذا خير كثير ومعرفة لنواحى النقص والكمال عنده .

السادس والعشرون: لا تحاول أن تسخر من العصاة من أصحاب المراكز العالية أو ترميهم بفسق وأنزل الناس منازلهم فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

السابع والعشرون : كن داعيا لا قاضيا فلا تحكم على الناس بكفر أو ردة ولتكن مهمتك التذكرة ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ وتذكر توجيه المصطفى ﷺ وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة والعكس صحيح .

الثامن والعشرون : تألف القلوب بإهداء المدعوين بعض الهدايا من الكتب النافعة لتنجذب إليك سمعا وطاعة مع مراعاة ألا يتعلق المدعو بشخصك ولكن بالفكرة التى تدعو إليها .

التاسع والعشرون : لا تتصور أن ما عندك من علم يجب أن ينتهى إليه ويتحاكم به وتنسى أن ما يحمله غيرك من علم له نفس الحق الذى تزعمه فإن ما معك من علم هو صواب يحتمل الخطأ وما عند غيرك خطأ يحتمل الصواب فتتلاقى القلوب وتتقارب الأفكار.

الثلاثون : انظر إلى أهل المعاصى وقل الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وإذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية « وقل الحمد لله الذى عافانا مما ابتلى به غيرنا » .

الواحد والثلاثون : كرر الدعوة مرات ومرات فأنت لا تعرف متى تفتح القلوب إن عليك إلا البلاغ وتذكر إسلام عمر يوم قالوا عنه : « والله لا يسلم حتى يُسلم حمار ابن الخطاب » .

الثانى والثلاثون : ثق فى نصر الله وأن الدعوة ستنتصر فلا تخش على الدعوة من الضياع فالله حافظها ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ولكن اخش على نفسك من ألا تلحق بركب أصحاب الدعوات .

فالدعوة إن لم تكن بك فبغيرك وأنت إن لم تكن بأصحاب الدعوات فلست بغيرهم .

وإذا رأيت أهل المعاصى والكفر والإلحاد فاحمد الله على نعمة الطاعة وقل الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وإذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المراجع

أولا : القرآن الكريم .

ثانيا : التفاسير .

١ ـ تفسير القرآن العظيم . لابن كثير

٢ ـ جامع البيان عن تأويل أى القرآن الإمام المفسر أبو جعفر بن محمد ابن جرير الطبرى

٣ ـ جامع الأحكام للقرطبى

٤ ـ أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين الشنقيطى

٥ ـ التفسير الوسيط لجنة من العلماء

٦ ـ تفسير القرآن الحكيم الشيخ عبد المنعم أحمد تعيلب

٧ ـ التفسير الكبير للفخر الرازى

٨ ـ صفوة التفاسير الشيخ محمد على الصابونى

٩ ـ تفسير أبى السعود لأبى السعود

١٠ ـ فى ظلال القرآن سيد قطب

ثالثا : السنة المطهرة

١ ـ صحيح البخارى الإمام البخارى

٢ ـ صحيح مسلم الإمام مسلم

٣ ـ الفتح الربانى (مسند الإمام أحمد) الشيخ عبد الرحمن البنا

٤ ـ رياض الصالحين الإمام النووى

٥ ـ الترغيب والترهيب المنذر

٦ ـ جامع الأصول فى أحاديث الرسول لابن الأثير

٧ ـ كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للبرهان فورى

٨ ـ نيل الأوطار الإمام الشوكانى

٩ ـ كتاب الشكر ابن أبى الدنيا

١٠ ـ سبل السلام الإمام الصنعانى

١١ ـ موعظة المؤمنين محمد جمال الدين القاسمى

١٢ الوابل الصيّب من الكلم الطيب — ابن القيم الجوزية

١٣ ـ منهاج القاصدين — شمس الدين بن عبد الله المقدس

رابعا السيرة وفقهها :

١ ـ السيرة النبوية — ابن هشام

٢ ـ فقه السيرة — للبوطى

٣ ـ فقه السيرة — الشيخ محمد الغزالى

٤ ـ خاتم النبيين — الشيخ محمد أبو زهرة

٥ ـ حياة الصحابة — محمد يوسف الكاندهلوى

٦ ـ السيرة النبوية دروس وعبر — الدكتور مصطفى السباعى

٧ ـ مواقف من السيرة النبوية — مصطفى حسين عطار

٨ ـ صور من حياة الرسول — لدويدار

٩ ـ مجموعة غزوات الرسول — لأحمد باشميل

١٠ ـ مجموعة فى الفتوحات الإسلامية — لأحمد عادل كمال

١١ ـ من روائع البيان النبوى — الدكتور مصطفى عبد الواحد

١٢ ـ شخصية الرسول — الدكتور محمد على الهاشمى

خامسا : الفقه وأصوله :

١ ـ الفتاوى الكبرى — لابن تيمية

٢ ـ منهاج السنة النبوية — لابن تيمية

٣ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — ابن تيمية

٤ ـ أعلام الموقعين — ابن القيم

٥ ـ القواعد — العز بن عبد السلام

٦ ـ المدخل الفقهى العام — مصطفى أحمد الزرقا

٧ ـ أصول الفقه — الشيخ عبد الوهاب خلاف

٨ ـ أصول الفقه — الشيخ محمد أبو زهرة

٩ ـ المدخل إلى علم أصول الفقه — الدكتور معروف الدواليبى

١٠ ـ مقالات فى تاريخ الفقه الإسلامى — الشيخ عبد العال عطوة

١١ ـ فقه السنة — الشيخ سيد سابق

١٢ ـ بيان النصوص التشريعية — الشيخ بدران أبو العينين

١٣ ـ التسهيل لعلوم التنزيل — ابن جزى

سادسا : الدعوة وفقهها :

١ ـ مجموعة رسائل الأستاذ البنا — الإمام حسن البنا
٢ ـ إصلاح النفس والمجتمع — الإمام حسن البنا
٣ ـ مذكرات الدعوة والداعية — الإمام حسن البنا
٤ ـ أحاديث الجمعة — الإمام حسن البنا
٥ ـ الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ — الأستاذ محمود عبد الحليم
٦ ـ الشيخ حسن البنا ومدرسة الإخوان المسلمون — الدكتور رءوف شلبى
٧ ـ الإسلام والداعية — الأستاذ حسن الهضيبى
٨ ـ دعاة لا قضاة — الأستاذحسن الهضيبى
٩ ـ طريق الدعوة — الأستاذ مصطفى مشهور
١٠ ـ بين القيادة والجندية — الأستاذ مصطفى مشهور
١١ ـ الدعوة إلى الله حب — الأستاذ عباس السيسى
١٢ ـ الطريق إلى القلوب — الأستاذ عباس السيسى
١٣ ـ فى قافلة الإخوان المسلمون — الأستاذ عباس السيسى
١٤ ـ تذكرة الدعاة — الشيخ البهى الخولى
١٥ ـ ثقافة الداعى — الدكتور يوسف القرضاوى
١٦ ـ الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف — الدكتور يوسف القرضاوى
١٧ ـ التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا — الدكتور يوسف القرضاوى
١٨ ـ علل وأدوية — الشيخ محمد الغزالى
١٩ ـ مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية — الشيخ محمد الغزالى
٢٠ ـ مع الله ـ دراسات فى الدعوة والدعاة — الشيخ محمد الغزالى
٢١ ـ هموم داعية — الشيخ محمد الغزالى
٢٢ ـ دستور الوحدة الثقافية — الشيخ محمد الغزالى
٢٣ ـ خلق المسلم — الشيخ محمد الغزالى
٢٤ ـ كيف ندعو الناس — الشيخ عبد البديع صقر
٢٥ ـ الدعوة الإسلامية فريضة شرعية وضرورة بشرية — الدكتور صادق أمين
٢٦ ـ طريق الدعوة فى ظلال القرآن — أحمد فايز
٢٧ ـ كيف ندعو الناس إلى الإسلام — الأستاذ فتحى يكن

٢٨ ـ قوارب النجاة فى حياة الدعاة — الأستاذ فتحى يكن
٢٩ ـ مشكلات الدعوة والداعية — الأستاذ فتحى يكن
٣٠ ـ أبجديات التصور للعمل الإسلامى — الأستاذ فتحى يكن
٣١ ـ الدعوة إلى الإسلام تاريخها فى عهد النبى والصحابة والتابعين — الشيخ محمد أبو زهرة
٣٢ ـ العوائق — الأستاذ محمد أحمد راشد
٣٣ ـ المنطلق — الأستاذ محمد أحمد راشد
٣٤ ـ الرقائق — الأستاذ محمد أحمد راشد
٣٥ ـ الأخوة فى الله — الأستاذ محمد أحمد راشد
٣٦ ـ معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها — الدكتور محمود محمد بابلى
٣٧ ـ قواعد الدعوة إلى الله — الدكتور همام عبد الحليم عبد الرحمن سعيد
٣٨ ـ إلام ندعو الناس وكيف ؟ — الشيخ محمد سلامة جبر
٣٩ ـ من الذى يغير المنكر وكيف ؟ — الدكتور محمود محمد عمارة
٤٠ ـ الدعوة إلى الله — الدكتور توفيق الواعى
٤١ ـ معالم الدعوة فى قصص القرآن — عبد الوهاب بن لطف الديلمى
٤٢ ـ أصول الدعوة — عبد الكريم زيدان
٤٣ ـ كبرى الحركات الإسلامية فى القرن الرابع عشر — الدكتور محمد الوكيل
٤٤ ـ أصول الدعوة الإسلامية — الدكتور على جريشة
٤٥ ـ شرح وتحليل الأصول العشرين — محمد عبد الحكيم الخيال
٤٦ ـ الدعوة الإسلامية — أبحاث الندوة العالمية للشباب الإسلامى
٤٧ ـ معالم الشخصية الإسلامية — الدكتور عمر سليمان الأشقر
٤٨ ـ آفاق التعاليم — سعيد حوى
٤٩ ـ تذكرة دعاة الإسلام — أبو الأعلى المودودى

سابعا : كتب أخرى

١ ـ المصباح المنير — ابن منظور
٢ ـ لسان العرب — ابن منظور

٤ ـ مفتاح السعادة	ابن القيم
٥ ـ منهج القرآن فى التربية	الأستاذ محمد شديد
٦ ـ السلوك الاجتماعى	الأستاذ حسن أيوب
٧ ـ المقالات فى موضوع الحجاب	الشيخ زاهد الكوثرى
٨ ـ منهج التربية الإسلامية	سيد قطب
٩ ـ طريق الهجرتين	ابن القيم
١٠ ـ شفاء العليل	ابن القيم
١١ ـ القواعد	ابن القيم
١٢ ـ عدة الصابرين	ابن القيم
١٣ ـ إحياء علوم الدين	الإمام الغزالى
١٤ ـ خصائص التصور الإسلامى	سيد قطب
١٥ ـ الحكومة الدينية	الأستاذ عمر التلمسانى
١٦ ـ شهيد المحراب	الأستاذ عمر التلمسانى
١٧ ـ بين العقيدة والقيادة	اللواء محمود شيت خطاب
١٨ ـ الإسلام فى حياة المسلم	الدكتور محمد البهى
١٩ ـ الخصائص العامة للإسلام	الدكتور يوسف القرضاوى
٢٠ ـ الحل الإسلامى فريضة ضرورية	الدكتور يوسف القرضاوى
٢١ ـ الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية	أبو الأعلى المودودى
٢٢ ـ دعوة الله بين التكوين والتمكين	الدكتور على جريشة
٢٣ ـ نحو نظرية للتربية الإسلامية	الدكتور على جريشة
٢٤ ـ رسالة المهدى فى أشراط الساعة	الشيخ محمد على الصابونى
٢٥ ـ مؤتمر سورة يوسف	الشيخ عبد الله العلمى
٢٦ ـ الشفا	للقاضى عياض
٢٧ ـ كشف الخفا	العجلونى
٢٨ ـ روح الدين	عفيف عبد الفتاح طبارة
٢٩ ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية	شمس الدين بن عبد الله المقدسى
٣٠ ـ كتاب العلم	للحافظ ابن خيثمة
٣١ ـ الخلق الكامل	محمد أحمد جاد المولى

٣٢ ـ وجوب تحكيم الشريعة الإسلامية	الشيخ مناع خليل القطان
٣٣ ـ الإسلام فى حياة المسلم	الدكتور محمد البهى
٣٤ ـ الدين والدولة	الدكتور محمد البهى
٣٥ ـ منهج التربية الإسلامية	محمد قطب
٣٦ ـ دور المسلم ورسالته	مالك بن نبى
٣٧ ـ هذا الدين	سيد قطب
٣٨ ـ الإسلام بين الحكام والعلماء	عبد العزيز البدرى
٣٩ ـ نحو وعى إسلامى جديد	محمد المبارك
٤٠ ـ الإسلام وأوضاعنا السياسية	عبد القادر عودة
٤١ ـ أدب الاختلاف فى الإسلام	الدكتور طه جابر فياض العلوانى
٤٢ ـ نظرات فى مسيرة العمل الإسلامى	عمر عبيد حسنة
٤٣ ـ لمحات فى الثقافة الإسلامية	عمر عودة الخطيب
٤٤ ـ تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع	دكتور
٤٥ ـ الإعلام الإسلامى والعلاقات الإنسانية	أبحاث الندوة العالمية للشباب
٤٦ ـ القيادة والجندية فى الإسلام	الدكتور محمد السيد الوكيل
٤٧ ـ غيوم تحجب الإسلام	الدكتور محمد البهى
٤٨ ـ التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة	عبد الرحمن نجلاوى
٤٩ ـ معالم فى السلوك الإسلامى	دكتور سعد المرصفى
٥٠ ـ دعوة الإسلام	سيد سابق
٥١ ـ منهج القرآن فى عرض عقيدة الإسلام	جمعة أمين عبد العزيز

فهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	٩
المقدمة	١١
الفصل الأول	
أصول الدعوة وما يتعلق بها	١٥
معنى الدعوة	١٧
تعريفها لغة واصطلاحا	١٧
الواجب الثقيل	١٩
الدعوة التى نعنيها	٢٠
فريضة شرعية	٢٢
زيادة بيان فى وجوه الدعوة	٢٣
ضرورة اجتماعية	٢٦
فضل الدعوة إلى الله	٢٨
شعور بالأسف	٢٩
خصائص دعوتنا	٣٠
إلى أى شىء ندعو الناس	٣١
اتباع لا ابتداع	٣٢
فهمنا لدعوتنا	٣٣
عوامل نجاح دعوتنا	٣٤
الأصول العشرون	٣٥
الأهداف وسبلنا لتحقيقها	٣٩
الفصل الثانى	
دعوة وداعية	٤٣
الشخصية الإسلامية التى افتقدناها	٤٤
غثاء اليوم ورجال الأمس	٤٥
مقومات دولتنا	٤٧

صفات الداعى ٤٨
الأمانة ٥٠
الصدق ٥١
الإخلاص ٥٢
الرحمة والرفق ٥٥
الصبر ٦٢
الحرص ٦٦
الأمل والثقة فى نصر الله ٦٨
الوعى والفقه ٧٦
حاجتنا لفقه الدعوة ٧٨

الفصل الثالث

منهج الرسل وقواعد الدعوة ٨٣
منهج الرسل فى الدعوة إلى الله ٨٥
أنواع البيان فى القرآن ٨٧
موقف الداعى من المجتمع ٨٩
قواعد الدعوة ٩٢
مقاصد الشريعة ٩٢
العلم بقيم الأعمال والأحكام ٩٤
مراتب الأدلة ٩٧
اختلاف مراتب الناس ٩٩
شروط التصدى للمنكر ١٠٢
قاعدة سد الذرائع ١٠٦
الفقه ومرونة الحركة ١٠٩
بعض القواعد الشرعية التى يجب مراعاتها ١١١

الفصل الرابع

قواعد مستنبطة من الأصول ترشد الداعى ١١٣
أولاً : القدوة قبل الدعوة ١١٥
النموذج البشرى للقدوة ١١٥
رجل القول ورجل العمل ١١٨
درس التربية ١٢٣
النصر المزيف ١٢٦
مهمة مشرفة ١٢٧

ثانيا : التأليف قبل التعريف ١٢٩
فقه دعوتنا ١٢٩
الكلمة كائن حى ١٣١
لا مداهنة ١٣٢
مبادئ يجب مراعاتها لتحقيق التأليف ١٣٣
١ ـ شعور المدعو أنك تدعوه إلى مبدأ لا إلى نفع شخصى ١٣٣
٢ ـ شعور المدعو بأنك حريص عليه تحب له الخير ١٣٥
٣ ـ عدم تعنيفه ولو بالكلمة ١٣٩
٤ ـ أن تدنيه منك وتلاطفه وتهش فى وجهه ١٤٦
٥ ـ أن تعطيه وجهك حين التحدث إليه ولا تقاطعه ١٥٤
٦ ـ أن تحاوره دون تعالى عليه وتنزله منزلته ١٥٦
٧ ـ أن تسر إليه بالموعظة ولا تكاشفه بين الناس ١٦٠
٨ ـ إعطاؤه بعض الهدايا والعطايا تأليفا لقلبه ١٦٣
٩ ـ أن تستثير همته بما يفتح قلبه للحق ١٦٦
١٠ ـ أن تتجنب معه الخلافات الفقهية وتترك المراء ١٧٠
ثالثا : التعريف قبل التكليف ١٧٥
توقير مصدر الأمر ١٧٧
الطاعة ثمرة المعرفة ١٧٩
دعوة للإيمان قبل العمل ١٨٠
ماذا بعد التعريف ١٨١
الثقة فى طريق الله ١٨٣
رابعا : التدرج فى التكاليف ١٨٦
خاطبوا الناس على قدر عقولهم ١٨٧
تأخير البيان ١٨٩
الرحيم يعلمنا ١٩٠
مع الرسول المعلم ١٩١
خامسا : التيسير لا التعسير ١٩٦
مع الله فى كتابه ١٩٧
يسروا ولا تنفروا ١٩٩
النهى عن الإفراط ٢٠٠
جواز النهى عن المستحبات إذا خشى أن ذلك يفضى إلى السآمة والملل ٢٠١

معالجة للنفس عجيبة ٢٠٣
كره التشدد فى العبادة ٢٠٤
قاعدة هامة ٢٠٦
سادسا الأصول قبل الفروع ٢٠٧
دعوة المسلمين إلى الإسلام ٢٠٨
البعد عن مواطن الخلاف ٢٠٩
البدء بالكليات ٢١٠
الاشتغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى ٢١٢
سابعا الترغيب قبل الترهيب ٢١٤
إسلام عدى ٢١٥
مع الذى قتل المائة ٢١٧
ثامنا التفهيم لا التلقين ٢١٩
ففهناها سليمان ٢٢٠
من فقه الصحابة ٢٢٠
فهم آخر ٢٢٤
تاسعا التربية لا التعرية ٢٢٥
ستر من اعترف بحد ولم يسم ٢٢٧
لا تثريب عليهم ٢٢٧
مع الزناة ٢٢٩
مع يوسف ٢٢٩
مع عمار بن ياسر ٢٣١
مع حاطب بن أبى بلتعة ٢٣٢
عاشرا تلميذ إمام لا تلميذ كتاب ٢٣٤
مع الصحابة ٢٣٤
احترام أهل التخصص ٢٣٦
لابد من هذا الفهم ٢٣٧
تحديد المفاهيم ٢٣٩
التلقى من ذوى الخبرة ٢٤٠

خاتمة

أخطاء يجب التحرز منها وأمور يجب مراعاتها ٢٤٢
المراجع ٢٤٧